كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines - Marrakech
جامعة القاضي عياض
UNIVERSITÉ CADI AYYAD

الاستناد

مجلة علمية محكمة تعنى بالدراسات الشرعية والعلوم الإنسانية تصدر بالمملكة المغربية
تصدر عن مجموعة البحث: مناهج الاستمداد والاستدلال من القرآن والسنة وتطبيقاتها المعاصرة
بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض بمراكش

المدير المسؤول: الأستاذ الدكتور محمد خروبات

عدد خاص

بجائحة "كوفيد 19"

العدد الرابع - صيف 2020م

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

سيدنا

مجلة علمية محكمة تعنى بالدراسات الشرعية والعلوم الإنسانية تصدر بالمملكة المغربية
تصدر عن مجموعة البحث: مناهج الاستمداد والاستدلال من القرآن والسنة وتطبيقاتها المعاصرة
بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض بمراكش
العدد الرابع صيف عام 2020م

المدير المسؤول:
الأستاذ الدكتور محمد خروبات
أستاذ التعليم العالي، جامعة القاضي عياض، مراكش، المملكة المغربية

رئيس التحرير:
الدكتور سعيد النكر
أستاذ التعليم العالي، جامعة القاضي عياض، مراكش، المملكة المغربية

هيئة التحرير
- **الدكتورمنصف لكريسي:** أستاذ التعليم العالي،جامعة القاضي عياض، مراكش.
- **الدكتورة بثينة الغلبزوري:** أستاذة التعليم العالي، جامعة محمد الخامس، الرباط.
- **الدكتور عبد الكريم عكيوي:** أستاذ التعليم العالي، جامعة ابن زهر، أكادير.
- **الدكتور إبراهيم أحتشاو:** جامعة محمد الخامس، الرباط.

الجهة المشرفة على المجلة مستقلة، ليس لها أي انتماء سياسي أو نقابي أو حزبي

رقم الإيداع القانوني للمجلة: 2013PE0013

ISSN

2028-9979

ملف الصحافة عدد

2019/05 ص.

النيابة العامة مراكش

أعضاء الهيئة العلمية الاستشارية

- **الدكتور حمزة المليباري:** جامعة الوصل، الإمارات العربية المتحدة.
- **الدكتور عبد الرزاق الجاي:** جامعة محمد الخامس، الرباط، المملكة المغربية.
- **الدكتور محمد خروبات:** جامعة القاضي عياض، مراكش، المملكة المغربية.
- **الدكتور ميمون باريش:** جامعة القاضي عياض، مراكش، المملكة المغربية.
- **الدكتورة أمينة السعدي:** جامعة القاضي عياض، مراكش، المملكة المغربية.
- **الدكتور منصف لكريسي:** أستاذ التعليم العالي، جامعة القاضي عياض، مراكش.
- **الدكتورة بثينة الغلبزوري:** أستاذة التعليم العالي، جامعة محمد الخامس، الرباط.
- **الدكتور عبد الكريم عكيوي:** أستاذ التعليم العالي، جامعة ابن زهر، أكادير.
- **الدكتورة لطيفة الوارتي:** جامعة محمد الخامس، الرباط، المملكة المغربية.
- **الدكتور عبد السلام أبو سمحة:** جامعة الوصل، الإمارات العربية المتحدة.
- **الدكتور حميد قوفي:** جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر.
- **الدكتور مصطفى المشني:** جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة.
- **الدكتور عبد القادر مصطفى المحمدي:** الجامعة العراقية، العراق.
- **الدكتور زكريا كولر:** جامعة الفاتح، تركيا.
- **الدكتور عمر محمد عبد المنعم الفرماوي:** جامعة تبوك، المملكة العربية السعودية.
- **الدكتور محسن بن موسى الحسني:** رئيس رابطة علماء المسلمين لدول أمريكا اللاتينية، البرازيل.
- **الدكتور محمد المفتي الحسني:** جامعة آل البيت، المملكة الأردنية الهاشمية.
- **الدكتور عبد الغني بن سعد الشمراني:** جامعة الأمير سلطان بن عبد العزيز، المملكة العربية السعودية.
- **الدكتور الحسين عاصم:** مهتم بالتراث التفسيري الأندلسي، مدير مجلة سوس العالمة.
- **الدكتور سعيد النكر:** جامعة القاضي عياض، مراكش، المملكة المغربية.

شروط النشر في المجلة

- أن تكون المقالات والأوراق البحثية أصيلة ومبتكرة، وتتسم بالجدة والطرافة.
- أن تتطرق إلى قضايا شرعية ودينية، مع الانفتاح على العلوم الإنسانية المعاصرة.
- أن لا تكون منشورة من قبل أو مقدمة للنشر لدى جهة أخرى.
- أن تكون مستوفية لشروط البحث العلمي من حيث الشكل والمضمون، وأن تتقيد بالضوابط العلمية والأكاديمية المتعارف عليها.
- أن ترسل البحوث والمقالات في نسختين رقميتين إحداهما بصيغة word والأخرى بصيغة pdf.
- توضع هوامش كل صفحة في نهايتها، وتُعْتمَد الصيغة التالية في الإحالة والتوثيق: المؤلف، الكتاب، مع ذكر معلومات الكتاب كاملة عند أول ذكر له في المقالة.
- ترتب المصادر والمراجع في نهاية البحث، مع ذكر معلوماتها كاملة: اسم المؤلف، عنوان الكتاب، دار النشر، بلد النشر، السنة.
- في حالة النشر، يصبح المقال في ملكية المجلة ولا يحق لصاحبه إعادة نشره لدى جهة أخرى.
- تقبل المقالات المحررة باللغات: العربية، الفرنسية، الإنجليزية.
- يرسل الباحثون أعمالهم مصحوبة بسير ذاتية تظهر مسارهم الأكاديمي ومجالات اهتمامهم العلمية.
- في حال عدم قبول البحث، المجلة غير ملزمة بإبداء أسباب الرفض.
- المقالات تعبر عن رأي أصحابها، ولا تتحمل المجلة أي مسؤولية عن مضامين وأفكار ومواقف المؤلفين.
- ترسل المقالات عبر البريد الالكتروني:

alistinad.revue@gmail.com

مقالات العدد

افتتاحية العدد

محور دروس وعبر جائحة كورونا

التفكير السلبي والإيجابي في جائحة "كوفيد19"بين فقدان المناعة ووقاية الذات 12
الأستاذ الدكتور محمد خروبات جامعة القاضي عياض بمراكش

دروس وأفكار من زمن كورونا 20
الأستاذ الدكتور عبد الكريم عكيوي جامعة ابن زهر بأكادير

الكون العابد شريك للإنسان في الحياة 59
الأستاذ الدكتور سعيد شبار رئيس المجلس العلمي ببني ملال

"كوفيد 19" دروس وعبر إثمار الزمن أنموذجا 65
الأستاذة الدكتورة أمينة السعدي جامعة القاضي عياض بمراكش

جائحة الشائعات والأخبار الزائفة في ميزان النقد الشرعي 79
الأستاذ الدكتور ميمون باريش جامعة القاضي عياض بمراكش

أزمة الخطاب الديني في زمن الجوائح: وباء كوفيد 19 مثالا 97
الأستاذ الدكتور أحمد غاوش جامعة القاضي عياض بمراكش

أخلاق البحث العلمي في زمن كورونا 114

الدكتورة سميرة غموري

إعادة تصور السعادة من رحم كورونا 135
الدكتور إبراهيم أحتشاو مركز وزان للدراسات والأبحاث في قضايا الأسرة

تجليات الابتلاءات على الحياة الإنسانية في زمن كورونا نموذجا.....145
الباحث توفيق الغدويني

محور فقهيات كورونا

الأثر المقاصدي في تدخل الدولة لمواجهة وباء كورونا "المملكة المغربية أنموذجا".....155
الدكتورة بشرى البرطيع

"كورونا والصلاة في البيوت" هل حفظ الأبدان مقدم على حفظ الأديان ؟.....179
الباحث كريم عيار

الأحكام الفقهية لبعض المسائل المستجدات الحالية في زمن وباء كورونا.....193
الدكتور رشيد اليزيدي

قصيدة العدد

قصيدة: "محنة" 212
الدكتور أمحمد خالد

افتتاحية العدد

أمام المحنة التي أصابت الإنسانية جمعاء خلال بداية سنة 2020م، والمتمثلة في جائحة كورونا، الجائحة التي عمَّت جل بقاع الأرض مخلفة ضحايا وقتلى جراء الفيروس الخبيث "كوفيد 19"، ومؤثرة على حال الإنسان الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، وانخراطا من فريق المجلة من العلماء والباحثين والدارسين في هموم الأمة والوطن، ارتأت هيئة تحرير المجلة إصدار عدد خاص بهذه النازلة، لدراسة كل ما يتعلق بالجائحة من قضايا وموضوعات علمية ومعرفية، بمنهج علمي دقيق ورصين يقطع مع ثقافة الإشاعات والإرجاف التي عمت العالم الافتراضي والإعلام الرديء، وهو منهج يستمد أصوله من القيم العلمية والموضوعية التي ينبغي أن يتحلى بها البحث العلمي الأكاديمي الجاد، وذلك وفق المحاور التي أعلنت عنها المجلة في دعوة المشاركة وشروطها، وقد استجاب للدعوة مجموعة من الأساتذة الباحثين الذين لبوا الدعوة مشكورين، وقد غطت مساهماتهم أهم الجوانب المتعلقة بالجائحة وعبرها وقضاياها: الفقهية والأصولية، التربوية والاجتماعية، الفكرية والنفسية، العلمية والأدبية.

إن فريق المجلة يشكر الأساتذة الذين لبوا نداء الواجب الوطني والديني وحمل هَم الإنسان وأمنه، فبارك الله فيهم ونفع الله بجهودهم، وإننا نغتنم هذه الفرصة للتعبير عن صادق تعازينا للأمة الإسلامية جمعاء في وفاة ثلة من العلماء الكبار الذين وافتهم المنية خلال هذه الجائحة، بل وبسببها عند الكثير منهم، كما هو شأن العلامة الأستاذ الدكتور سيدي مصطفى المشني وهو أستاذ التفسير وعلوم القرآن في الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك وجامعة الشارقة سابقا، وهو كذلك عضو سابق في الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف الدولية بكلية الدراسات العربية والإسلامية بدبي، وعضو الهيئة العلمية الاستشارية لمجلة الاستناد وقد ساهم في تحكيم مقالات هذا العدد المخصص لجائحة كورونا، ليكون بقضاء الله وقدره أحد ضحاياه، وقد كان رجلا عالما، ورعا، متواضعا، كما عرفناه، فنسأل الله عز وجل أن يتغمده وسائر علماء المسلمين ضحايا هذا الوباء وكذا كل شهداء الأمة خلال هذه الجائحة

بواسع رحمته، وأن يرفع عنا وعن كل أقطار الأرض هذا المرض الفتاك القاتل، وأن يجيرنا جميعا من آفاته وأن يحد من بأسه، وإن جديد هذا العدد كذلك أنه يرسم طريقا جديدا للمجلة، من شأنه الدفع بها إلى مراقي جديدة في الصعود لمقامات التميز في العطاء والإبداع، فهي أصبحت منذ هذا العدد محتضنة من طرف مؤسسة أكاديمية وجامعية، وهي كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة القاضي عياض بمراكش، التي لم يبخل عميدها بالترحيب بهذا الإنتاج العلمي لأساتذة وعلماء وباحثي الجامعة المغربية، كما شجع السيد رئيس جامعة القاضي عياض هذا العطاء والإبداع العلمي زمن الوباء بدعم هذا العدد الخاص بعبر ودروس جائحة كورونا.

وإن هيئة التحرير لتهتبل هذه الفرصة للتعبير عن تقديرها وشكرها للسيد رئيس جامعة القاضي عياض وللسيد عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش على هذا الدعم والتحفيز والتشجيع للمشاريع العلمية الجادة والمجددة، وإن من شأن مثل هذا أن يجود ويحسن البحث العلمي الأكاديمي ويفتح أمامه آفاقا واعدة بالعطاء والتميز. والحمد لله الذي تَتمُّ بنعمته الصالحات.

والحمد لله رب العالمين

دروس وعبر جائحة

"كورونا"

التفكير السلبي والإيجابي في جائحة "كوفيد19" بين فقدان المناعة ووقاية الذات

الأستاذ الدكتور محمد خروبات[1]

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد: نصيحة طبية ونفسية تقول : (**إن التفكير السلبي يُضعف المناعة**)، حقيقة أثبتها العلم التجريبي الحديث، ونحن لا نعتبرها حقيقة طبية فحسب بل قاعدة علمية يمكن للمرء أن يسافر بها في حياته العلمية ويطبقها في مسيرته المعرفية، وقد برزت الحاجة إلى هذه القاعدة بإلحاح بعد تسارع وتيرة تفشي وباء "كوفيد 19".

يوصي الأطباء -على الدوام- باجتناب "التفكير السلبي" لأنه يُفقد الجسم مناعته، ومعلوم أن المناعة هي الدواء الوحيد واللقاح الأمثل ضد وباء الكوفيد، ونحن هنا لسنا في حاجة إلى مناقشة صحة أو عدم صحة هذه القاعدة، فهي صحيحة قابلة للتطبيق حتى على الأعمال العلمية لصلتها الوطيدة ب "التفكير". فالعلم يتأثر بالتفكير والتفكير يتأثر بالذات، وإذا كان التفكير سلبيا صار العمل العلمي سلبيا كذلك، لأن التفكير السلبي يضعف المناعة العلمية في البحث العلمي، وكلما كانت المناعة في التفكير قوية صار البحث العلمي قويا، فحينما يُقدم الباحث على عمل علمي بتفكير سلبي فإن بحثه يتأثر بذلك، وقد يُبالغ في إبراز ذاته حتى يجعلها طاغية على العمل العلمي، فالغرض هو إشهار الذات، وشهوة الشهرة آفة من الآفات التي تدفع نحو التفكير السلبي، وهذه الحالة تشبه السابقة، لأنها تتقاسم معها نفس السلبية، وقد يكون الغرض هدم حقيقة علمية واضحة فيتصيد من أساليب الهدم وطرق الردم ما يعينه على لَيِّ المعقول إلى اللامعقول، وهذا موقف عدمي بامتياز، إقصائي بغير علة. فالمخالفة لأجل المخالفة ظاهرة مرضية لا تقل خطورة عن شهوة الظهور.

---

1 - أستاذ التعليم العالي، جامعة القاضي عياض بمراكش، المدير المسؤول عن مجلة الاستناد.

ومن مظاهر التفكير السلبي: التشاؤم المطلق الذي يجعل المفكر يعيش حالة قلق دائم، وهو ما يطلق عليه "الضنك"، ومن مظاهر التفكير السلبي أيضا: الحسد، فالحسد في العلم وإن كان مجوزا في إطار الدفع بالذات نحو اكتساب العلوم والمعارف إسوة بالغير لكنه يفضي إلى عكس ذلك إذا كان يعادي علوم غيره حتى لو كانت ذات فائدة.

ومن المظاهر أيضا عشق الاصطدام والارتطام باسم النقد، فللنقد أخلاق وآداب منها البعد عن الحقد، فالحقود لا ينتقد بالعلم بل يشتم الشخص، فيجوز الكلام في عيوب الناس باسم النقد والنصيحة، العلوم عند المفكر السلبي غيوم، والحدود قيود، والمعارف زخارف، يَسخر من العطاء لكنه "يسرق" في الخفاء، كلام غيره خطأ كله، وكلامه صواب كله، يعرف كل شيء ولا يستثني مما يجهل أي شيء.

كثيرة هي مظاهر التفكير السلبي يطول بنا المقال في سردها، والبحث المتولد عنها بحث مشوب بضرر،علم صاحبه سقيم، فإذا كان السقم النفسي والعلة المعنوية – وهي كلها أمراض- في الذات، انتقل كل ذلك إلى الفكر لا محالة. وإن قال قائل : إن كثيرا من العلماء أبدعوا وجسمهم سقيم عليل، قلت : نعم، لكن في الأمراض العضوية، أما الأمراض والعلل النفسية فتؤثر على الفكر من دون شك، ومن سلمت نفسه من الأسقام سلمت تعابيره وأفكاره من الآثام. وها نحن اليوم نطالع لأهل العرفان أقوالهم التي تداوي النفوس، وإذا طالعت سيرهم وقفت على سلامة بواطنهم وصفاء أرواحهم، فلو كانوا مرضى في نفوسهم ما تداوت بأفكارهم نفوس البشر، هنا يجب التفريق بين نوعين من الظواهر: ظاهرة الذات المعلولة التي تُنتج فكرا علميا وما أكثر العلماء الذين عاشوا بعلتهم وأبدعوا في مجال العلوم والمعارف والسبب في ذلك أن العلل والأسقام كانت في الذات ولم تتجاوزه إلى الفكر، ومنهم من عاش سليما، مُعافى في بدنه، لكنه عاش بفكر سقيم، ولست بحاجة إلى دليل عن ذلك، اليوم نعيش في ظل "الوباء"، وباء كورونا، هذا الوباء الذي هو علة ومرض وجائحة مُعدية كلما استمر مستغلا ضعف مناعة الذات كشف لنا ظواهر مرضية أخرى وهي فقدان المناعة في الفكر والثقافة والمعرفة وفي العلوم الشرعية، وما نلاحظه من تضارب الفتاوى واصطدام الأحكام والمساهمة في نشر الأخبار الزائفة وعدم استثمار الجائحة في ردع الذات عن المنكرات، وعدم اعتباره آية من

الآيات المبهرة،وتصدع في العلاقات الأسرية، وشيوع الخصام والخلاف، وغير ذلك، وما يمكن الجزم به هو أن الكورونا انتصرت مرتين : انتصرت على مستوى إلحاق العلة في الجسم، وانتصرت على مستوى إلحاق الهزيمة بالمناعة النفسية، فإذا كان الانتصار الأول محصورا فيمن أُصيبوا بالكوفيد فإن الانتصار الثاني كان كبيرا، إذ أن غالبية الناس أصيبوا في نفوسهم وفي أفكارهم إلا من رحم الله .

لا يقتصر التفكير السلبي في البحث العلمي من جهة الكورونا فقط، بل يمتد ليصل إلى "السياسة العالمية"، فمُجمل دول المعمور تمارس سياستها بطريقة سلبية، ليسود بذلك التفكير السلبي في السياسة العالمية ويصل تأثيره إلى دواليب الاقتصاد... وضحَّت جل الدول بالصحة العامة في سبيل الاقتصادات الوطنية، وهذا ما جعل شعوب الدول الكبرى تفقد الثقة في حُكامها، وأصبحت العلاقات الدولية مطبوعة ب "التفكير السلبي"، وقد أضحت منظمة الصحة العالمية محط شكوك كثير من الدول، وفقدت بلاغاتها وتقاريرها المصداقية، وساد الاستغلال والاستنزاف والتراشق بتهم غليظة، وساد التربص والقهر في سياسات الدول الخارجية، وساد نوع من الاعتقاد بأن السياسة الخارجية الناجحة هي التي تقوم على التفكير السلبي، وقَلَّ التفكير الايجابي إلى حد الانعدام.

إن التفكير الإيجابي هو التفكير الذي يجعل من السياسة سياسة راشدة ونافعة، ويتأتى ذلك بجعل المسؤول السياسي ينظر إلى مواطنيه وغيرهم نظرة إيجابية عادلة تضمن الديمقراطية والولوج إلى الخدمات الصحية للجميع دون إقصاء ولا تمييز.

انطلاقا مما سلف يمكن الجزم من دون تردد بأن "التفكير السلبي" في السياسة هو الذي جلب للإنسانية هذا الوباء، وهذا ما جعل البعض يقول إنه نتيجة تجارب حربية بيولوجية لمختبرات عسكرية، وسواء أكانت هذه الفكرة صحيحة أو غير صحيحة فإن الأكيد هو أن التفكير السلبي الذي يروم قتل الإنسان وإبادته كان سائدا منذ الحرب الباردة، وقد استخدمت الأسلحة الجرثومية والبيولوجية ضد الشعوب منذ ذلك الوقت، ولو لم يكن التفكير السلبي موجودا لما كانت هناك كورونا أو أسلحة جرثومية ونووية .

التفكير السلبي هو الذي يطلق عليه الشرع " ظن السوء"، أو "سوء الظن"، لأن الظن السيء ينتج عنه التفكير السيء، وهو ظاهرة خطيرة قد تتحول إلى مرض فتاك يؤثر حتى في علاقة الإنسان بربه ويجعلها مطبوعة بسوء الظن ليصير الفرد بذلك ناقصا في طاعته وامتثاله... وإذا كانت هذه نتيجة سوء ظن العبد بربه فلا شك أن عواقبه ستكون أكبر إذا ساد العلاقة الزوجية أو العلاقة بين الحاكم والمحكوم، فالأول يُضعف مناعة العبادة، والثاني يُضعف من مناعة تماسك الأسرة، والثالث يُضعف من مناعة الولاء والطاعة .

ما يمكن الجزم به هو أن التفكير السلبي أصبح حالة شائعة وخطيرة، طبعت حياة الحضارة المعاصرة في السياسة والاقتصاد والاجتماع والعلاقات الدولية، ولا ريب أن خطورتها أشد في "البحث العلمي"، وأعني بالبحث العلمي البحث الذي يشمل المجال الإنساني والاجتماعي والطبي والصناعي والاقتصادي والسياسي إلخ.

لا نُنكر بأننا نعيش ظرفا استثنائيا، يتطلب منا يقظة شاملة ووعيا كاملا بطبيعة الجائحة. لمواجهة الكورونا لا بد من عقل سليم يتزود بفهم سليم حول موضوع الكوفيد، فسوء الفهم ينتج عنه تصور سقيم يفقد الجسد مناعته الحقيقية، وبالإضافة إلى ما تقدم، وللمساهمة في "وقاية الذات"، نُسطر عشر ملاحظات تُطعم الفكر وتَصون المعرفة، نفصلها فيما يلي:

أولا : كورونا وباء، قدره الله بمشيئته على البشرية، وهو ظاهرة تحسيسية تذكر الإنسان بأن للكون ربا خالقا، وأن الكرة الأرضية التي هي نعمة مهداة للبشرية يجب صيانتها من الفساد العالمي الذي عمَّ وطمَّ، هذه النعمة لا تقدر بثمن، نتكلم عن النعم وننسى نعمة الكرة الأرضية، هذه النعمة التي فيها الحياة، الحضارة، فيها الوجود والكيان ومستقبل الإنسان، لو تأملنا الأجرام السماوية لوجدنا بأن الحياة مفقودة عليها، ولا توجد سوى على هذه الأرض، هذه الأرض التي خلقها الله ووهبها إلينا أمانة منه، نعيش فيها ونعبد الله عليها، ولذلك فقد نهانا عن الفساد فيها.

ثانيا: كورونا رسالة من عالم الغيب، أرسلها الله تعالى لنقرأها... يقرؤها كل واحد بطريقته وبأسلوبه، وقد تعددت القراءات وتلونت: بعضهم يقرؤها قراءة طبية، وبعضهم بقراءة سياسية،

وبعضهم بقراءة اقتصادية، وبعضهم بقراءة عسكرية وآخرون يقرؤونها قراءة اجتماعية ونفسية، لكن القراءة الشرعية لها نجاعتها، وتأتي في صدارة سلم كل القراءات لمن أراد النجاة بنفسه ودينه، فالكوفيد إذن رسالة من السماء يجب أن نُحسن قراءتها إسوة بحُسن قراءة الوحي، فإن لم نُحسن قراءتها فإننا لن نتفكر ولن نتدبر سواء كنا فرادى أو جماعات.

ثالثا : في تراثنا الفقهي أحكام شرعية في المأكل والمشرب والملبس، وفي الطهارة والنظافة مدارها على التحليل والتحريم، الالتزام بها يصون المسلم من الوقوع في الوباء، والخروج عن هذه الأحكام يوقع في البلاء، وإن نظرة سريعة في حقيقة ظهور الوباء تجعلنا ندرك بأن سببه هو عدم امتثال الإنسان للأوامر: إذ أكل ما لا يجب أكله، وشرب ما لا يحل شربه، وصنع ما لا يجب صنعه... إن الخروج عن الأحكام المؤطرة للوجود البشري تدمير للكيان، ونسف للبنيان الذي يقوم عليه وجود الإنسان. وعلى الإنسان أن يعلم بأنه ليس حرا في أن يفعل ما يشاء، ويقول ما يشاء، الإنسان بمقتضى الإيمان والامتثال مضبوط في حركاته وسكناته، مراقب في قوله وفعله **"ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد"**، إذا كان الإنسان بمجهوده المادي ابتكر أدوات مراقبة، وأبدع في التجسس والتحسس فما بالك بمن خلق الكون كله،وقد وضع فيه ما يشهد عليك غدا يوم القيامة ابتداء من حواسك وجوارحك،("فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره،ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره".

رابعا : من مقاصد هذه الأحكام المحافظة على النفس والعقل والمال، ومدارها على المحافظه على النفس البشرية، فالعقل مصدره الذات، والمحافظة عليه محافظة على الصحة النفسية والبدنية، أما المال فكسبه من طرق مشروعة وصرفه في طرق مشروعة، وهذه المقاصد نُجملها في القول بأن الشريعة الإسلامية من مقاصدها " المحافظة على الصحة البشرية"،والله سبحانه وتعالى لما خلق الإنسان خلقه صحيحا معافى من أصله ولم يخلقه مريضا من طبعه، فالأصل في الإنسان الصحة لا المرض، أما الأمراض والعاهات فهي أمور طارئة على الصحة، ومن هنا فالأحكام الشرعية تسعى إلى إبقاء الإنسان على أصله في الصحة والسلامة.

خامسا : الحجر الصحي سنة من سنن النبي صلى الله عليه وسلم التي أمر بها حين يعم الوباء،وهو أنجع دواء لمعالجة الداء، ولو كان هناك دواء أو تلقيح لما التجأت الدول اليوم إلى فرض الحجر الصحي، وقد رجع العالم اليوم إلى تطبيق سنة نبوية من دون شعور منه، العمل بها هو عمل بالسنة ومخالفتها مخالفة للسنة، فالإنسان حينما يخالف الحجر الصحي الذي أُمر به شرعا وقانونا إنما هو يخالف الشرع كما يخالف القانون، فإذا كان القانون يعاقب على الخرق فإن الشرع كذلك، والأحكام الشرعية إنسانية بطبيعتها قبل أن تكون إسلامية بذاتها.

سادسا : يدخل الحجر الصحي في نوع من أنواع الفقه، هو "الفقه الوقائي"، وهو نوع مازال مطمورا في كتب الفقه وفي أحكام الشريعة، لم يُفَعَّلْ بعد، آن الأوان لإبرازه وبيان مزاياه، لا رغبة في المباهاة بل لأن الإنسانية اليوم في أمس الحاجة إليه، فالحجر وقاية من الوقوع في الأمراض من منظور الفقه، لكنه أصبح في الطب علاجا، فهو العلاج الوحيد الفعال في غياب العلاج بالعقاقير والأدوية.

سابعا: الوقاية والعلاج يقتسمها الفقه مع الطب، يهتم الفقه بالأول، فأحكام الشريعة تقي الإنسان من الوقوع في الأمراض سواء أكانت مادية أو معنوية، والطب يهتم بالثاني الذي هو العلاج .

ثامنا: يقدم الإسلام درسه في موضوع كورونا بأنه وباء أنزله الله رحمة للمؤمنين الممتثلين والمحتسبين، فهو كفارة لذنوبهم، إن ماتوا تحت الحجر فهم شهداء وإن لم يموتوا فلهم أجر الشهداء، وقد يقول قائل : لماذا هذا الأجر كله لمن التزم الحجر محتسبا وممتثلا ؟ نقول : ولماذا العذاب كله لمن خرق الحضر وساهم في قتل نفوس بريئة متسببا أو متعمدا ؟ إذا كان الوزر غليظا في القتل فإن الأجر عظيم في صيانة الأنفس وفي المحافظة عليها.

تاسعا: الحجر الصحي مناسبة سخرها الله سبحانه وتعالى ليختلي الإنسان بنفسه، ويراجع حساباته مع ربه ومع الناس، مناسبة تمنح للأسرة لتتقارب وتتناصح وتتسامح، هي فرصة للجلوس

مع الأبناء وفتح الحوار الأسري على مصراعيه،هي فرصة تستثمر في التربية والتوجيه والتعليم وكذلك البحث العلمي، فلا أحد يمكنه أن يتذرع بعد الآن بفقدان الوقت وعدم وجوده .

عاشرا: العالم كله مجند في حرب عالمية، أستحيي أن أقول بأنها مع عدو غير مرئي، موجود وغير موجود، كل دولة تقاوم في هذه الحرب لوحدها ووفق إمكانياتها، وكل دولة تحاول كسب المعركة، وبلدنا يخوض هذه الحرب التي جُندت لها كل الإمكانيات المتاحة، إمكانيات عسكرية وأمنية واقتصادية واجتماعية ودينية إلخ، رغبتنا أن ننجح في كسب هذه المعركة، وأن نخرج منها منتصرين ظافرين وإلا كانت الخسارة لا قدر الله كبيرة، في هذه المعركة كل فرد من أفراد المجتمع هو جندي يقف على الرباط، فليحافظ كل واحد على امتثال أوامر التوصيات الصحية والتوجيهات الأمنية.

هي عشر ملاحظات حول الكوفيد 19 ووقاية الذات، تدفع نحو التحلي بالتفكير الإيجابي وقاية للذات والتخلي عن التفكير السلبي الذي يضعف المناعة ويشل القدرات، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

دروس وأفكار من زمن كورونا

الأستاذ الدكتور عبد الكريم عكيوي[1]

مقدمة:

منذ خمسة أشهر والعالم كله في محنة حقيقية. فقد توقف كثير من مصالح الحياة، ونزل بالناس الخوف من المرض والموت، وسيطر عليهم الهلع من تعطل مصادر معايشهم، وتوقف مصالحهم، واضطر الناس إلى لزوم بيوتهم، والامتناع من الاختلاط والحذر من التواصل واتقاء الخروج إلا للضرورة الملحة. وسبب ذلك الخوفُ من هجوم وباء غريب أمره، خطير شأنه، خفي عن الأبصار، متقلب الأطوار، يصيب خفية من غير استئذان، ويتسرب إلى جسم الإنسان من غير إعلام، وينتقل بسرعة ويفشو بمجرد لمسة أو مصافحة أو احتكاك بموضع موبوء.

وإلى هذه الساعة، وأهل الاختصاص في حيرة من هذا الوباء، يعلنون أن ما يجهلون عن هذا الوباء أكثر مما يعلمون، وأن البحث العلمي مازال في مرحلة مبكرة يتعرف على خصائص هذا الوباء وأحواله، في حين أن الوباء ينتشر بسرعة عجيبة، ولا أحد يستطيع إيقاف زحفه أو منع تقدمه في الأرض كلها. فصارت الأرض كلها له فضاء مسلوكا بيسر وسهولة، لا ترصده أجهزة المراقبة الدقيقة، ولا تحجزه وسائل الدفاع المختلفة. ولا مطمع في لقاح حتى الآن إلا قواعد الوقاية الصارمة للتقليل من قوة الانتشار، والتعجيل باكتشاف العدوى في حال الإصابة، لعزل المصاب ومنع زيادة العدوى. واصطلح أهل الاختصاص على تسميته وباء كورونا : كوفيد 19. وسيبقى زمن كورونا حدثا بارزا في تاريخ أمم العالم كلها، لأنه وباء ليس كغيره، فقد نزل بأمم الأرض كلها دون استثناء، بل إن أثره أشد ومحنته أكبر على البلاد التي هي مضرب المثل في القوة المادية والتقدم الصناعي. فلم تغن الأسلحة الفتاكة شيئا، وعجز الإنسان الذي يغزو الفضاء خلال هذه المدة - خمسة أشهر حتى الآن ولا أحد يعلم المآل- عن مواجهة كائن صغير يقتحم الأجساد فيختل نظامها، ويضطرب عملها، وقد يفتك بها.

1 أستاذ التعليم العالي، كلية الآداب جامعة ابن زهر بأكادير، وعضو هيئة تحرير مجلة الاستناد.

فزمن كورونا إذاً هو زمن محنة في العالم، ومرحلة شدة على الناس، تتعارض فيه مصلحتان عظيمتان، مصلحة حفظ الصحة والوقاية من الأمراض، ومصلحة النمو الاقتصادي وحركة دواليب الحياة والمعاش. والتوفيق بين هذا وذاك هو محل النظر والتفكير من قبل أهل الفكر والسياسة في العالم كله. فمحل البحث والنظر الآن هو ما بعد كورونا، ليس لأن الوباء ضعُف وزال، وإنما لأن الاحتمال قائم أن يمتد زمن كورونا، فلا مناص من التعايش مع الوباء، وحتى في حال زوال كورونا والسيطرة عليه، فلابد أن يتغير الكثير في تفكير الإنسان، وفي نظم التواصل الإنساني وتدبير أمور الحياة والمعاش، ولقد شاع الآن على ألسنة الكثير من أهل الفكر والسياسية القول : **" إن العالم سيشهد تحولا كبيرا بسبب وباء كورونا، وإن العالم قبل كورونا لن يكون هو نفسه بعدها".**

ومعنى هذا أن المطلوب الآن أن نجعل من محنة كورونا محطة للنظر والتأمل، ومناسبة للمراجعة واستشراف المستقبل، وذلك باستخلاص العبر والدروس، وهذا هو واجب أهل العلم والفكر، كل من جهة تخصصه. فزمن كورونا، بسبب كونه زمن محنة وشدة، موضع للتفكير العميق في حال الحياة والإنسان.

زمن كورونا محطة للتفكر والتدبر في أحوال الحياة والإنسان:

إن التفكير والتعقل، مع حسن القصد، تكليف إسلامي، وعبادة شريفة. قال الله تعالى في القرآن الكريم : ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾" (الحج:44). وقال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ**﴾ (سبأ:46). وقال تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ**﴾ (الروم: 7).

وقال عز من قائل:" ﴿ **إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ، حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾."

(يونس:24). وقال تبارك وتعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا، وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾" (الرعد: 3 – 4)" وقال تعالى:﴿**كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾" (النور:59). وقال تعالى: ﴿**وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾ (الذاريات:20 – 21).[1]فالإنسان ببدنه ونفسه، وما يحيط به، وكل ما يقع عليه بصره مجال للفكر والنظر. وكل ما ينزل بالإنسان من أحوال الشدة والضيق أو السعة والرخاء، محل عبرة وتدبر. ومن هذا الوجه اعتبر أهل التربية وعلماء السلوك من المسلمين المحنة منحة، من جهة ما تحدثه من تغيير في تفكير الإنسان، فتحمله على نظر العبرة والفائدة، وتضطره إلى مراجعة أفكاره ومحاسبة نفسه. فكم غيرت فترات الضيق والشدة من الأفكار، وكم عدلت من المفاهيم، وكم صححت من سير الناس وقومت من سلوكهم.

ولهذا وقع التحذير في القرآن الكريم من الغفلة والمرور من المحنة من غير عبرة ولا فائدة. قال تعالى : " ﴿**وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾." (يونس :12).

وقال الله عز وجل : ﴿**وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا، قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا، إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ**﴾. (يونس :21) والرحمة بعد الضراء هنا مثل الصحة بعد المرض، والغيث بعد القحط، والأمن بعد الخوف، ونحو هذا مما لا ينحصر من أنواع الخير والشدة التي يتقلب فيها الإنسان. فذلك فضاء رحب للتأمل.

وقال تعالى : ﴿ **وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ، وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي، إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾." (هود:9 – 10 – 11). فذكر هنا قول الإنسان بعد زوال الشدة

---

1 وتشريف العقل والفكر والأمر بالتفكر والترغيب في التعقل كثير في القرآن الكريم. ينظر" المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم" لمحمد فؤاد عبد الباقي : مادة "عقل" ومادة " فكر" وما في معناهما من العبرة، والبصيرة، والنظر، والتدبر وغيرها من الأفعال التي فيها إثارة الفكر وتحريك العقل في الموجودات المادية واللطائف المعنوية، بقصد الفهم واستخلاص المعاني والغايات، لا مجرد المعرفة الظاهرة التي تقف عند الأسباب الظاهرة.

وحصول الرخاء : " **ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي**" بطرا وكبرا، واعتقادا أن ذلك بقدرة الإنسان وعلمه، وتوهمه امتلاك قوة السيطرة على زمام حياته، والتمكن من العلم بكل شيء.

فالواجب على أهل الفكر والحكمة الاعتبار بما يجري، والتفكر فيما يحصل من أمر الشدة والمحنة، لاستخلاص الفوائد والعبر لما يستقبل.

وزاد علماء المسلمين هذا الأمر قوة وعمقا، لما قرروا أن لحياة الإنسان على ظهر الأرض ثنائية لا تخرج عنها، وهي أن الحياة حركة وتقلب بين متقابلات، وهذه المتقابلات ترجع كلها إلى حالين ووصفين ملازمين للإنسان وهو حي على ظهر الأرض. إن الحياة تقلب بين الشدة والرخاء، وبين اللذة والألم، وبين الخوف والأمن، وبين الصحة والمرض، وبين الفرح والحزن، وبين الراحة والتعب. وجماع هذه الأوصاف المتقابلة كلها هما الشكر والصبر. ومعنى ذلك أن غاية الحياة – من جهة علم التربية وتقويم السلوك – هي تقديم الشكر في الرخاء والسراء وبذل الصبر في الشدة والضراء. وفي الحديث الشريف : **(عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَه)**[1].

إن الإنسان في الحياة الدنيا يتقلب بين الشكر على النعمة وبين الصبر على المحنة. لذلك كان الرخاء اختبارا على الشكر وكانت المحنة تمحيصا للصبر. وقديما قالوا : المحنة تبني الرجال وتوقظ من الغفلة. ففي تقلب الإنسان عبر الزمان والمكان وما ينزل به في حياته من الرخاء والشدة عبرة للمعتبرين. بل إن المصائب والمحن رسائل ربانية لتحريك قلوب المعتبرين ولتنبيه الغافلين.

فمن هنا ينبغي أن نبدأ الآن، لفتح باب الأمل واستشراف المستقبل. فمع إتقان جميع قواعد الوقاية الصحية، التي قررها أهل الاختصاص لمنع انتشار الوباء، وانهماك الخبراء في وضع اللقاح

1 " صحيح مسلم(2999) كتاب الزهد والرقائق، باب الْمُؤْمِنُ أَمْرُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ.

وتهممهم باستخلاص الدواء المناسب، يتوجه أهل الفكر والحكمة للبحث والنظر والعبرة في حال المحنة لاستخلاص الفوائد التربوية والفكرية والعملية التي تصلح للمستقبل.

وهذا ما نقصده من هذا البحث، فنذكر أهم ما يستفاد، وما يظهر أنه ناجع في خدمة مجتمعنا وفي التخفيف من أثر المحنة عليه، وفي تيسير أحوال الحياة عامة، اعتمادا على هذا الواقع الذي نزل، وبناء على ظروف زمن كورونا، مع استحضار ما قاله أهل الاختصاص في شأن هذا الوباء، مستنيرين في ذلك بالقواعد والأحكام المتعلقة بالموضوع في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، التي هي الأصول العامة والقواعد الكلية للفكر الإسلامي الذي ننتمي إليه، ونبحث في قضايا الفكر الإنساني من خلاله. وليس ذلك تحجرا ولا تضييقا، وإنما هو ممارسة للفكر الإسلامي الذي من أهم خصائصه التهمم بهموم الناس، والإفادة من تجربة الإنسان عبر الزمان والمكان، واعتبار المصالح والمفاسد، والحوار والمجادلة بالتي هي أحسن، من غير إكراه ولا إجبار. فهذا البحث إسهام من الفكر الإسلامي المعاصر في خدمة الفكر الإنساني، وتقديم الأفكار النيرة التي يرجى منها الخير للإنسان، ويظن منها السير بالبشرية إلى بر الأمان.

فالتفكر والاعتبار في حال هذا الوباء، وما لازمه من الأحداث المتعلقة بالحياة اليومية للناس، يوقف على جملة من الفوائد، بعضها يتعلق بالأفكار والتصورات التي سيطرت على الفكر الإنساني المعاصر، من جهة ضرورة إعادة التقويم والحاجة إلى التصحيح، وبعضها يتعلق بالقيم من جهة واقعها في الحياة المعاصرة، وبعضها يتعلق بترتيب الأولويات في الحياة.

ونبدأ بأم القضايا في الفكر الإنساني، وهي قضية الحياة في كليتها وفي أصلها ومعناها، وحقيقة الإنسان وجوهره ومكانته.

الحاجة إلى مراجعة مفهوم الإنسان وجوهره وإعادة الاعتبار للقيم والمعاني.

حقيقة الحياة والإنسان وأصلها ومآلها- يعنى فلسفة الوجود على ظهر الأرض والنظرة التي يفهم بها كل فرد الحياة، في قواعدها الكلية في أصلها ومآلها هي الركن الأساس الذي تبنى عليه كل قضايا

الإنسان. فكل ما سواها فرع عنها ومتعلق بها ومتوقف عليها. وجميع تفاصيل حياة الإنسان وكيفية تصرفاته اليومية ونوع سلوكه الاجتماعي، كل ذلك يحكمه فلسفته الخاصة في الحياة.

وفي العصر الحديث الذي يهمنا، وهو عصر سيادة الفكر الغربي وبسط سيطرته على العالم، سادت فلسفة خاصة، وسيطرت نظرة معينة فوجهت الإنسان المعاصر وأثرت في جميع أحوال حياته تأثيرا بليغا. وزاد من شدة هذه الفلسفة امتزاجها واقترانها بالتقدم العلمي والصناعي والتقني. فمع الثورة العلمية التي بدأت من عصر النهضة الأوربية، ثم زادت في عصر الأنوار، ورسخت وقويت في العصر الحديث، سادت الفلسفات المادية فوجهت الفكر والبحث في مجال الاجتماع والنفس والاقتصاد والتاريخ وغيرها من العلوم الإنسانية. يضاف إلى ذلك عنصر ثالث وهو معاداة الدين، أو عزله عن الحياة العامة في أحسن الأحوال، بسبب عقدة الفكر الغربي مع الكنيسة، لما كانت تعاليم الكنيسة حجر عثرة في طريق النهضة العلمية الغربية. فهذه العوامل الثلاثة – التقدم العلمي، والفلسفة المادية، ومعاداة الدين - هي التي صاغت الفكر الإنساني المعاصر، فكانت الفلسفة التي تحكمه في جملتها هي تأليه الإنسان، واعتقاد قدرة العقل المطلقة على فهم كل شيء وتفسير كل شيء، والغاية هي السيطرة على الطبيعة وإخضاعها لرغبة الإنسان، في استقلال كامل عن أي موجه غير العقل، ومن غير اعتبار للمقررات الدينية.

ولقد أفصح هذا الفكر في المجال العملي وحياة الإنسان عن واقع غريب، اختل فيه التوازن بين التقدم المادي والقوة الصناعية وبين الاستقرار النفسي للإنسان. إن التقدم المادي العظيم إنما أضر بالبشرية لما قارنته فلسفة تأليه الإنسان وبسط السيادة على الكون، وتوجيه غايته للسيطرة. وفي كلمة جامعة إن المشكلة الفكرية الكبرى التي هي أصل شقاء الإنسان المعاصر، على رغم الفكر العلمي المادي الدقيق، هي ترسيخ هذه الفلسفة التي وقع بها الإنسان المعاصر في الغرور لما توهم السيادة الكاملة على الكون بسبب العلم المادي. إنه الاغترار بامتلاك زمام الكون والحياة بامتلاك أسرار التقنية. والغرور أبشع الصفات التي تؤذي بالإنسان، وأخس حالات النفس البشرية، لأنها تفقد الإنسان الاعتدال والتوازن، وتخرجه عن أخص صفاته وهي العجز والحاجة، لأن المؤكد كما سيأتي أن زيادة الإنسان في العلم زيادة في اكتشاف المجهول أي زيادة في سعة مساحة جهله.

ومن مظاهر هذا الغرور البشري بسبب الاعتداد المطلق بالعقل والعلم المادي، إقامة " المشابهة بين وجود الله ووجود الإنسان، وبين معرفة الله ومعرفة الإنسان، وقد بلغ هذا التشبيه أقصاه في إنزال العقل منزلة الوحي، بل إنزاله رتبة أعلى، مما جعل بعضهم يدعون إلى تأنيس الإله وغيرهم يدعون إلى تأليه الإنسان، وآخرين من دونهم يدعون إلى التأنيس والتأليه معا..."[1] وبسب هذا الغرور في القوة والقدرة على السيطرة، وقع الغلو في تصور قدرة الإنسان، فرسخ الاعتقاد أن " في طاقة الإنسان أن يملك نفسه، نفعا وضرا، إذا لا يخفى عليه شيء من أمره، مراقبا نفسه، بل إنه يملك مراقبة الآخرين في أفقه ومراقبة العالم من حوله، ومستغنيا بحوله وطوله عن تدخل أي إله في شأنه. وجعل بعضهم همته قائمة في أن يزحزح الحدود التي تحصر وجوده، بل أن يتجاوزها. وتطلع آخرون إلى أن يكون العقل بلا حدود، أو تكون الحقوق بلا حدود، أو تكون السياسة بلا حدود، أو يكون الاقتصاد بلا حدود، وبلغوا من قوة افتتانهم بقدرة الإنسان أنهم توهموا أنه يستطيع في مستقبل الأيام أن يتخلص حتى من حدود الطبيعة التي خلق بها، قاهرا سلطان الزمان، وحجاب المكان وقدر الموت الزؤام..."[2] قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ (العلق: 6 – 7).

إن الفكر المادي المعاصر يستهين بعجائب الحياة ويحاول أن يحجبها عن الناس وأن يصرف أبصارهم وعقولهم عنها. بل صار الإنسان يحتقر جمال الطبيعة عندما يُظْهر الإعجاب باللوحة الزيتية التي رسمها فنان من البشر بيده، فيصفه بأسمى الأوصاف الجامعة لمعاني الإبداع بل والخلق. فيَعْرِفُ للوحة صاحبها وواضعها، ويتوجه إليه بالتقدير والإعجاب ويصفه بالفنان المبدع، ولا يُقَدر خالق الطبيعة، فيقول عن اللوحة " ما أعظم صاحبها!" ولا يقول عند رؤية الشمس: " ما أعظم خالقها!"، وإنما يقول إنها كتلة نارية ذات حجم كبير هي محور مجموعتها، وبينها وبين الأرض كذا وكذا مسافة. وفي أحسن الأحوال، عندما تنازعه قوة الفطرة، يقول: " إن الشمس جميلة، أنظر كيف ترسل أشعتها

1 روح الدين: من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية " لطه عبد الرحمن .ط2012/2. المركز الثقافي العربي، ص 194.

2 المصدر السابق، ص.196.

الذهبية، إنها مصدر إلهام للشاعر والفنان." فيميل بعض الشيء نحو الاعتراف بصفة الخلق لمن له التصرف في الكون بالإيجاد والتدبير، لكنه يعود فيحجم بسبب هذا الغرور، فيستكبر أن يقر بالإلهية. وإذا ناله ضرر من طوفان أو عاصفة قال " إنما هو غضب الطبيعة!!!". قال تعالى : ﴿**فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾ (غافر:83).

إن مشكلة العلم المادي أنه لا يشتغل بأسرار الحياة وألغاز الإنسان التي هي حقيقته وجوهره، كما يشتغل بجسده ومظهره الخارجي. إنه " لا يشعر بالإعجاب والدهشة عندما يواجه المجهول. فإذا برزت أمامه مشكلة، فإنه يصفها ويضع لها اسما ثم يمضي في طريق حياته معتقدا أنه قد حل المشكلة، ومن هنا جاءت هذه المصطلحات المغرقة في الغموض والتجريد :" الغريزة"، " شكل معقد"، "مادة شديدة التنظيم" [1] و" الحتمية " و" التطور البيولوجي " و" الانتخاب الطبيعي"...وغيرها من المصطلحات التي توضع تفسيرا لمشكلات كبرى، ويأتي التفسير ليضيف مشكلة أخرى، كمن يفك لغزا بما هو ألغز منه. قال تعالى : ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ** ﴾ (الروم: 7).

لقد عودت هذه الفلسفة المادية الناس أن ينسبوا إلى رجال الفن وصف الإبداع والخلق. لكن بالمقابل - في مسألة بدء الحياة والتحول من العدم إلى الوجود، والانتقال من حال السكون إلى حال الحركة، ومن وضع الخمود إلى وضع الحياة وهي أعظم القضايا الملحة على تفكير الإنسان – تحمل الناس على أن يقولوا إنها لحظة حاسمة من لحظات التطور البيولوجي، وإن حياة الإنسان نتيجة لعملية طويلة من التطور ابتداء من أدنى أشكال الحياة، عندما لم يكن هناك فرق بين الإنسان والحيوان، وبفعل التطور أصبح الإنسان هو الحيوان الكامل، ولا فرق بينه وبين الحيوان إلا في درجة التطور وليس في النوع. هذه الأفكار امتلأت بها المقررات الدراسية، في البيولوجيا وفي الفلسفة

1 " الإسلام بين الشرق والغرب " لعلي عزت بيغوفيتش (ترجمة محمد يوسف عدس.ط1/1414-1994. مجلة النور – مؤسسة بافاريا) ص 80.

وفي الأدب. وهذا مما يشير إليه قول الله تعالى : **﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ، وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ،إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾** (الجاثية:24).

ومن آثار هذه الفلسفة أن النمو، والتطور، والتحسين، والسمو، والتقدم، والتحديث، والسير إلى الأمام غلب عليه النمو المادي الذي يعني الوفرة والتحسين في حاجات الإنسان إلى الأكل والشرب واللباس وغيرها من الحاجات المادية المتعلقة بالمتعة واللذة الجسدية، وغاب النمو الروحي للإنسان، وانتكس تقدم القيم والأخلاق. إن التقنية والتكنولوجيا توفر للإنسان صورة دقيقة عن العالم المادي من أصغر أجزاء المادة إلى أكبرها. وفي موضوع الإنسان يتم تفكيك الكائن البشري بدقة إلى أجزائه التي يتكون منها، وفي هذا التفكيك يتلاشى جوهر الإنسان وتغيب حقيقة الحياة.

وجاء دخول العالم في مرحلة العولمة وما بعد الحداثة، فرسخ تأليه العلم المادي وتقديس التقنية، وزاد الأمر خطورة باحتكار العلم والعقل والمعرفة من قبل الشركات ومؤسسات الإنتاج الكبرى العابرة للقارات، الجاثمة على خيرات العالم. ومن آثار ذلك غلبة الفكر المادي الاستهلاكي الذي يحمل الناس على أن يكونوا منتجين ومستهلكين، فأصبحت سمة الحضارة هي قوة الإنتاج وقوة الاستهلاك، وذلك بالخلق الدائم المتجدد لضرورات جديدة، وتحويل الكماليات إلى ضروريات، وفرض الحاجة على من لا حاجة له، في إعمال دقيق خفي ومستمر لقاعدة " انتج لتربح، واربح لتستهلك وتستمتع بالحياة" في غفلة عن قواعد الصحة الجسمية نفسها، ومقتضيات القيم والكرامة الإنسانية.

ومن آثار ذلك في مجال الثقافة، إقصاء الثقافة الشعبية، أو التضييق عليها على الأقل، وحصرها في ركن الفلكلور في سياق تسويق المتعة، وتم إحلال الثقافة الجماهيرية محلها.[1] فتحول أغلب الناس في العالم إلى متلقين مستهلكين للثقافة التي تنتج في وسائل الإعلام، وتروج في وسائل التواصل،

1 الثقافة الشعبية تقوم على الإجماع والمشاركة، لأنها تولد من صلب المجتمع، وتنشأ تلقائيا بين أفراده. والفرد في الثقافة الشعبية منتج للثقافة ومستهلك في الوقت نفسه. بخلاف الثقافة الجماهيرية فهي تقوم على التلقي من جانب واحد لما ينتجه الجانب الآخر. ففي الثقافة الجماهيرية، تستثمر قواعد علم النفس الاجتماعي، فيتم تقسيم الناس إلى مستهلكين للسلع الثقافية وهم جمهور الناس، ومنتجين للبرامج من خلف الستار. ينظر " الإسلام بين الشرق والغرب " لعلي عزت بيغوفيتش، ص 105 – 110.

فحلت هذه الوسائل محل الأدب والتفكير، فتقلص النشاط الفكري عند الناس، لأن هذه الوسائل، تُنسي مهمات الحياة الكبرى، وتقدم حلولا جاهزة لجميع مشكلات الحياة. لقد أثبت علم النفس الاجتماعي والجمهوري، أن وسائل الإعلام والتواصل لها تأثير كبير على الإنسان المتلقي، " ليس لإخضاع الجانب الواعي في الإنسان فحسب، بل الجوانب الغريزية والعاطفية، بحيث تخلق الشعور (في الفرد المتلقي) بأن الآراء المفروضة عليه هي آراؤه الخاصة".[1]

وفي مجال التربية والتعليم تم تضخيم العلوم المادية والتقنية في غفلة عن التربية على المعاني والقيم. ويصف الأستاذ علي عزت بيغوفيتش هذا الحال فيقول : " في هذه الأيام، من الممكن جدا أن نتخيل شابا قد مر بجميع مراحل التعليم، من المدرسة الابتدائية حتى الكلية دون أن يذكر له ضرورة أن يكون إنسانا خيرا وأمينا. فهو يتعلم أولا أن يكتب ويحسب، ثم يدرس الطبيعة والكيمياء، وعلم الأعراق البشرية، والجغرافيا، والنظريات السياسية، وعلم الاجتماع، وعلوما أخرى كثيرة إنه يجمع عددا هائلا من الحقائق، وعلى أحسن الفروض، يتعلم كيف يفكر، ولكنه لم يستنر ثقافيا وروحيا...فهذا النوع من التعليم يهيئ العضو للدخول في المجتمع...وهو موجه لغاية محددة بإحكام، واهتمامه منصب على السيطرة على الطبيعة، أو العالم الخارجي...هي مسألة أيديولوجية تكمن وراءها فلسفة معينة."[2]

وفي الجانب النفسي سادت بسبب ذلك العدمية والعبث والتشاؤم، بل عدت العدمية فسلفة في الحياة، ومعناه باختصار، فقدان المعنى، والشعور بعدم الرضا، وغياب القيم. يقول على عزت بيغوفتش : " العدمية وفلسفة العبث هما ثمرة أكثر بلاد العالم ثراء وتقدما. هذه الفلسفة تتحدث عن عالم بلا منطق، عن فرد منقسم على نفسه سيكولوجيا ومحطم، عن عالم أصم أبكم...هي في الحقيقة

1 " الإسلام بين الشرق والغرب "، ص 108.

2 - المصدر السابق، ص 102.

فلسفة عميقة قادرة على التنوير. إنها تعبير عن مقاومة الإنسان، عن عدم رضاه عن العالم الذي ينمو بعكس الصورة التي أرادها لنفسه، إنها تمرد على الحضارة ذات البعد الواحد."[1]

فهذه خلاصة جامعة لفلسفة الحياة والإنسان التي سادت في العالم المعاصر. وبناء على هذه الأفكار التي رسخت في العصر الحديث عن الإنسان والحياة تحت تأثير قوة العلوم المادية والفلسفة المادية والوجودية يضع الأستاذ علي عزت بيغوفيتش أسئلة فيقول : " لماذا يصبح الناس أقل شعورا بالاكتفاء عندما تتوافر لهم متع الحياة المادية أكثر من ذي قبل؟ لماذا تزداد حالات الانتحار والأمراض العقلية مع ارتفاع مستويات المعيشة والتعليم؟ لماذا لا يعني التقدم مزيدا من الإنسانية أيضا؟[2]

إنها بكلمة واحدة معضلة تأليه الإنسان نفسه اعتمادا على التقدم العلمي، واعتقاده امتلاك التفسير العلمي لكل شيء، والسيطرة على الطبيعة، واحتقار القيم المعنوية، ونبذ الدين، أو- في أحسن الأحوال – عزله في ركن قصي، ومنحه هامشا ضيقا جدا، والاستنكاف عن إعلان التواضع، لأن إعلان التواضع يعني العجز، والعجز يعني الحاجة إلى تأييد، وحاجة الإنسان إلى التأييد يعنى حاجته إلى من يدبر أمره ويتولى شأنه وشأن حياته، وهذا ما يوقع في ضرورة التدين والاعتراف بالله تعالى خالقا مدبرا حكما عدلا. وهذا ما لا يريد من يحمل هذه الفلسفة أن يقع فيه. ولهذا نفهم هذا الحذر الشديد من الدين من قبل من ينتسب إلى العلم، حتى صار الانتساب إلى العلم يعني نبذ الدين. ويصف الأستاذ علي عزت بيغوفيتش هذا العُجْب بالعلم من غير اعتبار للقيم، إلى درجة توهم الإنسان الذي يملتك علم البيولوجيا إلها قادرا على الخلق، والتصرف في جسد الإنسان مثل التصرف في غيره من المنتجات الصناعية، فيقول : أما (فلان...)[3] فقد بحث تطور الإمكانات السحرية للبيولوجيا، حيث ذهب إلى أنه باستخدام مواد وراثية من أناس بالغي الذكاء، سيتمكن الجنس البشري من تشكيل نفسه. وإذا نجح العلماء في إنتاج DNA بطريقة صناعية (وهو القاعدة الكيميائية للوراثة في الكروموزومات) فإن احتمالات جديدة لا حدود لها ستظهر في حياتنا. بحيث

1 المصدر السابق، ص 129.

2 المصدر السابق، ص 65.

3 آثرنا إبهام الاسم لأن الذي يهمنا الأفكار وليس الأشخاص".

يستطيع كل إنسان أن يحصل على طفل مصمم وفق رغبته. إن العقل البشري الذي يحتوي على عشرة بلايين خلية يمكن أن يضاف إليه بلايين أخرى مأخوذة من مكان آخر أو منتجة بعملية خاصة. وسيصبح استزراع أجزاء الجسم وأعضائه المأخوذة من الجثث حدثا معتادا..."[1] وفي حال تحقق كل هذا، فهل سيكون الإنسان أكثر سعادة، ويكون هذا العصر أزهى العصور في تاريخ الإنسان من جهة القيم الإنسانية. وللجواب راح الأستاذ علي عزت بيغوفيتش ينقل عن أهل الاختصاص في مجالات الحياة المختلفة، ما يدل على أن هذه الصورة المتفائلة جدا، تقابلها صورة سيئة جدا فيما آلت إليه الأحوال الاقتصادية والاجتماعية بسبب غلبة هذه النظرة الضيقة التي حكمت على القيم الإنسانية بالإعدام، فراحت تعامل الإنسان معاملة الآلات.[2] يكفي من ذلك أن ننقل ما نقله عن آرثر مللر: "إنني أعتقد أن المشكلة في الوضع الراهن، هي نتاج التكنولوجيا التي دمرت الإنسان كقيمة في ذاته...وباختصار، لقد اندثرت الروح وتلاشت. ربما طردتها من الأرض وحشية الحربين العالميتين...أو أن العملية التقنية قد امتصتها من الآخرين فلم تبق لأحد منهم إلا أن يكون زبونا لبائع أو عاملا تحت إمرة مدير، أو فقيرا أمام غني وبالعكس. باختصار كعناصر يتلاعب بها بشكل أو بآخر، وليس كشخصيات ذات قيمة." [3]

وفي خلاصة جامعة لهذا التناقض الحاد والبون الشاسع بين نظرة متفائلة للبيولوجيا وللقوة الصناعية والتكنولوجيا الدقيقة، وبين صورة في الواقع سيئة تبعث على القلق والخوف، يقول الأستاذ علي عزت بيغوفيتش: "إن فقدان الاختيار -وهو سمة قاتلة من سمات الحضارة - يظهر على أكثر ما يكون الظهور في العجز عن وقف إنتاج وسائل الدمار الشامل، كما يظهر في الإيقاع الرهيب لتخريب

1 " الإسلام بين الشرق والغرب " ص 116.

2 ينظر " الإسلام بين الشرق والغرب "، ص 117 – 126.

3 المصدر السابق ص 121. وينظر أيضا " العمل الديني وتجديد العقل " للدكتور طه بعد الرحمن، ص 44 – 45 (ط2 . 1997م المركز الثقافي العربي).

الحياة الطبيعية الذي يقوم به الإنسان المتحضر في بيئته. إنه الصراع بين الآلي والعضوي، بين المبادئ الصناعية والمبادئ الطبيعية في حياة الإنسان"[1].

ويزيد الأمر إدبارا وخطورة في تمكن هذه الفلسفة إلى درجة التقديس الذي لا تتناوله المراجعة. يذكر مراد هوفمان[2] أن العالم المتخصص في البيولوجيا قد يحطم مستقبله، إذا تجرأ على نقد نظرية التطور الداروينية، فهذه افتراضات فوق النقد والبحث.[3]

ومن غريب الأمر أن أصحاب هذه الفلسفة يرفضون الإصغاء للتحذيرات الكثيرة من قبل أهل الفكر والحكمة في العالم. فقد كثر التنبيه على مخاطر هذه الفلسفة، والتحذير من هذا الغلو في تأليه العلم المادي ونبذ القيم والمعاني، من قبل كثير من أهل الفكر في البلاد الغربية، ومنها مدارس فلسفية مثل مدرسة فرانكفورت المشهورة بنظريتها النقدية. يقول مراد هوفمان : " رغم كوارث المائة عام الماضية، يبدو، بطريقة لا تصدق، أن الإيمان الأبلة للغرب بالإله الجديد (التقدم) مازال سائدا. ألم يستطع الناس أن يتحققوا أن الحكم المستنير للعقلانية والإنسانية لم يمنع حربين عالميتين وحشيتين، استخدم فيها الغاز والقنابل النووية، والقصف الاستراتيجي على المدنيين...هل استراتيجية مبنية على الردع المتبادل مع التهديد بالإبادة النووية تعتبر عقلانية؟ يمكنني أن أستمر ولكن لن أفعل."[4]

ومن آخر من انتقد هذا التوجه المفروض على العالم، الفيلسوف الفرنسي إدغار موران (Edgar Morin)، حتى اعتبر أن من التحديات الكبرى في القرن الحادي والعشرين الميلادي، الإصلاح وإعادة التوازن بين الإنسان والحياة والطبيعة، وأن بإمكان الإنسان أن يستدرك وأن ينقذ نفسه وحياته من هذا الضياع والتيه. لكن هذا الإنقاذ لا يتحقق إلا بالتخلص من "الفلسفة الإنسانية

---

1 المصدر السابق، ص 125.

2 مراد هوفمان، ألماني حاصل على الدكتوراه في القانون. عمل في الإدارة الخارجية الألمانية، وتولى مهمة سفير ألمانيا في الجزائر ثم في المغرب. اعتنق الإسلام عام 1980. من كتبه " الإسلام كبديل " و " يوميات ألماني مسلم " و " رحلتي إلى مكة".

3 ينظر: " الإسلام عام 2000" لمراد هوفمان. (ترجمة عادل المعلم. ط1. نوفمبر 1995. مكتبة الشروق)، ص 40.

4 المرجع السابق، ص.28 – 29 .

"[1] (renoncer à l'humanisme) التي جعلت من الإنسان موضوعا تافها في عالم الأشياء، وجعلت غايته الوحيدة هي غزو العالم والسيطرة على الكون. " إذا أردنا أن نستمر في الحياة، لابد من مباشرة التغيير، ولهذا يجب مراجعة هذا العقل الذي اخترع لنفسه عدوا لدودا وهو العقلانية".[2]

وفي الرأي العام الشعبي هناك احتجاج عنيد على هذه الفلسفة، يقول مراد هوفمان : " يشوب الدول الصناعية الآن نوع من الخلل، تجسده الجماعات الرافضة للمجتمع، والتي تبحث عن بديل للنظام الذي أعطاهم المادة والحرية ذات الطبيعة الخاصة. فهي تفتقد الأمان، تؤرقها التكنولوجيا المفرطة، وقلق المستهلك، وتأليه العقل، سواء في الاقتصاد أو الردع النووي."[3] إن احتجاج هذه الجماهير، ليس على إنجازات التقدم العلمي، وإنما على ما يصاحبه من فلسفة تحمل على احتقار القيم. يضاف إلى ذلك الواقع الاجتماعي المضطرب في العالم، وفي البلاد المتقدمة صناعيا وتكنولوجيا، من خلال التفكك الأسري، والعنف الاجتماعي وفشو الجريمة، وتعاطي جميع أنواع المخدرات، وارتفاع معدل الانتحار، وانتشار الأدب الإباحي، وفشو الأمراض النفسية، وغيرها مما هو مشهور من معضلات الزمن المعاصر. هذه علامات على ظاهرة تترجم عن مكنون النفوس وشعورها بعدم الرضا، فتعبر عن ذلك، بوعي أو بغير وعي، بمختلف أشكال التمرد والشذوذ. يقول على عزت بيغوفيتش : " كيف يمكن تفسير حقيقة أن عدد حالات الانتحار والأمراض النفسية تتناسب طرديا مع مستوى الحضارة؟ وقد اشتكى عالم نفساني أمريكي فقال : (هذه حقيقة هامة من وجهة نظر نفسية، هل هؤلاء الناس أصبحوا أقل رضى مع وجود التحسنات التي طرأت على حياتهم المعيشية) هذه الظاهرة التي تظهر بصفة خاصة في بعض الدول المتقدمة الخالية من المشكلات الاجتماعية التقليدية، تهز في أعماقنا الثقة بالتقدم".[4] وأورد الأستاذ على عزت بيغوفيتش أمثلة كثيرة من

---

1 الفلسفة الإنسانية (L'Humanisme) هي التي تقوم على أن الإنسان جزء من الطبيعة، موجود بذاته لأنه نتاج الطبيعة، وليس مخلوقا، وهو الذي يصنع مصيره بنفسه، وقادر على السيطرة على الكون وحل جميع مشكلاته اعتمادا على العقل والعلم من غير حاجة إلى دين.

2 ينظر : . Philosophie . (Hatier , Paris Avril 2000) .لمجموعة من المؤلفين، ص 300.

3 " الإسلام كبديل " لمراد هوفمان، ص 21. (تعريب عادل المعلم. ط 1. 1418هـ - 1997م. دار الشروق).

4 " الإسلام بين الشرق والغرب "، ص 122.

الأحداث والوقائع والظواهر الاجتماعية في كثير من بلاد العالم خاصة البلاد المتقدمة، مما يؤكد أن التقدم العلمي المادي والتطور الصناعي لا يعني الاستقرار النفسي والاجتماعي.[1]

هذه أمثلة دالة على التضجر من هذه النظرة التي سادت العالم، وهذه أدلة من أهل الفكر والحكمة على أن هذه النظرة إنما هي بسبب تأليه العقل البشري المغتر بالعلم، فهي كبر وغرور، وإنما حقيقة الإنسان هي التواضع، وحقيقة العلم هي خدمة الإنسان في أبعاده كلها.

يقول طه عبد الرحمن : " لو أمعنا النظر في الأحوال التي تتقلب فيها التقنيات اليوم، لظهر لنا أن هذه الآمال الزاهية بعيدة كل البعد عن التحقق...يسود الاعتقاد بأن العلم ينمو نموا يطرد اطراد الخط المستقيم...متجها خطوة خطوة إلى تحقيق كمال المعرفة. لكن هذا التصور التراكمي التكاملي للعلم، تكذبه وقائع تاريخ العلم."[2]

ووباء كورونا واقعة أخرى تضاف إلى غيرها، بل إنها أكثر تعبيرا وأقوى تأكيدا على أن إلصاق الكمال بالمعرفة الإنسانية بسبب التقدم التكنولوجي والصناعي، غلو وتطرف. إن أول ما يبدو للمتأمل في هذا الوباء، أنه يكشف العيب ويظهر المستور، ويؤكد أن الإنسان مهما راكم من قوة وعلم لا يمكن بحال أن يبلغ السيادة التي يعد بها العلم المادي. في زمن كورونا، عاينت البشرية كلها – فلم يستطع أحد أن يكتم هذه الحقيقة لأنها أقوى من قدرة الإنسان، وتجاوزت ما يمتلكه من وسائل التحكم والسيطرة – كائنا خفيا يعلن الحرب على العالم كله، بل يوقع الإنسان في هول صدمة المفاجأة، فيثبت هذا الكائن الخفي المحارب عجز الإنسان وضعفه عن المقاومة، وعدم كفاية كل ما راكمه من علم وقوة صناعية، فأخلى الإنسان الحياة العامة، كأنها عملية تراجع من ساحة المعركة، وإعلان هزيمة وعجز عن المقاومة. وصاحب ذلك حيرة ودهشة من أهل الاختصاص من خصائص هذا الوباء، وقوة انتشاره، وتقلب أطواره، وذلك يعنى العجز عن مسايرته في قوته وعدم القدرة على مجاراته في سرعته. ويصف الفيلسوف الفرنسي إدغار موران الحيرة التي سيطرت على العالم بسبب وباء كورونا، والدهشة التي

1 ينظر " الإسلام بين الشرق والغرب "، ص 115 – 126.

2 " العمل الديني وتجديد العقل "، ص 45.

تمكنت من عقول الباحثين فيقول: " المهم والمثير في أزمة كورونا، هو أنه لا نملك أي حقيقة عن أصل الوباء ومصدره، ولا عن صفاته وأحواله، ولا عن الضحايا الذين يصيبهم، ولا عن درجة ضرره. وفي الوقت نفسه نمر من حالة اضطراب وشك عن آثار الوباء على جميع المجالات الاجتماعية والاقتصادية."[1]

فوباء كورونا أكد بالدليل الواقعي العملي، وبرهان الحال، حيرة الإنسان أمام المجهول وسعة المجهول أمام الإنسان. فوباء كورونا يثبت أن الحياة قد تندثر في لحظة واحدة، بعيدا عن علم الإنسان وخارج سيطرته، وأن قوة العلم مهما بلغت قد لا تنفع شيئا في لحظة معينة. ومعنى ذلك أن ما راكمه الإنسان من علم وما اكتسبه من تجربة سيبقى دائما جزءا يسيرا بالنسبة للمجهول من العوالم المادية والمعنوية. وهذه النتيجة المستفادة من زمن كورونا هي نفسها التي توقف عندها الفيلسوف الفرنسي إدغار موران واعتبرها فرصة سانحة لمراجعة الأفكار التي راكمها العلم عن قوة العقل وسيادة الإنسان على الطبيعة فيقول:"هذه المرحلة التي نمر منها اليوم (يعني مرحلة وباء كورونا)، فرصة مواتية وزمن مناسب لكي يعرف الناس والمعتنون بالبحث العلمي أنفسهم، أنه من الضروري أن نفهم أن النظريات العلمية ليست حقائق مطلقة مثل العقائد الدينية، وإنما هي قابلة للمراجعة والنقض."[2]

---

1 حوار على صفحة CNRS Le journal بتاريخ 2020/04/60م . ونص كلامه المترجم أعلاه هو :

ce qui est très intéressant, dans la crise du coronavirus, c'est qu'on n'a encore aucune certitude sur l'origine

même de ce virus, ni sur ses différentes formes, les populations auxquelles il s'attaque, ses degrés de nocivité... Mais nous traversons également une grande incertitude sur toutes les conséquences de l'épidémie dans tous les domaines, sociaux, économiques...

2 حوار على صفحة CNRS Le journal بتاريخ 06 / 04 /2020م. وهذا نص كلامه المترجم أعلاه :

" L'épisode que nous vivons aujourd'hui peut donc être le bon moment pour faire prendre conscience, aux citoyens comme aux chercheurs eux-mêmes, de la nécessité de comprendre que les théories scientifiques ne

sont pas absolues, comme les dogmes des religions, mais biodégradables..."

إن أهم درس يرجى أن يستفيده العالم كله من هذا الوباء، وسيكون نقطة انطلاق لعهد جديد من أجل استكمال فلسفة الحياة وحقيقة الإنسان، وتصحيحا لمسيرة العلم والتكنولوجيا، أن يتم الاعتراف بفشل العلم المادي – في اقترانه بالفلسفة المادية أحادية الجانب - في تحقيق السعادة وترسيخ كرامة الإنسان ورفع القيم الإنسانية. وهذا ما يقتضي إعلان التواضع العلمي وهو أول القيم التي بها ينمو العلم ويسير باعتدال. فلا يمكن رفض التقدم العلمي بحال، وإنما الغاية المرجوة ألا يكون سببا للغرور والقصد إلى السيطرة والسيادة، واحتقار القيم المعنوية في الحياة والإنسان، وإنما أن يكون وسيلة لخدمة مصلحة الإنسان في شقها المادي والمعنوي، وصيانة لكرامة الإنسان بصفته إنسانا وليس آلة لا إحساس لها، أو شيئا كسائر الأشياء. الحضارة والتقدم المادي لا يمكن رفضه بحال " إنما الشيء الوحيد الضروري والممكن هو أن نحطم الأسطورة التي تحيط بها. فإن تحطيم هذه الأسطورة سيؤدي إلى مزيد أنسنة هذا العالم وهي مهمة تنتمي بطبيعتها إلى الثقافة." [1]

لقد أظهر وباء كورونا هشاشة القوة التي بناها الإنسان عبر قرون على التكنولوجيا والصناعة، وبين أن كثيرا من المجالات التي تأخذ من نفقات الدول الكثير ليس لها فائدة حقيقية تعود على حياة الإنسان في صحته وتعلمه وتربيته. يقول إدغار موران: "هذه الأزمة (يقصد أزمة العالم بسبب وباء كورونا) حملتنا على التفكير والمراجعة في طريقة حياتنا، وفي حاجاتنا الحقيقية التي يحجبها عنا ما نعيشه من الاغتراب في حياتنا اليومية."[2]

وفي بيان هشاشة هذه الفلسفة المعاصرة، وعدم كفايتها لتأمين الراحة النفسية، وأنها أدخلت الإنسان في القلق والاضطراب، يقول أيضا: "إن نزول هذا الوباء ينبغي أن ينبهنا إلى أن الريبة وعدم اليقين يبقى عنصرا لا مفر منه في الوجود الإنساني. جميع أنواع التأمين الاجتماعي المتوفرة لا يمكن أن تضمن لك عدم الإصابة بالمرض أو أن تكون سعيدا في حياتك الخاصة. نحاول أن نحتمي

1 " الإسلام بين الشرق والغرب، ص 133.

2 -حوار مع يومية le monde الفرنسية بتاريخ 19 أبريل 2020. ونص كلامه المترجم أعلاه : " Cette crise nous pousse à nous interroger sur notre mode de vie, sur nos vrais besoins masqués dans les aliénations du quotidien.

بأكبر ما يمكن من اليقين، ولكن واقع الحياة إنما هو سباحة في بحر الريبة وعدم اليقين، تتخلله جزر من اليقين التي نستمد منها."[1] وهذا كاف في بيان ما سيطر على الإنسان من القلق وعدم الشعور بالرضا. ويزيد إدغار موران في التعبير عن الخوف من المستقبل، وتوقع أسوأ العواقب بسبب هذا الوضع القائم، والذي زاد وباء كورونا في كشف عورته، فيقول :" العولمة سيل جارف مفاسده أكبر من مصالحه. ألاحظ أن هذا التطور التقني والاقتصادي السريع – الذي لم يعد منضبطا، و تحركه الرغبة العنيفة في الربح - أصبح مضرا وسببا لأزمات مختلفة. من هذه اللحظة أنا مستعد – من الناحية الفكرية – أن أواجه ما لا تحمد عقباه من الفوضى والاضطراب."[2]

الآن وقد ثبت عندنا أن معضلة الفكر المعاصر، هي فلسفة تأليه الإنسان اعتدادا بقوة العقل والعلم، والقصد إلى السيطرة على الطبيعة، ومعاداة الدين، وتأكد أن هذه الفلسفة حصل منها الضياع، وأن سهام النقد موجهة إليها من قبل أهلها ممن نقلنا بعض كلامهم، نرجع إلى هذه المعضلات بشيء من المناقشة، فنبدأ بمعضلة الاعتداد المطلق بالعقل والعلم وأنه يستطيع معرفة كل شيء

1 إدغار موران حوار CNRS Le journal Entretien 60 / 04 / 2020. وأصل كلامه المترجم أعلاه: "
L'arrivée de ce virus doit nous rappeler que l'incertitude reste un élément inexpugnable de la condition humaine. Toutes les assurances sociales auxquelles vous pouvez souscrire ne seront jamais capables de vous garantir que vous ne tomberez pas malade ou que vous serez heureux en ménage ! Nous essayons de nous entourer d'un maximum de certitudes, mais vivre, c'est naviguer dans une mer d'incertitudes, à travers des îlots et des archipels de certitudes sur lesquels on se ravitaille

2- المصدر السابق وأصل كلامه المترجم أعلاه : "
la globalisation est un processus pouvant provoquer autant de nuisances que de bienfaits. J'observe aussi que le déchaînement incontrôlé du développement techno-économique, animé par une soif illimitée de profit et favorisé par une politique néolibérale généralisée, est devenu nocif et provoque des crises de toutes sortes… À partir de ce moment-là, je suis intellectuellement préparé à faire face à l'inattendu, à affronter les bouleversements.

وتفسير كل شيء وفهم كل شيء، ثم معضلة القصد إلى السيطرة على الطبيعة ثم معضلة معاداة الدين.

مراجعة معضلة الاعتداد المطلق بالعقل والعلم في غفلة عن القيم والمعاني

إن أول مراجعة فكرية يجب أن تنال الفكر المعاصر، هي ضبط حدود العقل، ونزع ما أحيط به من القداسة إلى درجة تحميله أوصاف الإلهية، عندما ينسب إليه القدرة على عقل كل شيء، واستحالة أن يغيب عنه شيء. يقول الدكتور طه عبد الرحمن : " إن العقل لا يمكن أن يعقل الكل، ولو أنه هو كذلك شيء من الأشياء، بل هو أكبر شيء ممكن، لأن ذلك العقل هو نفسه جزء من هذا الكل، ومحال أن يحيط الجزء بالكل، فإذن هناك أشياء يستحيل منطقيا عقلها، بل هناك أشياء لا يتيسر عقلها، ولو أنه لا يستحيل لكون قدرها أكبر من طاقة العقل. فكيف إذن يتيسر ذلك للعقل الذي أخذ به التطبيق الغربي، وهو، بإقرار أهله أنفسهم، عقل ضيق لا يتسع إلا إلى صنع الآلات ودر الأرباح، وقد سموه (العقل الأداتي) أو إن شئت قلت (العقل الجمادي) في مقابل (العقل القيمي) ولم يكفوا عن الشكوى منه ومما جلبه من مهلكات على البشرية، ولا يزال يفعل ".[1]

فلا بد من تصحيح معضلة تأليه العقل والعلم بقاعدة ترسيخ التواضع العلمي، فالمجهول أكبر من المعلوم، وقدرة العقل أضعف بكثير مما هو كائن في الوجود. قال تعالى:﴿ **فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ** ﴾ (الحاقة:38-39). ويكفي في ضعف الإنسان وحدود عقله أنه لم يشهد لحظة الخلق التي تحركت فيها الحياة وخرجت من العدم إلى الوجود. يقول الله تعالى:﴿ **مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا**﴾." (الكهف:51). وقال عز وجل:﴿ **لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ (غافر:57).

1 " روح الحداثة"، ص 43. (ط1. 2006. المركز الثقافي العربي) ويحيل الدكتور طه عبد الرحمن في مسألة حدود العقل، ونقد نظرية تأليه العقل على مدرسة فرانكفورت.

"إننا لا نستطيع تفسير الحياة بالوسائل العلمية فقط، لأن الحياة معجزة وظاهرة معا. والإعجاب والدهشة هما أعظم شكل من أشكال فهمنا للحياة".[1] فينبغي للعلم أن يتسع للبحث في المعنى واستحضار أسرار الكون، واعتبار الغايات الكبرى، وليس التضييق على العقل البشري بحصر نظره في الأسباب والمسببات الظاهرة في الجزئيات المختلفة من العالم المادي. إن التهمم بمعرفة دقائق أوصاف الإنسان الجسدية، وكيفية ولادته، والتتبع الشديد لمعرفة أسباب مرضه، والحرص على التماس أسباب موته، في غفلة عن غاية حياته وحقيقة موته ومعناه وسره، عجز كبير وتجاهل للقضايا الكبرى في حياة الإنسان، واهتبال بالجزئيات وتجاهل للكليات، والحال أن الجزء لا ينفصل عن الكل بقواعد المنطق العقلي نفسه.

ولقد عبر عن هذا العيب الكبير الفيلسوف الفرنسي إدغار موروان في آخر كتبه الذي سماه "المعرفة والجهل والسر" (Connaissance ,ignorance,mystère) (مارس2019). أول ما قدم له بنقل أقوال جماعة من الفلاسفة الغربيين في التعبير عن حقيقة ضعف المعرفة العلمية عن الإحاطة بحقيقة الحياة، وأن المعرفة العلمية بالإنسان والحياة، مهما بلغت، يكتنفها اللغز المحير للعقل المجرد. إنها معرفة بسيطة صماء، بل لم يترددوا في وصفها بالجهل، لأنها لا تبلغ الجواهر وإنما تكتفي بالظواهر، فتكتنفها الألغاز وتحيط بها الأسرار. إنه الإعلان عن ضيق مجال العقل والعلم، وحاجته إلى فتح فضاء أرحب، ليداعب العقل، مصحوبا بمواجيد القلب، عوالم الروح، ليدرك كليات الحياة، وغاياتها الكبرى، ومعانيها السامية. وليُعرف الإنسان، ليس فقط في جسده وحاجاته إلى الأكل والشرب والمتع الجسدية، وإنما في المعاني الروحية التي تسكنه، وفي القيم المعنوية التي تلتبس بقلبه ولا تفارقه، وإن تجاهلها أو تناساها، فهي تبقى تنازعه ولا تنفك عنه، وذلك سبب الضياع والاضطراب، وهذا ما نجده عند هؤلاء الفلاسفة من التعبير عن عدم الرضا والتطلع إلى عالم أرحب، وإزالة الخوف بزوال الأسرار والألغاز. ولقد اختلفت عباراتهم، لكنها كلها تترجم عن معنى القلق وعدم الرضا على الرغم من التقدم العلمي الهائل. فمنهم[2] من قال " إن الزيادة في المعرفة إنما هي زيادة في

1 - " الإسلام بين الشرق والغرب " ص 80.

2 هذه الأقوال والنقول التي بعدها عن إدغار موران مأخوذة من مقتطفات من كتابه على موقع : amazon.fr

الجهل"، ومنهم من شبه الإنسان بالضفدع في قعر البئر، يعرف ما في البئر، ويجهل كل ما في البحر. ومنهم قال" إن سفينة المعرفة تخلت عن حبل التوازن، فانطلقت تبحر نحو المجهول والظلام." ومنهم من قال : " الذي لا يتأمل ويتدبر يحكم على نفسه بالعمى، والذي يتأمل يقحم نفسه في الظلام. فليس لنا خيار إلا السواد."

وكل ذلك اعتراف ضمني بالحاجة إلى اتساع مدارك العقل والعلم ليهتم بالمعاني الكبرى للحياة، وليزيد إلى النظر العلمي المجرد لربط الأسباب بالمسببات، النظر الكلي إلى المعاني الكبرى للحياة والإنسان. وجاء إدغار موران ليعبر عن هذه المعضلة ويعلن هو أيضا عما يعتريه من القلق بقوله:"أزداد وعيا وإحساسا يوما بعد يوم بحضور المجهول في المعلوم، ووجود اللغز في القضايا العادية، وأن الأسرار تكتنف كل شيء، وكذا أحس بزيادة الجهل مع كل تقدم علمي جديد."

Je vis de plus en plus avec la conscience et le sentiment de la présence de l'inconnu dans le connu, de l'énigme dans le banal, du mystère en toutes choses et, notamment, des avancées du mystère en toutes avancées de la connaissance .»

وأول فصل عقده في الكتاب بعنوان : " المعرفة الجاهلة (La connaissance ignorante) وبدأه بقوله : " نحن في مجتمع تتوسع فيه المعرفة وتتراجع في الوقت نفسه" ثم راح يحلل في المعرفة الإنسانية في القرن الحادي والعشرين الميلادي(21)، وخلاصة ما ذكره في ذلك، أن المعرفة تهتم بالأجزاء في غفلة عن الكليات والمعارف الأساسية الكبرى، وعبر بصيغ مختلفة عن عدم كفاية هذا النوع من المعرفة، وأفصح عن الشعور بالحاجة وعدم الرضا عن كل ما تقدمه هذه المعرفة عن العالم والإنسان. من ذلك قوله : " أدرك أن عقلي وروحي يشرفان على العالم والحقيقة والحياة، وأدرك في الوقت نفسه، أنني محصور بين حدودهما، وأن العالم والحقيقة والحياة التي أعرفها غارقة في المجهول."

Je sais que ma raison, mon esprit m'ouvrent sur le monde, la réalité, la vie, et je sais en même temps qu'ils m'enferment dans et

par leurs limites, et que le monde, la réalité, la vie que je connais recouvrent de l'inconnu.

ويقول أيضا :" السر يحيط بكل القضايا المهمة والأساسية التي تعترض الوعي البشري. هل معنى هذا أن على هذا الوعي أن يكتفي بالظواهر كما ينصح به كانط؟ هل بإمكاننا أن نقترب من المجهول ونعرف السر؟ هل بإمكاننا أن نحاور الأسرار؟"

Le mystère recouvre tous les problèmes profonds, fondamentaux, essentiels que se posent l'esprit humain. Celui-ci doit-il renoncer et se limiter aux phénomènes, comme le préconisait Kant?

Peut-on s'approcher du mystère? Peut-on dialoguer avec le mystère?

إنها نوازع الفطرة التي تدل على أن روح الإنسان تضيق عن هذا العالم المادي إنها تتشوف إلى عالم أرحب، إنها تروم الخلود والبقاء وتنفر من الزوال والفناء. إنه اعتراف صريح بافتقار العلم إلى قرينه الذي يمنحه القوة على استكمال معرفته عن الكليات والمعاني والغايات الكبرى. يقول الأستاذ علي عزت بيغوفتش:"كلما نمت معرفتنا عن العالم تزايد إدراكنا بأننا لا يمكن أن نكون أسياد مصائرنا. حتى مع افتراض أعظم تقدم للعلم، فإن مقدار ما سيكون تحت سيطرتنا من عوامل لا يساوي شيئا إذا قورن بالكم الهائل من العوامل الخارجة عن هذه السيطرة. إن حجم الإنسان لا يتناسب مع حجم هذا الكون الفسيح، وعمر الإنسانية كلها ليس وحدة قياس لما يجري في هذا الكون من أحداث. وهذا هو سبب ما يعتري الإنسان من شعور دائم بالخطر، وما ينعكس على نفسيته من حالات التشاؤم والتمرد واليأس واللامبالاة أو التسليم لله."[1] إن الإنسان في العالم المعاصر ممزق بين قوة العلم المادي وبين نوازع نفسه الباطنة وروحه التي تحلق فوق حاجات جسده، وتطلب الخلود.

1 " الإسلام بين الشرق والغرب " ص393- 394.

إن العقل نعمة عظيمة وهبة شريفة، وما لزم عنه من العلم والمعرفة إنجاز عظيم مفيد، لكنه، في الفكر المعاصر، انحصر في فهم الظواهر دون المعاني والأسرار، وعقل الأشياء دون الحكم والغايات. بل ذهب في غاية الكبر والغلو، لما أنكر كل ما ليس محسوسا وخارج إدراك العقل التجريبي. ولهذا لم يحط هذا (العقل الأداتي) – كما سماه الدكتور طه عبدالرحمن – بجميع حاجات الإنسان، " فإن الإنسان يحمل في نفسه عالما وجدانيا تمتزج فيه المشاعر والإشارات بالقيم والآيات، فضلا عن المعارف والآلات...فإذن لابد أن يتسع العقل المطلوب لهذا الجانب الوجداني كما اتسع للعلوم والقيم، وهكذا فالتعقيل الذي ينبغي أن يمارسه الإنسان هو ذلك الذي يطلب المعارف ويصنع الآلات على مقتضى القيم والإشارات المتغلغلة في الوجدان الإنساني."[1]

فيثبت من كل هذا حاجة العقل إلى التواضع، وافقار العلم إلى أن يتسع فضاؤه للإنسان في أسراره الباطنة، والحياة في معانيها الكلية. من هنا نعبر إلى مكانة العقل والعلم في الفكر الإسلامي.

■ العقل والعلم في الفكر الإسلامي

ممن توسع في بيان مفهوم العقل ومراتب العقلانية في الفكر الإسلامي، ونقد العقلانية المجردة، الدكتور طه عبد الرحمن خاصة في كتابه: " سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الخلقي للحداثة الغربية"، وفي كتابه: " العمل الديني وتجديد العقل "، وفي كتابه " سؤال العمل: بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم"، وفي كتاب " روح الحداثة : المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية". ففي تعريف العقل بدأ بطرح التعريف الرائج وهو كون العقل جوهرا قائما بالإنسان به يفارق الحيوان ويستعد بها لقبول المعرفة. وبعد نقد هذا التعريف الذي يجرد العقل من أي التزام عملي ويقطعه عن كل مسؤولية خلقية، يأتي لتعريف العقل من منظور الفكر الإسلامي فيقول : " هو عبارة عن إدراك القلب للعلاقات القائمة بين الأشياء"[2] ومعنى ذلك أن العقل فعل من الأفعال أو وصف من

1 " روح الحداثة "، ص 44 .

2 " سؤال العمل " للدكتور طه عبد الرحمن، ص 73 . (ط2 . 2012 . المركز الثقافي العربي)

الأوصاف التي تقوم بالقلب. والعقل بالنسبة للقلب مثل البصر للعين والسمع للأذن. [1] ودليل ذلك قول الله تعالى في القرآن الكريم :﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ (الحج:46) فنسب فعل العقل إلى القلب.

ولما كان العقل فعلَ القلب، كان مفهومه عمليا وليس تجريديا كما هو شائع في الفكر الغربي. يقول الدكتور طه عبد الرحمن : " فعلى هذا لا يعدو العقل أن يكون فعلا من الأفعال أو سلوكا من السلوكات التي يطلع بها الإنسان على الأشياء في نفسه وأفقه، مثله في ذلك مثل البصر بالنسبة للمبصرات، فالبصر ليس جوهرا مستقلا بنفسه، وإنما هو فعل معلول للعين، فكذلك العقل هو فعل معلول لذات حقيقية، وهذه الذات هي التي تميز بها الإنسان في نطاق الممارسة الفكرية الإسلامية العربية، ألا وهي (القلب) فالعقل للقلب كالبصر للعين."[2] ومما يشهد لهذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**)[3] " فاختصاص القلب بفعل العقل لا يختلف في شيء عن اختصاص العين بفعل النظر أو اختصاص الأذن بفعل السمع أو اختصاص اليد باللمس أو اختصاص اللسان بالذوق...فالقلب هو وحده الذات الجامعة التي تتفرع عنها كل قوى الإدراك."[4] فالعقل، بحكم تعلقه بالقلب، له مفهوم عملي حركي، والإدراك العقلي يكون إدراكا عمليا، " لأن القلب، لما كان هو الجوهر الحي في الإنسان، بل هو مصدر الحياة فيه، صار أعلق شيء بالعمل، لأنه سبب البقاء، فيلزم أن يكون الفعل الخاص بالقلب، وهو الإدراك العقلي، مشبعا بهذا التوجه العملي الأصلي."[5] وهذا ما

1 ينظر " العمل الديني "، ص 18 – 21 .
2 المصدر السابق، ص 18 .
3 " صحيح البخاري" كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (52).
4 " سؤال العمل " ص 71 – 72 .
5 المصدر السابق ص 76.

يفضي بنا إلى بيان معايير العقلانية والخصائص التي يتجاوز بها العقل مستوى التجريد والتحلل من كل التزام عملي.

▪ خصائص العقلانية في الفكر الإسلامي: العملية والتقويم والتكامل:

من خلال تعريف العقل ثبت أن له مفهوما عمليا سلوكيا، وليس مجردا. وهذه هي الخاصية الأولى للعقل في الفكر الإسلامي خاصية العملية أو الفاعلية كما سماها طه عبد الرحمن، ويأتي وصفان آخران لاستكمال معايير العقلانية وهما التقويم والتكامل.

فالعقل، كما تقدم، فعل القلب الذي هو مستقر القيم والمعاني. والفعل، في الفكر الإسلامي يقتضي التكليف والالتزام والأمانة، فيكون العقل في عمله متوسلا بالقيم العملية التي يلتزمها الإنسان العاقل. وهذا لا وجود له في العقلانية المجردة، فليس فيها أي التزام سلوكي للذات العاقلة، وإنما حركة العقل بإصدار الأحكام في كل شيء، من غير تحمل مسؤولية عملية أو تجربة سلوكية. أما في الفكر الإسلامي فلا عبرة بعقل وعلم من غير سلوك من قبل الذات العاقلة والعالمة. يقول الدكتور طه عبد الرحمن : " إن الخروج من العقلانية المجردة يتم عن طريق التوسل بالقيم العملية، ذلك لأن العمل يقوم بتلقيح وإخصاب الممارسة العقلية، فتتوالد منها قوة تفتح لها آفاقا إدراكية جديدة. ومعلوم لكل متخلق بأخلاق الدين أنه لا أوفى بهذا الغرض من العمل الذي يكون مستمدا من شرع هذا الدين".[1]

وأما خاصية **التقويم** فمعناها سعي الإنسان الدائم نحو الكمال والأحسن، ويبدأ التدرج في التقويم من الحياة الدنيا ويمتد ليشمل الدار الآخرة. فهذا السعي يتحقق بجلب المصالح في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ودرء المفاسد في الحياة الدنيا والآخرة. وهذا ما يحمل الإنسان على استفراغ الجهد لبلوغ الكمال في الدين والدنيا. وأما خاصية **التكامل** فمعناها أن يأتلف في الإنسان جميع أوصافه المادية والمعنوية، لأن الإنسان عبارة عن ذات واحدة تجتمع فيها مظاهر القوة ومظاهر الضعف، ومستويات النظر مع مستويات العمل، وقيم الجسم مع قيم الروح.

---

1 " سؤال الأخلاق " ص 68 – 69 (ط1 . 2000. المركز الثقافي العربي) .

وخلاصة العقل في الفكر الإسلامي أنه فعل القلب، ينضبط بمعيار العمل " الذي يقول بتحقق الإنسان عن طريق الأفعال، ومعيار التقويم الذي يقتضي بأن تستند هذه الأفعال إلى قيم معينة، ومعيار التكامل الذي يجعل هذه الأفعال الموجهة متضافرة فيما بينها ومكملا بعضها لبعض."[1] وبمقدار تمكن هذه المعايير من العقل الذي هو فعل القلب، يرتقي الإنسان في مراتب العقلانية، فيرتفع عن العقل المجرد إلى العقل المسدد، وإذا تحقق بالعمل والسلوك ارتفع إلى العقل المؤيد.[2] ومرتبة العقل المسدد هي المقابل لدرجة الإسلام والإيمان في قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (**الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ... الْإِيمَانِ : أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.**) والعقل المؤيد هو مرتبة الإحسان التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم : (**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.**)[3]

فهذا المنظور للعقل والعلم في الفكر الإسلامي، يبدو أوسع فضاء منه في الفكر الغربي المعاصر، لأن العقل فعل القلب، وهذا ما يجعل كل عملية عقلية مقترنة بعملية وجدانية، فيتعلق النظر العقلي بقيم الجسم وقيم الروح. وما يهتدي إليه العقل من الفوائد العلمية في مجال العالم المادي، لا يقف بها العقل عند الظواهر وربط الأسباب بالمسببات، وإنما يرتقي من الأسباب المادية الظاهرة إلى المعاني الكلية والغايات الكبرى. وبهذا يتحقق التكامل في الإنسان، فالإنسان " على اختلاف مظاهره وتعدد قدراته ووظائف أعضائه، ليس مجموعة من الأجزاء التي تقبل إيقاع الانفصال بينها، وإيقاف التأثير بعضها في بعض، وإنما هو عبارة عن ذات واحدة تجتمع فيها مظاهر القوة ومظاهر الضعف، كما تجتمع فيها صفات العقل مع صفات الوجدان، وقيم الجسم مع قيم الروح."[4]

---

1 " سؤال الأخلاق " ص 62.

2 فصل الدكتور طه عبد الرحمن مراتب العقلانية في كتابه : " العقل الديني وتجديد العقل " فبعد تحليل العقل المجرد ونقده، عقد فصلا كاملا للعقل المسدد، ثم فصلا آخر للعقل المؤيد.

3 " صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام والإحسان. حديث (8).

4 " العمل الديني "، ص 52.

وبناء على ما تقدم فإن المعرفة في الفكر الإسلامي معرفة عملية ذات وجهين مثل وجهي العملة الواحدة، وجه مادي أدنى تتحقق به المصلحة للإنسان في جسمه وحاجاته المادية، ووجه معنوي أعلى يرتقي به الإنسان بروحه بمعرفة من له قدرة تدبير هذا الكون الفسيح. فالنظر العلمي ليس لمعرفة الكون لذاته، وإنما لمعرفة مدبر الكون.

فالعقل في الفكر الإسلامي وسيلة للعلم، وطريق للرقي الروحي. فنعرف الكون في سننه وقوانينه، ومنه نرتقي إلى معرفة صفات خالقه ومبدعه. نعرف الشمس في صفاتها وخصائصها ومكانتها في الكون وعلاقتها بغيرها من أجزائه، فنقول ما أعظم الشمس وما أجملها، ثم نرتقي من هذه المعرفة إلى معرفة خالق الشمس ومعرفة صفاته ومنها صفة العظمة والجلال والجمال، فنقول ما أعظم خالق الشمس وما أجمل صفاته. فالحقيقة العلمية المادية محفوظة، بل تزداد تألقا، بإشراق الروح بمعرفة صفات الخالق من معرفة صفات الكون المخلوق. فنظرية الخلق ليست مانعا للمعرفة العلمية، بل بالعكس تزيدها بهاء وجمالا وتمنحها المعنى .

وبقيام العقل على القلب، فإنه يكون قيميا، أي قائما على القيم المعنوية. ولهذا فإن عقل الأشياء يكون على جهة استخدامها في تيسير مصالح الإنسان في الحياة، وتحقيق حاجاته المادية المختلفة، وفي الوقت نفسه على جهة حفظ قيمة الإنسان، وتحقيق قيم ترقى بالإنسان. ويزيد الدكتور طه عبد الرحمن في بيان سعة العقل الإسلامي فيقول : " ولئن كان هذا العقل القيمي أوسع من العقل الأداتي، الذي غزا التطبيق الغربي للحداثة، وكادت مضاره أن تغطي منافعه، فهو لا يكفي في الإحاطة بمتطلبات الإنسان كما ينبغي أن يكون، فهذا الإنسان يحمل في نفسه عالما وجدانيا ...وعالم الوجدان على خلاف ما يظن، لا يقل عقلانية عن عالم المعرفة وعالم القيم، وإن كانت عقلانيته من جنس ألطف وأدق، فإذن لابد أن يتسع العقل المطلوب لهذا الجانب الوجداني كما اتسع للعلوم والقيم. وهكذا فالتعقيل الذي ينبغي أن يمارسه الإنسان هو ذلك الذي يطلب المعارف ويصنع الآلات على مقتضى القيم والإشارات المتغلغلة في الوجدان الإنساني".[1]

1 " روح الحداثة"، ص 44 .

فالعقل، في الفكر الإسلامي، يطلب العلوم والمعارف، ويصنع الآلات، في ضوء القيم الإنسانية وضوابط السلوك والأخلاق. ولهذا ينتفي في الفكر الإسلامي هدف السيطرة على الطبيعة وهي المعضلة الثانية من معضلات الفكر المعاصر.

■ مراجعة معضلة القصد إلى السيطرة على الطبيعة

سبق في الكلام على العقل والعلم في الفكر الإسلامي، أن العقل ينظر في الكون والطبيعة لمعرفة القوانين التي يسير عليها، ويرتقي من ذلك إلى معرفة صفات خالق الكون ومدبره. ولهذا لا يصارع الطبيعة وإنما يوادها، لأنها مهده وفضاء حياته، وهي معرض جميل للصنعة الإلهية المحكمة، وفضاء لمشاهدة تجليات جلال خالق الكون والإنسان. فمعرفة الطبيعة واكتشاف قوانينها وأسرارها يتحقق به للإنسان فائدتان عظيمتان، فائدة مادية بمعرفة قوانينها من أجل تيسير حياته وأخذ مصالح معاشه، وفائدة معنوية روحية بالتمتع بالجمال المبثوث في الطبيعة والارتقاء منه إلى معرفة جمال خالقها ومدبر أمرها. وليس الأمر كما هو في الفكر المعاصر الذي يعرف القوانين الظاهرة والأسباب والمسببات فيقف عند هذا الحد، فيتجاهل أسرار الجمال المبثوث في الكون، ويحجم عن العبور إلى المعاني الكبرى للكون، ويتعالى عن الاعتراف بالدهشة لئلا يؤول به الأمر إلى الوقوع في النظرة الدينية. وهذه منطقة فراغ كبيرة في الفكر المعاصر، وهي سبب ما عبر عنه غير واحد من الاضطراب بسبب عدم الرضا، وبقاء الكون محفوفا بالأسرار والألغاز، وقد تقدم شيء من ذلك، لما أحلنا على كتاب الفيلسوف الفرنسي إدغار موران

(Connaissance ,ignorance,mystère).

إن الطبيعة صنعة معروضة، وهدية ممنوحة، كلما زاد الإنسان في معرفتها، زاد معرفة بخالقه ومدبر أمره، وزاد حبا له. ومحبة الصانع تقتضي محبة صنعته. وبهذا الأصل يدخل الإنسان في تواصل مادي مع الطبيعة لمعرفة خصائصها، وفي تفاعل وجداني مع الكون من حوله لأنه هدية أنيسة من

هدايا الرحمة الإلهية. وبهذا المنهج تتحقق للإنسان متعة مادية بالانتفاع بالطبيعة واستثمار خيراتها بالقصد والاعتدال، ومتعة روحية بمحبة خالق الطبيعة. بل إن معرفة قوانين الطبيعة لا ينفي عنها لمسة الصنعة المحكمة، ولا يجردها من الصفة الروحية بالانتساب إلى الخالق العظيم المتصف بصفات الإلهية. فمعرفة قوانين الطبيعة من خلال الأسباب والمسببات، يزيد من لذة الدهشة والإعجاب، لأن قانون السببية دليل النظام، والنظام دليل الإحكام، والإحكام دليل القصد والإرادة والعناية والتدبير. ولولا كمال الإرادة وتمام التدبير ما تكررت الظاهرة الطبيعة بتكرر سببها.[1] فدل هذا كله، بدليل العلم المادي القائم على ربط الأسباب الظاهرة بمسبباتها، على أن الطبيعة نقش وصنعة، مثل مصنع مصمم بدقة عالية من قبل مهندس بارع، ومثل كتاب وضعت حروفه في نظم محكم، تحمل به كل كلمة معنى معينا، وتأتلف هذه الكلمة مع غيرها لتفيد معنى أعلى وأسمى، وتنسجم جمله فيما بينها لتحصل من الكتاب معان منسجمة، مدبجة بعناية. فمثلما يدل المصنع على المهندس البارع، ويدل الكتاب على الكاتب الحكيم، فكذلك الكون كله يدل على الخالق العظيم.

وعلى هذا الأصل يبدو الصراع مع الطبيعة ومحاولة السيطرة عليها قبحا وشناعة، وظلما وجناية. إنما القصد التواصل مع الطبيعة برابط المودة والتقدير، والتعرف عليها معرفة استكشاف لأسرارها، وإجلال لخالقها. يقول الدكتور طه عبد الرحمن : " فإن الطريق الإسلامي في التعقيل الحداثي لا يصارع الطبيعة ولا يتسلط عليها، وإنما يخاطبها، بل يوادها ويراحمها، حتى تبوح له بأخبارها وأسرارها. وكلما زاد اطلاعا على أخبارها وأسرارها زاد رحمة بها وعطفا عليها، ولكنه لا يقدسها، وإنما يقدس من بث فيها هذه الأسرار سبحانه. فالطبيعة أم الإنسان، وليست أَمَةً له، فقد خرج من رحمها كما خرج من رحم أمه التي ولدته، والوالدة لا تكون أَمَة لولدها."[2]

فالذي ينبغي أن يكون بين الإنسان وبين الطبيعة هو الميثاق العام في فصلين اثنين، أولهما التواصل المادي بالمعرفة العلمية واكتشاف الأسرار المبثوثة في الطبيعة، والثاني التواصل الروحي مع

1 هنا مرة أخرى يظهر العناد والاستكبار عن الاعتراف بالحقيقة مخافة موافقة الدين. فعادة ما يتمسك هنا بقانون الصدفة، وإن تكرار الظاهرة الواحدة كلما حصلت أسبابها يبطل الصدفة، فكيف يقبل العقل تكرر الصدفة؟

2 " روح الحداثة "، ص 44 – 45 .

خالق الطبيعة من خلال آيات الجمال التي بثها في الطبيعة. فهذا الميثاق يشمل العوالم كلها المرئي منها وغير المرئي.

وظاهر غاية الظهور من القرآن الكريم، هذا القصد إلى التعلق بالطبيعة من جهة معرفتها والانتفاع بها، ومن جهة كونها معرضا للصنعة الإلهية. فالطبيعة كنز وثروة للمنفعة المادية، وفضاء للمتعة الروحية من خلال التأمل واستحضار لذة الالتفاتة، أي أن الخالق العظيم يقدم للإنسان هدايا نفيسة يعرضها أمامه في الكون الذي هو معرض صنعته، وآية حكمته وإحكامه. والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة جدا، بل هي أكثر عددا من آيات الشعائر التعبدية، لأن هذا الجهد العقلي للمعرفة بقوانين الطبيعة بقصد الانتفاع وبقصد معرفة صفات خالق الطبيعة، عبادة وطاعة لا تقل في أجرها عن الشعائر. يكفي أن نورد من ذلك قول الله تعالى :﴿ **وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ،أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ﴾(الذاريات:20-21) . وقوله عز وجل : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ، إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ،إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ** ﴾ (فاطر:27 -28). وقوله تعالى : ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾. (البقرة:164).

فلا يمكن أن يفهم من هذا بحال القصد إلى الغزو والسيطرة، لأن ذلك استكبار وغلو وظلم، إنما الغاية التعرف والانتفاع ثم شكر المنعم الخالق.

فالميثاق بين الإنسان والطبيعة ميثاق تقدير واحترام، شامل للمرئي من الطبيعة وغير المرئي، تعتبر فيه القيم الروحية مثل اعتبار القيم المادية في انسجام وائتلاف، وهذا لا يفي به إلا الدين المنزل من خالق الطبيعة، وهذا ما ينزع بنا إلى معالجة معضلة معاداة الدين في الفكر المعاصر.

مراجعة معضلة معاداة الدين

سبق أن الفكر الغربي المعاصر، قام على معاداة الدين، ومعناه أن التقدم العلمي والحضارة والتطور الإنساني بجميع وجوهه، لا يكون بالدين، لأن الدين يعارض العقل، والتقدم لا يقوم إلا بالعقل العلمي، ولأن الدين أيضا لا يهتم إلا بالغيب ولا تعلق له بالحياة. ولهذا قامت الحضارة الغربية على معاداة الدين، أو على فصله عن العلم والحياة. وهذه معضلة كبيرة أدخلت العالم كله في مشكلات كثيرة هو في غنى عنها، وخاصة العالم الإسلامي.

وأول مشكلة تبدو هنا هي اعتبار فصل الدين عن العلم وأنهما لا يلتقيان، قاعدة، وهي تفتقر إلى شروط القاعدة. فالقاعدة تكون حكما كليا تندرج فيه أحكام جزئية منسجمة. وهذا ليس حكما كليا لأن ما تحتها ليس منسجما. فليس كل ما هو دين في العالم المعاصر لا يلتقي مع العلم ويناقضه ويضاده، وأن كل تقدم علمي لا يكون إلا خارج الدين. ويكفي في إبطال ذلك الشريعة التي يدين بها أكثر من ربع العالم وهي الإسلام. فليس فيه ولو وصف واحد من هذه الأوصاف التي بنيت عليها القاعدة. فليس معاديا للعلم، ولا حصل تعارض فيه وخصام بين علماء الدين وعلماء الطبيعة، ولا هو خال من النظر العلمي التجريبي، بل عكس ذلك فيه وهو أن العلم طريق الإيمان والإيمان يقتضي العلم كما سيأتي.

فيثبت من هذا أن قاعدة معاداة الدين إنما هي تجربة خاصة فرضت على عموم العالم. أي أنها قضية محلية خاصة بالغرب في زمن خاص مع طائفة خاصة من رجال الكنيسية، لكنها اعتبرت عامة، فليس للعالم كله إلا خيار وحيد هو الذي اختاره الغرب حلا لمشكلته مع الكنيسة.

والمشكلة الثانية هنا هي الخلط الغريب بين كل ما يسمى دينا، فوضع كل ذلك في مقام واحد ومرتبة واحدة، وكأنها نسخة واحدة لا خلاف بينها. فيستوي الدين المجرد الذي يكتفي بطقوس فردية، والدين الذي لا يحتاج إلى طقوس وإنما يكفي فيه مجرد التأمل، ويستوي الدين الذي يعبد إلها واحدا والذي له آلهة متعددين، ويستوي فيه الذي يجعل الدين تجربة فردية، والذي يتعلق عنده الدين بالحياة كلها في صغيرها وكبيرها. ويستوي في ذلك دين ينتسب إليه الملايين والذي ينتسب إليه العدد المحدود جدا والذي لا يكاد يذكر.

ولبيان هذا الخلط الغريب يكفي أن نقف عند الأديان الثلاثة اليهودية والنصرانية والإسلام، وإن كانت تشترك في الإيمان بالله الواحد، فإن بينها فروقا كبيرة في صفة الإيمان. ففي اليهودية نجد أن الإلهية نزلت إلى مستوى الإنسان، فينسب لله ما ينسب للإنسان. ونجد في النصرانية أن الإنسان رفع إلى مقام الإلهية. في حين نجد في الإسلام أن الإيمان لا يتحقق إلا بتمحيض الكمال لله، وتنزيهه عن مشابهة كل ما سواه. وهذا واضح جدا لمن يقرأ القرآن الكريم في المحاورات العقلية لعقيدة التجسيم والتشبيه التي يوصف فيها الله بصفات البشر، ولعقيدة الشرك التي يمنح فيها البشر صفات الإلهية فيكون شريكا معه، وهذا إبطال لصفة الإلهية. ومن هنا يسقط وجه النقد الذي وجهه بعض الفلاسفة للدين بسبب خلطه بين الإلهية وبين الإنسان، فلا يمكن للإسلام أن يدخل بحال في هذا، فهو أبعد ما يكون عن هذا الوصف، بل هو من أكبر الظلم وهو الشرك.

ونزيد الأمر بيانا بالوقوف عند بعض خصائص الإسلام التي تبطل هذه القاعدة من أساسها. فإذا كان أهم ما بنيت عليه قاعدة معاداة الدين هو أن الدين حجر عترة في طريق التقدم العلمي، فإن هذا السبب لا أثر له في الفكر الإسلامي، ولم يرد له ذكر عند علماء المسلمين، لأن المسألة عندهم غير واردة أصلا، وليست محل خلاف أو مراجعة. والدليل التاريخي شاهد على ذلك. فلم يعرف في فترة من تاريخ المسلمين، ومنها عصور الازدهار العلمي، أن حصل خصام بين عالم من علماء الشريعة في التفسير مثلا أو الحديث أو العقيدة وبين غيره من أهل الطب مثلا أو الهندسة أو الفلك. بل كان الاتفاق على أن التمكن من قوانين الطبيعة هو الطريق إلى الانتفاع بها وهو مقصد من مقاصد الدين، بل أكثر من ذلك فعلوم الكون والطبيعة طريق إلى ترسيخ أصول الإيمان وتمكينها في القلوب بعد تقويتها بأدلة العقل. ولهذا نجد في علم الكلام الذي يهتم بترسيخ العقيدة أول ما يبدأ به المؤلفون هو الكلام على الدليل العقلي وأقسامه، ليبينوا أن العقل يؤيد ما ورد به النقل من قواعد الإيمان.

وبعد هذا يظهر أن إقحام هذه المشكلة في العالم الإسلامي على الأقل، ظلم كبير، وتخليط خطير، لأنه وضع للأمر في غير موضعه. لقد آن الأوان، لأهل الفكر في العالم الإسلامي أن يراجعوا هذه المعضلة، ويطردوا هذا الوهم، فإن الإسلام لا يقيد العلم، ولا يختص بالآخرة دون الدنيا. وكما

يقول مراد هوفمان : " إن إلها خاصا سريا ليس بإله."[1] ففي الفكر الإسلامي الذي يهمنا هنا ليس لمعاداة الدين معنى ولا مسوغ، لأنه لا خوف على العلم ولا على علوم الكون والطبيعة، ولا مجال لتسلط رجال الدين على العلم، لأنه لا تعارض أصلا بين الدين والدنيا، لأن الدين هنا هو ثنائية موحدة واجتماع منسجم. ولهذا لا معنى أيضا لتوهم الصراع بين الدين والدنيا.

مراجعة معضلة الصراع بين الدنيا والدين والعلم والإيمان والعقل والوحي

هذه المعضلة متفرعة عن التي قبلها، فهي إذن منقوضة بنقضها، لكن مع ذلك نزيد الأمر بيانا، لأن صلة الدين بالعلم من القضايا الكبرى في الفلسفة عبر العصور، وزاد أثرها في العصر الحاضر لما وضعت أصلا من أصول التقدم والحداثة الغربية ثم فرضت على العالم كله. ولقد وجهت هذه المسألة الفكر الإنساني المعاصر. وعلى الرغم من هذا المكانة التي احتلتها هذه القضية في الفكر الفلسفي عبر العصور، وشدة الخلاف فيها، فإنها في الفكر الإسلامي، واضحة المعالم ظاهرة الملامح، يكفي النظر في القرآن الكريم لتبين ذلك. ففيه التلاقح بين الدنيا والدين.

وخلاصة الأمر أن هذا الصراع بين العلم والدين متوهم ولا حقيقة له من منظور الفكر الإسلامي على الأقل.

وأحسن من بحث هذه المسألة الأستاذ علي عزت بيغوفتش في كتابه "الإسلام بين الشرق والغرب" والدكتور طه عبد الرحمن في كتابه " روح الدين: من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية". وكان قصد كل واحد منهما إبطال دعوى التعارض ببين الدين والعلم في الفكر الإسلامي خاصة. وكلاهما حشد الأدلة المختلفة على ذلك. ويظهر هذا الوصف من خلال عنوان الكتابين. أما كتاب علي عزت بيغوفيتش فيشير من عنوانه "الإسلام بين الشرق والغرب" إلى ما حصل من الخلاف الشديد في أمر العلم والدين، فكان الفكر البشري يتأرجح بين مادية مفرطة تعتمد العلم، وبين مثالية تنزع نحو التجريد، وجاء الإسلام وسطا بين ذلك فانسجم فيه الطرفان. وأما كتاب طه عبد الرحمن

1 " رحلة إلى مكة "، ص 55. (1421هـ- مكتبة العبيكان).

" روح الدين: من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية" فيشير إلى ما سببت هذه المسألة من الضيق والحرج للفكر الإنساني بسبب دعاة الحداثة الذين أقاموا التقدم على العقل المجرد والعلم في عداء للدين وما يتعلق به من القيم، فجاء الإسلام ليوسع من هذا الضيق ويرفع هذا الحرج، فيحفظ للعقل والعلم مقامه ثم يفتح آفاقا واسعة للقيم وحاجات الروح. ويظهر كذلك هذا الوصف الجامع بين الأمرين في عناوين الفصول والمباحث التي عقدها كل واحد منهما. فنقرأ عند علي عزت بيغوفيتش في القسم الأول : " إزدواجية العالم الحي"و " التعليم والتأمل " و " النية والعمل " وسمى القسم الثاني : " الإسلام : وحدة ثنائية القطب" وتحته مثلا :" دين يتجه نحو الطبيعة" و " الإسلام والحياة". وكلها تشير إلى هذه الخاصية في الإسلام وهي الجمع بين الدين والدنيا. ونقرأ عند طه عبد الرحمن في عنوان الباب الأول : " ازدواج الوجود الإنساني..." والفصل الأول منه بعنوان " وجود الإنسان في عالمين اثنين لا في عالم واحد" و" مسلمة تعدية الإنسان " و " تشكل حياة الإنسان بازدواج الغيبي بالمرئي". فظاهر من هذا كله قصد الرجلين إلى نقد معضلة القول بالتعارض بين الدين والعلم وما يتعلق بهما من العقل والوحي، والعالم الغيبي والعالم المرئي، ورجال الدين ورجال العلم، وغيرها من الثنائيات التي فرض عليها قسرا التنافر والتعارض، وهو ما تجلى بوضوح في فقدان معنى الحياة وضياع حقيقة الإنسان.

يقول الأستاذ علي عزت بيغوفيتش: " إن إخفاق الحضارة البين في سعيها لحل مشكلة السعادة الإنسانية بواسطة العلم والقوة والثروة – إذا فهم وتم الاعتراف به – فسوف يكون أقوى أثر نفسي على الجنس البشري. بهذا نبدأ بمراجعة بعض من أفكارنا الأساسية التي هي موضع قبول عام حتى الآن. وأول فكرة يجب مراجعتها هي فكرة العلم الخاطئة عن الإنسان. فمادامت الحضارة عاجزة عن حل مشكلة السعادة الإنسانية، فلابد أن تكون فكرة الدين عن أصل الإنسان هي الفكرة الصحيحة وفكرة العلم هي الخاطئة، وليس هناك اختيار ثالث."[1] ومعنى ذلك أن سبب توهم التعارض القصور في تصور الدين، والغلو في تأليه العلم. والحال أن حقيقة الحياة والإنسان هي هذا المزيج المنسجم بين

1 " الإسلام بين الشرق والغرب "، ص 130.

الجسم والروح، والدنيا والدين، والعاجلة والآخرة. " فلا أعمق من حياة تمتد من عاجلها إلى آجلها، ولا أعمق من إنسان يتصل ظاهره بباطنه."[1]

ومن الإشارات القوية عند الأستاذ على عزت بيغوفتش أن الإسلام ليس دينا، وإنما هو حياة تنسجم فيها الماديات بالمعنويات. ووجه ذلك إخراج الفكر الإسلامي من هذه المعضلة المتوهمة، فإذا كان الفكر الغربي لا يتصور دينا ينظم الحياة ويشيد بالعقل ويرفع العلم، إنما الدين الاعتقادات الباطنة والطقوس الغيبية، فإن الإسلام ليس كذلك، فليس دينا بهذا المعنى، فيكون إقحامه في معضلة التعارض بيت العلم والدين ظلما وزورا.

فيتأكد إذاً وجوب مراجعة هذه المسألة، فإن التصالح بين العلم والدين هو السبيل إلى إعادة التوازن لحياة الإنسان، فالعقل والعلم يمنح سلامة الظاهر، والدين يمنح المعنى للحياة. وهذه قيمة مضافة في الفكر الإسلامي، يحتاجها الفكر الإنساني المعاصر. يقول الدكتور طه عبد الرحمن " إن الدين عبارة عن طريق العمل يصل المرئي بالغيبي وصلا يمكن الإنسان من اقتحام عقبات الحياة على الوجه الأفضل."[2]

إن الخروج من هذا الضيق يقوم على اتساع النظر في فهم حقيقة الحياة والإنسان، وذلك باعتبار الانسجام بين حاجات الجسد وحاجات الروح. يقول الأستاذ علي عزت بيغوفيتش:" إن الحياة الإنسانية تكتمل فقط عندما تشتمل عل كل من الرغبات الحسية والأشواق الروحية للكائن البشري. وترجع كل الإخفاقات الإنسانية لإنكار الدين الاحتياجات البيولوجية للإنسان أو لإنكار المذهب المادي لتطلعات الإنسان الروحية."[3]

وعن هذه الخاصية في الإسلام يقول:" من أجل مستقبل الإنسان ونشاطه العلمي، يُعنى الإسلام بالدعوة إلى خلق إنسان متسق مع روحه وبدنه، ومجتمع تحافظ قوانينه ومؤسساته الاجتماعية

1 سؤال الأخلاق "، ص 25

2 " سؤال العمل "، ص 230 .

3 " الإسلام بين الشرق والغرب "، ص 28..

والاقتصادية على هذا الاتساق ولا تنتهكه. إن الإسلام هو – وينبغي أن يظل كذلك – البحث الدائم عبر التاريخ عن حالة التوازن الجواني والبراني (أي الباطن والظاهر). هذا هو الإسلام اليوم وهو واجبه المقدر له في المستقبل".[1] ولبيان هذه الثنائية المتكاملة في الإسلام يذكر الدكتور طه عبد الرحمن من خصائص الدين ما سماه " تكامل الاتساع " ومنه الجمع بين المتماثلات في الرتبة مثل نسبة العبادة إلى العالم الغيبي كنسبة الشغل إلى العالم المرئي. ومنه الجمع بين المختلفات في الرتبة مثل الفرد، والجماعة، والقوم، والقبيلة، والشعب، والأمة، والعالم. ومنه الجمع بين المتقابلات مثل عالم الغيب وعالم الشهادة، والجسد والروح، والعقل والقلب. ومنه الجمع بين المكونات مثل " الإنسان " فهو يشمل الجوانب الخَلقية والخُلقية.[2] وهذا رجوع بالإنسان إلى أصل فطرته، لأن الإنسان كائن متعد غير قاصر، حاجاته تكون بالميزان بين وضعه المادي وجوهره الباطني وبهذا يتحقق مقصد المعنى، ومقصد السعادة، ومقصد الكمال، ومقصد الخلود.[3]

لقد تاهت البشرية طويلا في الصراع بين هذه الثنائيات، وآن الأوان أن تتخلص من هذا الصراع المتوهم، فتحيا في دنياها بدينها، وتفيد من العلم وترتقي بالإيمان.

فهذه أم القضايا التي ينبغي أن تتوجه إليها المراجعة على جهة الاستعجال، إنها إعادة الاعتبار لحقيقة الإنسان والحياة، فالإنسان جسم وروح، وعقل وقلب، والحياة انسجام بين حاجات الجسد والروح. وإذا تحقق هذا الائتلاف قامت الحياة على التواضع في العلم، وربط العقل بالعمل والسلوك، واعتبار القيم، فيلتقي العلم والإيمان، والعقل والقلب، والدنيا والآخرة، والحال والمآل.

خاتمة:

لقد أحس الناس في زمن كورونا بالحاجة إلى العلاج المادي الصحي، وإلى الدعم الروحي والمعنوي. ففي الوقت الذي ينهمك فيه أهل الطب في تقديم العلاج للمصابين، كنا نرى مشاهد

1 " الإسلام بين الشرق والغرب "، ص 36 .
2 ينظر " روح الدين "، ص 77 – 79 . (ط2 . 2012. المركز الثقافي العربي).
3 المصدر السابق، ص 85 – 88.

التواصل عن بعد في الأحياء السكنية، من خلال شرف البيوت، والإنشاد الجماعي للنشيد الوطني. وكنا نرى أهل الاختصاص في الطب النفسي يتحدثون عن بعض ما يصاحب الحجر الصحي وملازمة البيوت من القلق والاضطراب النفسي. كل ذلك يدل على الحاجة إلى رفع المعنويات. وهذا ما يؤكد ما سبق من ضرورة مراجعة الفكر الأحادي، ليقوم الإنسان على سلامة جسده واستقرار نفسه. فيعلم من هذا كله أن إنكار القيم المعنوية، تضييق على الإنسان. ومعلوم في الفكر الإسلامي أن الإيمان دواء ناجع للنفس وتهذيب للروح، فانظر كم خسر المسلمون في هذا الزمان لما ضمر الإيمان في قلوبهم، بل احتقره بعضهم.

ونختم هذا بتنزيله على مجال مهم من مجالات الحياة والعلم وهو مجال الطب، ليظهر كيف تأتلف هذه الثنائيات، وهذا في قول الأستاذ علي عزت بيغوفيتش :" لو تأملنا في بعض الظواهر الهامة التي صاحبت تطور علم الطب لأدركنا طبيعته الثنائية. فالطب – سواء في الماضي أو في الحاضر – لم يكن أبدا علما بحتا[1]. لقد جمع الحكمة والأخلاق والنظام الروحي في وقت واحد. وقد اكتشفت حديثا أمراض لم يعرف لها أسباب عضوية محددة، ونسبت هذه الاضطرابات التي يعاني منها المريض إلى حياته النفسية. ومن هنا نشأ فرع حديث في الطب اختص بدراسة التأثير المتبادل بين الجسم والنفس. ...ولهذا السبب لا يمكن اختزال العلاج الصحيح إلى مجرد علاج "طبيعكميائي " أو مجرد جراحة. ويتعاظم اليوم وعي الطب المعاصر بقصور الطب الآلي، حيث لا يوجد في الواقع مرض، وإنما يوجد شخص مريض. والطب ليس معنيا بالظواهر ولكنه معني بالناس، أو بتعبير أدق بالأشخاص. فالسبب الواحد للمرض لا يؤدي بالضرورة إلى النتيجة نفسها(عند جميع الأشخاص). فالمرض الواحد وكذا علاجه لا يمكن أن يتطابقا عند شخصين مختلفين...وسيبقى الطب – على خلاف الكيمياء والفلك – يتردد بين قطبين، لأن الكيمياء والفلك موضوعها المادة، أما موضوع الطب فهو الحياة أو بمعنى أدق الحياة الإنسانية. إن الطب، شأنه في ذلك شأن أي شيء، معني بالإنسان مباشرة، عليه أن يحقق التكامل بين العلم والدين."[2]

1 يقصد الأستاذ علي عزت بيغوفيتش هنا بالعلم، العلم المادي المحض الذي لا يعترف بالقوى الروحية والمعنوية في الإنسان.

2 " الإسلام بين الشرق والغرب"، ص 123 – 124 .

فهذه هي القضية الكبرى التي يقود إليها التفكير من خلال وباء كورونا وما صاحبه من الوقائع والأحوال. وعن هذه القضية تتفرع أمور كثيرة انتبه إليها كثير من أهل الفكر وهم يستشرفون المستقبل. إن زمن كورونا درس بليغ في ضرورة إعادة الاعتبار للقيم الإنسانية والمعاني الروحية. وأهم هذه القيم:

- تقوية الانتماء إلى الوطن، وأساس ذلك تكريم المواطن، والسعي لتوفير حاجاته، **وإذا تم تكريم الإنسان في سائر الأوطان فذلك تكريمه في العالم حيث كان.**
- تقوية التضامن وترسيخ ثقافة الشدة وتدبير الأزمات والتصرف زمن المحنة. وتدبير الشدة إنما يكون في زمن الرخاء.
- إعادة الاعتبار لمنهج الأولويات وتقديم الضروريات على الكماليات. ولقد تأكد أن الصحة والتعليم والاقتصاد أولويات مؤكدة، فكل نفقة فيها ومن أجلها، ربح وتنمية ووقاية من المفاسد، وتخفيف من آثار الأزمات.
- التربية المتكاملة القائمة على حفظ البدن بقواعد الصحة والوقاية والنظافة، وحفظ العقل والفكر بالعلوم والمعارف، وحفظ القلب وتزكية الروح بالإيمان.
- إعادة الاعتبار لقواعد الحياة ومنها: القصد والاعتدال في كل شيء واتقاء الاسراف والتبذير، والتزام قواعد النظافة في البدن والفضاء والبيئة.

وأختم هذا البحث بكلام جامع للأستاذ علي عزت بيغوفيتش فيه بيان مكانة الإيمان في استقرار حياة الإنسان، فيبدأ بالإيمان بالقدر ليبين أنه – على خلاف ما يتوهم - ليس عجزا وانكسارا، وإنما هو قوة على التحمل، وباعث على التفكر والتدبر من أجل حسن التصرف، وتحمل التكليف، ثم يذكر فائدة الإيمان عامة فيقول : " الاعتراف بالقدر استجابة مثيرة للقضية الإنسانية الكبيرة التي تنطوي في جوهرها على المعاناة التي لا مرد لها. إنه اعتراف بالحياة على ما هي عليه، وقرار واع بالتحمل والصمود والتجمل بالصبر...لأن التسليم لله هو ضوء يانع يخترق التشاؤم ويتجاوزه. كنتيجة لاعتراف الإنسان بعجزه وشعوره بالخطر وعدم الأمن يجد أن التسليم لله في حد ذاته قوة جديدة

وطمأنينة جديدة. إن الإيمان بالله والإيمان بعنايته يمنحنا الشعور بالأمن الذي لا يمكن تعويضه بأي شيء آخر. ولا يعني التسليم لله سلبية في موقف الإنسان كما يظن كثير من الناس خاطئين. في الحقيقة كل السلالات البطولية كانوا من المؤمنين بالقدر. إن طاعة الله تستبعد طاعة البشر والخضوع لهم. إنها صلة جديدة بين الإنسان وبين الله ثم بين الإنسان والإنسان...فلكي ندرك حقيقة وضعنا في هذا العالم يعني أن نستسلم لله، وأن نتنفس السلام، وألا يحملنا الوهم على أن نبدد جهودنا في الإحاطة بكل شيء والتغلب عليه. علينا أن نتقبل المكان والزمان اللذين أحاطا بميلادنا، فالزمان والمكان قدر الله وإرادته. إن التسليم لله هو الطريقة الإنسانية الوحيدة للخروج من ظروف الحياة المأساوية التي لا حل لها ولا معنى. إنه طريق للخروج بدون تمرد ولا قنوط ولا عدمية ولا انتحار. إنه شعور بطولي لا شعور بطل، بل شعور إنسان عادي قام بأداء واجبه وتقبل قدره".[1]

1 " الإسلام بين الشرق والغرب"، ص 395 – 396 .

الكون العابد شريك مكافئ للإنسان في الحياة

الأستاذ الدكتور سعيد شبار[1]

مقدمة:

مما تداوله الكثيرون تزامنا مع لزوم الناس في العالم لبيوتهم، استجابة للحجر الصحي وإعلان حالات الطوارئ؛ أنهم فسحوا بذلك المجال للطبيعة والبيئة أن تأخذا حقهما من النفس والاستراحة، وأن تنعما بنظافة استثنائية في الماء والهواء والتراب؛ وأن تنعم بذلك أيضا المخلوقات والكائنات الأخرى، حية و"جامدة". والتي كانت عرضة لعدوان الإنسان السافر عليها، تلبية لأطماعه واستجابة لجشعه في الاغتناء والتملك، حيث لاحظ المتتبعون أن نسبة التلوث قد تراجعت كثيرا، وأن الصفاء والنقاء أصبح لائحا على صفحة المياه وفي الأجواء، وأن مخلوقات بحرية وبرية وجوية، كانت محتجبة خوفا من التلوث أو من البطش، بدأت بالظهور والبروز للاستمتاع بجمال الحياة ولو قليلا .

والواقع أن ما يحدث اليوم هو فرصة لمراجعات كثيرة، منها استعادة الإنسان لإنسانيته، وضرورة استعادته لنظرته الإيجابية إلى الكون والمخلوقات، باعتبارها شريكا حقيقيا مكافئا له في الحياة والوجود، وفي الاستجابة لأمر الله خالقها تعبدا طوعيا، كما يستجيب هو لله خالقه تعبدا كدحيا.

إن آية التكليف المتجلية في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**﴾ [الأحزاب، 72]، تقرر حمل الإنسان للأمانة بعد أن أشفقت السماوات والأرض والجبال من حملها؛ وتطرح أكثر من سؤال بخصوص هذا التكليف الخطير، الذي ناءت بحمله تلك العوالم الكونية الضخمة، وتحمله هذا الكائن على ما به من وهن وضعف. فما هي هذه الأمانة؟ وما سر إعراض وإشفاق السماوات والأرض

1 - أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب جامعة المولى سليمان، ورئيس المجلس العلمي المحلي ببني ملال.

والجبال عن حملها، واختيارها الهداية الطوعية بدل الكدحية؟ وما معنى إباءها وإشفاقها في ذلك؟ وهل ذلك حقيقة أم مجاز؟

يذهب أغلب المفسرين بهذا الصدد الى أن الآية في تقريرها عرض الأمانة على غير العاقل، إنما ذلك مجرد مجاز وضرب مثل على ثِقلها والقوة اللازمة في حملها، وهذا كقوله تعالى: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الحشر، 21]". وكما تقول العرب: عرضت الحمل على البعير فأباه، والمراد: قايست قوته بثقل الحمل فرأيت أنها تقصر عنه .

وأما الأمانة ذاتها فهناك مُختَصِر في بيانها، مثلما ذكر الإمام الرازي أنها: "التكليف"، وهناك مُتوسط مثلما ذكر الطبري أنها: "الإيمان والفرائض التي افترضها الله على عباده"، وذكر القرطبي أنها: "تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال وهو قول الجمهور.."

وبخصوص إباء السماوات والأرض حمل تلك الأمانة، نجد للإمام الرازي تفسيرا جميلا في قوله تعالى: (فأبين أن يحملنها) حيث يذهب إلى أنه "لم يكن إباؤهن كإباء إبليس في قوله تعالى: ﴿**إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ**﴾ [الحجر، 31]، من وجهين: أحدهما أن السجود هناك كان فرضا، وههنا الأمانة كانت عرضا، وثانيهما أن الإباء كان هناك استكبارا، وههنا استصغارا، استصغرن أنفسن بدليل قوله (وأشفقن منها) .

وإن مما يوسع إدراك ووعي الإنسان بمعنى التكليف، استحضارُه للكائنات حوله باعتبارها مكلفة كذلك؛ وإن اختلفت طبيعة التكليف بينه وبينها، فإن كان تكليفه سعيا وكدحا وجِدا واجتهادا، لقوله تعالى: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ**﴾ [النجم، 39-40] وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ**﴾ [الانشقاق، آية 6]؛ فإن تكليفها تكليف طوعي، وهدايتها هداية طوعية، لقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ [فصلت، آية 11]، فالإنسان إذن مُشْتَرِكٌ في العبادة مع الكون والكائنات، تسبيحا وسجودا وخشية؛ وذلك ما تقرره آيات كثيرات نذكر منها قوله تعالى:

﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ، وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[الإسراء، آية 44].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ، وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ)، (وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج، آية 18].

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل، آية 49]

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور، آية 41]

﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة، آية 74].

ذكر الرازي في قوله تعالى: ﴿ (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت، آية 11] أن "المقصود من هذا القول إظهار كمال القدرة، أي: ائتيا شئتما أم أبيتما (...) طائعين أو مكرهين" وقوله (أتينا طائعين) "بيان لامتثالها التام لأمره ".

وقيل إن عبادة الكائنات إنما هو ذل وخضوع، وقيل سجودها وتسبيحها حقيقي يليق بها، ولذلك قال تعالى: (**ولكن لا تفقهون تسبيحهم**)، وقد ثبت أن جميع الكائنات تصدر أصواتا ولكننا لا نسمعها ولا نعلمها؛ فقد قيل في شأن داود عليه السلام: و﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا، يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ، وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ**﴾) [سبأ، 10]. ومعنى أوّبي: سبحي معه عند معظم المفسرين. وقيل في شأن سليمان: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ، وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ**

فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ، لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ، فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النحل: 17-22].

فالله تعالى أسمع سليمان صوت النملة وهي تُحَذِّرُ النمل، مما استوجب منه شكر هذه النعمة؛ كما أن حديثه مع الهدهد كان حول قضية تعبدية خطيرة، وهي إطلاع الهدهد له على ما كان عليه أهل سبأ، في عبادتهم للشمس من دون الله، مما استوجب تدخل سليمان عليه السلام .

إن التعامل مع الكون باعتباره شريكا في التكليف والعبادة، يستوجب الدخول معه في علاقة سلمية لا عدائية ؛ ويعزز مرة أخرى ما ذكرناه من ضرورة نسج علاقة صداقة وتفاعل إيجابي معه. على خلاف تيارات النزوع المادي الجشع، نحو الاستغلال المفرط لموارد الطبيعة، والضرر الذي يسببه لمخلوقاتها؛ حينما تراها مصدرا للأرباح والإشباع الاستهلاكي، والتفوق الصناعي والإنتاجي؛ وليس مجالا للاستخلاف والإعمار، والارتفاق الحسن بها وبكائناتها .

وتذكر لنا كتب الحديث والسيرة أثارا رائعة في تفاعل النبي صلى الله عليه وسلم مع الجمادات، بل ومخاطبته لها مخاطبة الأحياء، فعن جابر بن عبد الله: (كَانَ الْمَسْجِدُ مَسْقُوفًا عَلَى جُذُوعٍ مِنْ نَخْلٍ، فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَطَبَ يَقُومُ إِلَى جِذْعٍ مِنْهَا، فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ الْمِنْبَرُ وَكَانَ عَلَيْهِ، فَسَمِعْنَا لِذَلِكَ الْجِذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ الْعِشَارِ، حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا فَسَكَنَتْ) (صحيح البخاري).

وقال النبي سلى الله عليه وسلم في جبل أُحد وقد كانت هزيمة المسلمين عليه بعد نصرهم ببدر: (هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ) (صحيح البخاري). وتذكر رواية أخرى عن أنس بن مالك أنه قال: (صَعِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أُحُدٍ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، فَرَجَفَ بِهِمْ، فَضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ، قَالَ: «اثْبُتْ أُحُدُ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ، أَوْ صِدِّيقٌ، أَوْ شَهِيدَانِ) (صحيح البخاري) .

إن المنظور الاستخلافي في الكون، والتسخيري للكائنات، ومشاركتها في العبودية لله؛ يوجب على الإنسان تدينا، الارتفاق بها والإحسان الكبير في التعامل معها، والتدبير الأمثل في استخدامها،

ونسج علاقة صداقة وبر وتعاون معها. وسنن الدين الشرعية متماهية مع سنن الكون القدرية، وسنن الاجتماع والعمران والحضارة تَبَعٌ لها في ذلك. كما أن نظام اشتغال هذه السنن واحد مطرد في الجميع، في آيات النص وفي آيات الأنفس وفي آيات الآفاق؛ دال على وحدة الخالق تعالى في خلقه، وعلى وحدة المخلوقات رغم تنوعها وتعددها، كما أن تحرير الإنسان بالتوحيد من العبودية للمخلوقات التي كان يعتقد بقهرها له، لا يعني أنه هو القاهر لها، بل شريك لها في مهام الاستخلاف والعمران .

ولهذا نجد الدين يرفض بشكل جازم، كل مظاهر الإسراف والتبذير والإخلال بالتوازن الطبيعي في الكون ومع الكائنات. نقرأ في ذلك مثلا قوله تعالى: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾ [الأعراف،31]؛ ﴿**إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا**﴾ [الإسراء،27]. وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بالصحابي سعد وهو يتوضأ فقال: («مَا هَذَا السَّرَفُ» فَقَالَ: أَفِي الْوُضُوءِ إِسْرَافٌ، قَالَ: «نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهَرٍ جَارٍ») (سنن ابن ماجة) .

يلحق بهذا أيضا أن الإسلام دين الجمال كما هو دين الجلال، فإذا كانت عظمة الخلق والنظام في المخلوقات دالة على جلال الخالق، فإن التناسق والانسجام والتنوع والاختلاف بين هذه المخلوقات دال على الجمال الملازم لذلك الجلال، وفي الحديث: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ) (صحيح مسلم).

بل ويحرص الدين على جعل النظافة من الايمان، وعلى جعل إماطة الأذى عن الطريق من الايمان كذلك، دفعا لاستصغاره أو توهم حقارته وتفاهته؛ ففي الحديث «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ -أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ -شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ» (صحيح مسلم). فهو عمل من الأعمال، وليس في العمل تافه أو حقير مادام يترتب عليه ثواب أو عقاب؛ ونحن نقرأ قوله تعالى:﴿**مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ [الزلزلة، 6 ـ 7]. وذلك يعني في سياقنا: وإن يكن العمل بمقدار الذرة فهو معتبر دينا. فكيف

إذا كان بحجم تنظيف المحيط والبيئة، والإسهام في تطهير الماء والهواء، اللذين يحيا بهما الكون وتحيا بهما الكائنات.

يحرص الدين كذلك على الاحسان إلى الكائنات والمخلوقات والرفق بها إلى درجة جعلها "أمما" على اختلاف أجناسها وأنواعها، مثل "أمة" الناس: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**﴾ (سورة الانعام 38). وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يا عائشة، إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف، وما لا يعطى على ما سواه»، (رواه مسلم). ولكثرة وصيته عليه السلام بالعناية والرفق بالمخلوقات الأخرى، سأله الصحابة مرة فقالوا: يا رسول الله: وإن لنا في البهائم أجرا، قال: «في كل كبد رطبة أجر»، (متفق عليه).

فهل يا ترى يؤثر تخلف المسلمين عن تعاليم دينهم على جمال وجلال هذا الدين؟

أبدا.. فجمال الدين وجلاله من المطلق الذي لا يتأثر بالزمان ولا بالمكان؛ وإنما يتأثر واقع المسلمين وواقع البشرية، حينما تتنكب عن سُبل الهداية الحقة، وتتبع سبل الأهواء والإغواء والطغيان. ومنظومة القيم في الدين، هي للناس جميعا هي من أجل تحصيل سعادتهم الدنيوية والأخروية، ومن أجل رفع العنت والشقاء عنيهم، فإن أهملها أناس حملها آخرون، وتلك سنة التداول التي ينبغي أن ينتبه إليها المسلمون قبل غيرهم .

"كوفيد 19" دروس وعبر إثمار الزمن" أنموذجا

الأستاذة الدكتورة أمينة السعدي[1]

مقدمة:

تروم هذه الورقة، في عنوانها العام، التأكيد على أن الجوائح والأوبئة والكوارث الطبيعية، وغير ذلك مما يبتلى به البشر في حياتهم ويصيب الناس في معاشهم، ومنه جائحة "كورونا"، التي ألمت بعالمنا في مستهل السنة الجارية، ليست إلا سنة من سنن الله الثابتة في خلقه، والتي اقتضتها حكمته في الاجتماع البشري. وعليه وجب، ليس التصدي لها بدفعها ومدافعتها فحسب، بل وفي خضم ذلك، استخلاص الدروس والعبر منها، وما أكثرها، بعد حسن استيعاب لأبعادها الحكمية والقصدية والقدرية، ثم استثمار الممكن مما تدلنا عليه من فوائد ومزايا لطالما غابت عن أذهاننا ومن ثم غيبت في سلوكنا ومعاملاتنا مع كل ما يحيط بنا.

أما العنوان الخاص في هذه الورقة، فيرتكز على مبدإ له من الأهمية ما جعله يتسم بالمركزية في حياة الناس عموما وفي حياة المسلم خصوصا. والمقصود هنا هو "الزمن" وما يقتضي من حسن إثماره، إن في يومياتنا في زمن الجائحة أو بعده على وجه الدوام. خاصة وأن ما يتيحه "الحجر الصحي" من متسع في الوقت، بعد التخلص من كثير من الالتزامات والمسؤوليات خارج المسكن، يفسح المجال، لابد، لتأملات تسمح بمعاودة النظر في مسارات الحياة، بكل دروبها واتجاهاتها، والاعتبار بما مر من زمن الأعمار ولم يستثمر على النحو الذي يرضي الله تعالى ويحقق القصد من خلق الإنسان، واستخلافه في الأرض.

ولا يخفى على الفهيم ما لـ"الزمن" من أهمية بليغة، في تحقيق الخير للفرد أولا وللبشرية تبعا، في حال حسن إدارته وإثماره في ما من شأنه أن يجلب المصالح لهم ويدفع المفاسد عنهم؛ المادية منها

1 أستاذة التعليم العالي، جامعة القاضي عياض بمراكش.

والمعنوية. ثم ترتيبا على ذلك ما له من خطورة كبيرة، في حال إهداره وعدم الاكتراث بأهميته. فـ"الزمن" إذن وحسن توظيفه وإثماره، من أهم ما يمكن الاعتبار به عند الأزمات والكوارث وظهور الأوبئة والجوائح ومن ذلك جائحة "كورونا"؛ التي نبهتنا إلى أهمية الوقت وما له من أثر، سلبا أو إيجابا، على مسار الإنسان وسعيه في هذه الحياة ثم مصيره وما يؤول إليه أمره في الأخرى.

ولعل العاقل في زمن "كوفيد 19" هو من استشعر ما ينبه إليه الحال من حجم "الخسارة" و"فظاعة" ما أهدر من الأوقات والأزمان في أمور لا تعود عليه ولا على أمته ولا على البشرية بالمصلحة والنفع. بل إن الأعقل من اعتبر، فهب إلى تدارك ما يمكن من ذلك، وإن كان في علمه أن الذي مضى لا يعود ولا يعوض... فالأزمات والكوارث والابتلاءات تنبئ البصير، لا غيره، بقيمة "الزمن" بداعي ما تدلنا عليه من احتمال دنو الأجل و قرب الرحيل مما يجعل ما قدمت أيدينا وفيم أنفقت أعمارنا محل السؤال والمساءلة.

وبناء على هذا يكون مضمون هذه الورقة قائمًا على محورين أساسين يتكاملان في معالجة جانب دقيق مما يمكن الاعتبار به في زمن جائحة "كورونا".

المحور الأول في: "الابتلاء" سنة كونية ومقصد شرعي (جائحة "كورونا" أنموذجا).

وينبني هذا المحور على عنصرين أولهما: "الابتلاء" في القرآن الكريم، نصوص نماذج. وثانيهما: "الابتلاء" قصد شرعي وحكمة إلهية (جائحة "كورونا" أنموذجا).

وأما المحور الثاني فـ: مبدأ إثمار "الزمن" في الإسلام؛ الشروط والآفات ("الزمن" خلال جائحة كورونا أنموذجا).

ويتضمن هذا المحور عنصرين اثنين يبينانه ويحددان القصد منه؛ أما الأول ففي "الزمن" ومركزيته في الإسلام. وأما الثاني ففي أهم شروط وأخطر آفات إثماره.

المحور الأول: "الابتلاء" في القرآن الكريم سنة كونية ومقصد شرعي

أولا: "الابتلاء" في القرآن الكريم سنة كونية (نصوص نماذج)

"الابتلاء" لغة[1] من أبلى بمعنى أخبر. يقال ابتلاه الله بمعنى اختبره. والاسم البلوى والبلوة والبَليّة والبِليَة... والبلاء جمعه البلايا وهو الاختبار، ويكون بالخير والشر.

وقد جاء "الابتلاء" بهذا المعنى في سياقات كثيرة في القرآن الكريم، يفهم منها جميعها، وكيفما كان نوع "الابتلاء" الوارد فيها، أنه سنة الله في العباد وعرفه المعهود في الاجتماع البشري. ولعل من أقوى النصوص دلالة على هذا المعنى قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[2]

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور في معرض تفسيره هذه الآية الكريمة: إن قوله تعالى "(وأولئك هم المهتدون) بيان لفضيلة صفتهم إذ اهتدوا لما هو حق كل عبد عارف فلم تزعجهم المصائب ولم تكن لهم حاجبا عن التحقق في مقام الصبر، لعلمهم أن الحياة لا تخلو من الأكدار"[3]. ثم قال: "والقول الفصل أن جزاء الأعمال يظهر في الآخرة، وأما مصائب الدنيا فمسببة عن أسباب دنيوية تعرض لعروض سببها"[4].

وقريب من هذا قوله جل وعلا في سورة آل عمران: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ

1 راجع لسان العرب لابن منظور مادة "بلا"، ج 14 ص:83- 84، ط 1 دار صادر 1410هـ /1990م.

2 البقرة، الآية 155-157

3 التحرير والتنوير للعلامة محمد الطاهر بن عاشور الدار التونسية للنشر، ج 2 ص 58.

4 المصدر السابق.

﴿ٱلْأُمُورِ﴾[1]. وما جاء في سورة محمد، صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾[2].

إن المتأمل في هذه النصوص والتي على نحوها وهي كثيرة، إنْ في القرآن الكريم أو في البيان النبوي الشريف، يستخلص لا محالة أنَّ كل ابتلاء يصيب البشر، كان أزمة أو جائحة أو كارثة، وكل ما يعرض للإنسان في حياته ومعاشه، من كدر أو بأس، يعد سنة من سنن الله في الاجتماع البشري، بل إن ذلك من المقاصد الأصيلة التي نص عليها الخطاب الشرعي ومن أهم الغايات التي خلق من أجلها الإنسان ثم استخلف في الأرض استخلافا.

ونقف في التالي من عناصر هذه الورقة عند مقصدية الابتلاء في نماذج من نصوص القرآن الكريم، ومدى استيعابه لبعض من وجوه الحكم والمصالح التي قصد الشارع تحقيقها من مختلف صنوف "الابتلاء" التي تلحق بالإنسان في حياته ومعاشه، وإن كانت النصوص السابقة كل على حدى ناطقة بـ"الصبر" قصدا أساسا للشارع من ابتلاء البشر واختبارهم. و"الصبر، لا شك، من القيم الكونية التي أولاها جل وعلا اهتماما بالغا في مواضع كثيرة ومساقات متنوعة، في القرآن الكريم، ليس هذا محل عدها ولا مجال حصرها.

ثانيا: "الابتلاء" مقصد شرعي وحكمة إلهية (جائحة "كورونا" أنموذجا)

من النصوص الجا معة في مقصدية "الابتلاء" في القرآن الكريم قوله تعالى في مستهل سورة الملك: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٍ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[3]. فاللام في قوله: (ليبلوكم) لام التعليل كما هو واضح. والمعنى أن

1 سورة آل عمران، الآية 186.

2 سورة محمد، الآية 31.

3 سورة الملك، الآيتان 1 و2.

في خلق الموت والحياة حكمة أن (يبلوكم). فكان الابتلاء قصدا للشارع في خلق الموت والحياة كلاهما،[1] وسنته الثابتة في العباد ومظهرا من مظاهر الاجتماع البشري.

إذن فـ"الابتلاء" في ذاته قصد للشارع في أفعاله كما في أحكامه. ومعنى كونه قصدا أن يكون للشارع فيه حكم ومصالح لا تخرج عن حكمته المطلقة في الوجود برمته. ولعل مجموع الآيات السابقة دالة على ذلك ناصة عليه. ومقتضى ما تدل عليه أن أفعال الله تعالى، كما أحكامه، معللة بغايات هي في جوهرها حكم من العزيز العليم، راعى فيها جلب المصلحة للبشر ودفع المفسدة عنهم. لكننا بعلمنا المحدود وإدراكنا الذي يعتريه النقص والقصور لا قدرة لنا على استيعاب وجوه هذه الحكم والمصالح، في الأمر والخلق على حد سواء، فذلك مما فطر عليه البشر ﴿**وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلا**﴾[2].

فـ"الابتلاء" في حياة البشر إذن سنة كونية وقصد شرعي، فيه من الحكم والمصالح، ومن المعاني والفوائد ما ينبئ بغير ما يدل عليه ظاهره من إلحاق الشر والضرر بالخلق. وقد شاع بين الناس (رب ضارة نافعة)، و"كم من نقمة في طيها نعمة"، وقال تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ**﴾[3].

ومن أجلى النصوص دلالة على الحكم والمصالح المقصودة من ابتلاء البشر قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿**فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ**﴾[4]. وفي السورة نفسها ﴿**وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ**﴾[5].

1 راجع في تفسير الآية الكريمة العلامة ابن عاشور في التحرير والتنوير، ج 29 من ص 12 إلى ص 16.

2 سورة الإسراء، الآية 85.

3 سورة البقرة، الآية 216.

4 الأنعام، الآية 43.

5 الأنعام، الآية 42 .

وقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾[1]. وفي سورة الأعراف: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾[2].

فهذه الآيات دالة على أن الحكمة من ابتلاء الله تعالى عباده بشتى أنواع البأساء هو الإنابة إلى الله والتضرع إليه، وفي ذلك ما فيه من وجوه النعم وشتى الفوائد، مجموع ما يتحصل منها الفرار إلى الله تعالى والتحرر من كل الصفات الدنيئة من "المادية" و"الفردانية" و"الأنانية" وسيطرة الأهواء وكل ما من شأنه إلغاء القيم الإنسانية النبيلة القائمة على معاني "الإخاء" و"الرحمة" و"التكافل" و"التعاون"... وغير ذلك مما تعاني البشرية اليوم من فقدانه بين الحضارات والأمم والأجناس...

ولعل هذا ينطبق تمام المطابقة على ما نحن فيه اليوم من "الابتلاء" بوباء "كوفيد 19". فما يسمى بجائحة "كورونا" امتحان من الله عز وجل للبشر، ولا يمكن أن يكون اختباره تعالى الناس إلا وفق سننه في "الابتلاء" ومعهوده في ذلك، وبما يحقق مقصده من خلق الإنسان وما ينطوي عليه ذلك من غايات هي في ذاتها وماهيتها حكم ومصالح مرعية للشارع ومقصودة له، وقد دلت على ذلك مجموع النصوص التي سلف ذكرها.

ولعل ما حل بالبشرية اليوم وما تنبئ به جائحة "كورونا" من دلائل وما تحمل من إشارات، دال على أن هذه الجائحة لا تخرج عن هذا النسق وعن سنة الله في خلقه وقصده منه، وذلك لما تنطوي عليه من مزايا وفوائد، لعل معظمها باد لمن يعيش ساعته ويتفاعل مع زمانه بطوارئه ومستجداته. مما يسمح بالقول: إن وباء "كوفيد 19" منحة في ثوب محنة ونقمة في طيها نعمة. وفيه من الحكم والمصالح ما يصعب تعداده تفريعا وإن كان يجمعه التنبيه إلى حتمية الإنابة إلى الله وما تقتضيه من المراجعة ثم التدارك في جوانب عديدة عليها وبها تقوم الحياة؛ وعلى هذا تنبني جملة من الدروس والعبر التي يمكن استخلاصها من هذا الوباء.

1 المومنون، الآية 23.

2 الأعراف، الآية 94.

لقد شاء قدر الله أن تتوقف عجلة الحياة في كل المجالات وعلى جميع الأصعدة، ولعلها فرصتنا لنحيى مرة أخرى ولنبعث من جديد. ومؤكد أن أهم الوسائل المحققة للحياة المنشودة وللبعث الموعود، والذي يستحق منا أبلغ التفات وأقوى عناية هو"الزمن" وحسن إثماره؛ إنه لحظتنا ويومنا وغدنا، بل نحن بضع منه. فما أنت إلا جملة أيام تنقضي بانقضائها وتنتهي بانتهائها...

ومع ما تحمله هذه الحقيقة من خطورة يظل السهو وعدم الاكتراث بـ"الزمن" قرينا للإنسان حتى إذا حل البلاء ونزل البأس كان لسان حاله: ﴿**ربي لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين**﴾[1].

المحور الثاني: مبدأ إثمار "الزمن" في الإسلام؛ الشروط والآفات ("الزمن" خلال جائحة كورونا أنموذجا).

أولا: "الزمن" ومركزيته في الإسلام

لقد عني الإسلام بـ"الزمن" عناية كبيرة، وحث على إثماره وحسن إدارته والإفادة منه في كل مراحل العمر، وفي كل دروب الحياة. يظهر ذلك في نصوص كثيرة من القرآن الكريم ومن السنة النبوية الشريفة. ولعل المطلع على هذه النصوص، يدرك مدى تضافرها، في مقتضى دلالاتها ومعانيها، لبيان أهمية "الزمن" في حياة الفرد وخطورته فيها. وأكتفي في هذا المقام بذكر نماذج منها، وهي بلا شك أمارة على غيرها في هذا الباب، ومنبئة كباقي النصوص الأخرى في الخطاب الشرعي، بمكانة "الوقت" في الإسلام بل وبمركزيته ومحوريته في حياة الأفراد لارتباط مسارهم به في الدنيا ومسعاهم فيها.

إن مما يدل على مركزية "الزمن" في حياة الفرد، من منظور الخطاب الشرعي، ما أقسم الله تعالى به في مطالع سور عديدة في القرآن الكريم؛ نحو قوله تعالى: ﴿**والليل إذا يغشى والنهار إذا**

1 سورة المنافقون، الآية 10.

تجلى﴾[1] وقوله جل وعلا: ﴿**والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسري**﴾[2] وقوله: ﴿**والضحى والليل إذا سجى**﴾[3] وكذا: ﴿**والعصر إن الانسان لفي خسر**﴾[4]...فهذه الآيات الكريمة وغيرها كثير تلفت نظر العاقل إلى أهمية الزمن وجلال قدره في القرآن الكريم مما يدل على مركزيته ومحوريته في حياة الإنسان.

أما السنة النبوية الشريفة فجاءت مؤكدة ومفصلة لمنهج القرآن الكريم في العناية بـ"الزمن" من خلال أحاديث كثيرة، منها ما رواه الترمذي في سننه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه)[5].

وبأبعاد أخرى جاء حديث "الفسيلة" للإشارة إلى أهمية "الزمن" في حياة الإنسان، فضلا عن حثه الواضح على العمل إلى آخر لحظة من حياته. يقول صلى الله عليه وسلم: (إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها)[6]. ففي الحديث، إضافة إلى ما دل عليه منطوقه من تكريم للعمل والحث عليه، إشارة هامة ودعوة واضحة إلى حسن إثمار "الزمن" ولو حين قيام الساعة، حيث لا أمل في جني ثمار ما غرس الفرد، لا هو ولا غيره... فأقل ما يمكن إفادته من هذا النص الوفير المعاني، العميق الدلالات، عناية الشارع بحسن إثمار "الزمن" وصرفه

---

1 سورة الليل، الآيتان 1 و 2.

2 سورة الفجر، الآيات 1 ـ 2 ـ 3 ـ 4

3 سورة الضحى، الآيتان 1 و 2

4 سورة العصر،الآيتان 1 و 2

5 رواه الترمذي في سننه وقال حديث حسن صحيح. عارضة الأحوذي شرح سنن الترمذي للإمام بن العربي دار الفكر 1415هـ / 1995م. كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، الحديث رقم 2425 ج 5 ص 194.

6 البخاري في "الأدب المفرد" باب اصطناع المال، الحديث رقم 479 ص 168 . الناشر دار الصديق للنشر والتوزيع، ط 4 . 1418هـ/1997م

في المطلوب من العمل وأفضله حتى في أسوإ الأحوال وأشد الأزمات. وقد سئل صلى الله عليه وسلم أي الناس أفضل؟ فقال: (من طال عمره وحسن عمله).[1]

والمستفاد من هذه النصوص، وغيرها كثير، أن لـ"الزمن"، في حياتنا مكانة محورية وموقعا مركزيا، عليه تدور شؤون دنيانا كلها وسعينا الحثيث فيها. ولعل المتأمل في المسار الذي رسمه الإسلام للفرد في حياته من طقوس وأخلاق، وآداب وشعائر، المقرونة أداء وقضاء بالزمن، بما يناسب الحال من سعة أوضيق، يدرك هذه الأهمية التي للوقت في التصور الإسلامي.

وحري بنا في زمن "الابتلاء"، الالتفات إلى هذه القيمة التي اعتبرها الخطاب الشرعي قيمة مركزية ومبدأ محوريا في حياة الإنسان ومسعاه، فيسأل قبل أن يسأل عن عمره فيم أفناه؟ وعن أيامه فيم صرفها؟ وعن زمنه فيما أنفقه؟

إن من مزايا هذا الوباء الذي حل بنا؛ وباء "كوفيد 19"، وهي كثيرة ومتنوعة، ما يتيحه لنا من وقفات ومراجعات تهم كل تفاصيل الحياة وكافة شؤونها. ولعل "الزمن" بمحوريته ومركزيته في هذه الحياة أجدر بهذه الوقفة وبهذه المراجعة. فـ "كوفيد 19"، يمثل فرصة لمعاودة النظر في طرق إثمار أعمارنا وإدارة أزماننا وتدبير أوقاتنا، ومن ثم فهو مناسبة لمعاودة ترتيب الأولويات في مساراتنا وتدارك ما فاتنا من إنجازات ومهمات الأعمال في حياتنا.

وإذا كان وباء "كوفيد 19" قد وضعنا، قضاء وقدرا، في حال "الحجر الصحي"، وفي وضع عزلة تامة عن المجتمع والمحيط، ونحن بقضاء الله راضين وبقدره مؤمنين، فإن العاقل منا من اغتنم المنحة والتفت إلى أهمية "الزمن" ومركزيته في دينه ودنياه، فسعى إلى إثماره في الطاعات وفضائل الأعمال، وفي ما يعود عليه وعلى محيطه بالخير والنفع العميم.

1 رواه الترمذي في سننه. راجعها بشرح عارضة الأحوذي للإمام بن العربي، كتاب الزهد، باب ما جاء في طول العمر للمؤمن، الحديث رقم 2336، ج5 ص185,

إن العزلة تصنع المعجزات وتعين في الرجوع إلى جادة الصواب. وإن من مزاياها البادية للعيان كونها تبصر العقلاء منا بمواطن الزلل والآفات في ما مر من أزماننا التي هي أعمارنا، وهذا يتيح فرصة فسيحة للتدارك وتقويم سلوكاتنا وممارساتنا في التعامل مع الوقت وإدارته.

ولعل من أهم أسباب النجاح في إثمار زمن جائحة "كورونا" والإفادة مما تتيحه من فرص التقويم والتصويب، بعد استيعاب تام للدرس والتقاط مبصر للعبرة، هو التحلي بالإرادة المطلقة والاقتحام المطلوب، القاضيين بترك النهج الذي مضى في التعامل مع "الزمن"؛ والذي لا يخلو من شيء، إن لم نقل من كثير، من الاستهتار وعدم الاكتراث وإهداره فيما لا طائل من ورائه. ولعل هذه الإرادة والاقتحام لا يمكن تفعيلهما في إعادة تدبير وإدارة وحسن إثمار أوقاتنا إلا بتوفير جملة شروط ممكنة من المراد وتجنب مختلف الآفات التي من شأنها أن تقف حاجزا دون تحقيق ذلك.

ثانيا: إثمار "الزمن"، الشروط والآفات

أما شروط إثمار "الزمن" فأقف منها عند أنموذجين اثنين لعلهما أهم ما يمكن استحضاره في هذا الباب؛ "التفاؤل" و"الفاعلية".

والمقصود ب"التفاؤل" هنا عدم التذمر وتمام الإقبال على الحياة بإيجابية مطلقة، واعتبار ما نحن فيه وما مسنا من ضر بسبب جائحة "كورونا" قدرا من الله عز وجل لا يخرج عن علمه وإرادته، وفيه من الحكم المقصودة له في كل أفعاله وفي كل ما قدر وقضى ما لا يسمح قصور إدراكنا بتمام فهمه وإدراكه.

فبمدإ "التفاؤل"، أولا وقبل أي شيء آخر، نعيش زمننا بما يناسب وعلى النحو الذي ينبغي، وندبر جائحة "كورونا" ونديرها بما تقتضيه الأحوال، وتتيحه الإمكانات، وبما يعود علينا بالنفع في عاجلنا وآجلنا. وعدا ذلك، من الإحباط والتذمر والاستياء، يوشك أن يوقعنا في دائرة السخط وعدم الرضا بقضاء الله وقدره. ولعل في ذلك ما فيه من وجوه الضرر والمفسدة على الأنفس والأبدان، خاصة في هذا الوقت الذي نحن فيه في تمام الغنى عما يمكن أن يغمر أوقاتنا كدرا ونغصا.

أما "الفاعلية" أو "الفعالية"[1]، فهي قدرة الإنسان على توظيف وإثمار ما لديه من إمكانات ووسائل أولية واستخراج أقصى ما يمكن أن يستخرج منها من نتائج إيجابية، تعود عليه وعلى مجتمعه بالخير والنفع العميم. وعكسها اللافعالية وهي "أن يكون الإنسان عاجزا عن استخراج النتائج التي يمكن أن يحصلها من الوسائل المتاحة له"[2].

ولا شك أن للفعالية، وجودا وعدما، ارتباطا واضحا بـ"الزمن" من حيث كون هذا الأخير معيارا أساسا في تحديد مقدار وقوة "الفعالية" أوعدمها عند الأفراد والجماعات. فـ"الزمن" بالنسبة للإنسان الفعال له قيمته وأهميته، حتى إن لحظة منه يمكن أن تكون موعدا تتولد فيه حقيقة من حقائق الحياة، لا لحظات خامدة ميتة. لهذا سيبقى مما يشق على الإنسان يوم القيامة أن يسأل عن (عمره فيم أفناه)؟[3]

وأما الآفات التي يمكن أن يلقاها القاصد، المعتبر بزمن الكوارث والأزمات والجوائح، ومنها جائحة "كورونا"، في طريقه نحو التقويم والتصحيح، والتدارك والتسديد، فمن نماذجها الكثيرة ما نلحظه في شخوصنا ويهيمن على نفوسنا من "الغفلة" و"التسويف".

أما "الغفلة"[4]فمرض يصيب العقول والقلوب ويفقد الإنسان الحس الواعي بالأحداث والطوارئ، واختلاف الليل والنهار، والانتباه اليقظ إلى معاني الأشياء وعواقب الأمور. وقد حذر القرآن الكريم من "الغفلة" أشد تحذير في مناسبات عديدة ومساقات مختلفة، منها التي خاطب فيها الرسول صلى الله عليه وسلم، نحو قوله تعالى: ﴿**واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين**﴾[5].

1 انظر الإنسان كلا وعدلا للأستاذ جودت سعيد، ص17.
2 المرجع السابق.
3 تقدم تخريجه في ص7.
4 راجع الدكتور يوسف القرضاوي في "الوقت في حياة المسلم"، ص 66 وما بعدها.
5 سورة الأعراف، الآية 205.

ومن شر البلية حقا أن ينزل بنا مثل ما نحن فيه من جائحة "كورونا" ولا نعتبر به، مع ما له من آثار شاخصة، وتداعيات نسأله تعالى لطفه فيها. فالمقام إذن يستدعي، بجدية أكبر وبهمة عالية، معاودة النظر في طرق إثمار الفرد وقته وتصريف عمره حتى ولو اقتضى منه ذلك، بل هو المطلوب، مراجعة دقيقة لمساره المهني مثلا إن كان ذا مهنة، والدراسي إن كان طالبا، وغير ذلك من المسارات التي تقوم عليه حياتنا ويرتكز عليه معاشنا، وما يمكن أن تكون هذه المراجعة إلا زيادة في بناء الذات وشحذ للعزيمة...

وأما "التسويف" فالآفة الأشد خطرا على الإنسان من بين أخرى كثيرة. إنه قاتل اليوم، ليله ونهاره، ومعيق تسخير الحاضر ومانع الانتفاع بالعمر. قال صلى الله عليه وسلم لرجل يعظه: (اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك)[1].

فالخمس المذكورة في الحديث لها برمتها ارتباط واضح بـ"الزمن" بل إن أكثرها هو "الزمن" نفسه، بل قل: إنه وعاؤها الذي يحويها. ومن ثم لا يليق بالفرد أن يؤخر أي عمل كيفما كان عن وقته وزمنه، فإنه لا يدري هل يعيش إلى الغد؟ كما أنه لا أمان لأحد منا مما يحدث من الطوارئ والمعوقات... وفوق هذا كله فلكل عمل زمن يناسبه ووقت يؤدى فيه.

ولابن عطاء في حكمه كلام نفيس حق للمعتبر النظر فيه والتمعن في مغزاه ومعناه. يقول رحمه الله تعالى: (حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها، وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها؛ إذ ما من وقت يرد إلا ولله عليك فيه حق جديد، وأمر أكيد، فكيف تقضي فيه حق غيره وأنت لم تقض حق الله فيه؟)[2].

---

1 رواه النسائي في السنن الكبرى، كتاب "المواعظ"،الحديث رقم: 11832، ج10 ص 400 مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1 2001م / 1421هـ.

2 الحكمة 208 من "الحكم العطائية" لابن عطاء الله السكندري بشرح بن عباد النفزي الرندي، ط1، 1408هـ/1988م، مركز الأهرام للترجمة والنشر.

خاتمة :

بعد هذا أقول: إن كل ابتلاء يصيب البشر، كان أزمة أو جائحة أو كارثة طبيعية، وكل ما يعرض للإنسان في حياته ومعاشه، من شر أو بأس، يعد سنة من سنن الله في الاجتماع البشري، بل إن ذلك من المقاصد الأصيلة التي نص عليها الخطاب الشرعي ومن أهم الغايات التي خلق من أجلها الإنسان ثم استخلف في الأرض استخلافا. ولا شك أن وباء "كوفيد 19" الذي ألم بالإنسان، فحصد أرواح الآلاف وأربك مسار حياة الملايين، لا يخرج عن سنة الله في العباد، ومن ثم فهو وإن بدا نقمة إلا أن في طيها نعمة، ومنحة في ثوب محنة...

وإيمانا منا بكون كل ما يصدر عن الله تعالى، أفعاله وأحكامه، منطويا على حكم ومصالح، علمنا منها ما علمنا وجهلنا ما جهلنا، فإن من تمام إيمان الفرد الرضا بما قدر الله وقضى؛ فلا شيء يقع في هذا الكون عبثا، بل وفق علمه ومشيئته جل وعلا. والفطن من تصرف في زمن هذه الجائحة بما يوافق سنن الله في الحياة والمجتمع؛ معتبرا بما دل عليه الطارئ من مهمات الأمور، وما يمكن استخلاصه منه من دروس وعبر، ثم مستثمرا لكل ما يبصر من مخلفات هذه الجائحة؛ فوائدها ومزاياها، وما ضمنت من حكم ومصالح، قد يتعذر تحصيلها في المعتاد من الأيام وفي أكثرها رخاء وازدهارا. ولعل "الزمن" وحسن إثماره يشكل نموذجا لما نحن مطالبون بالاعتبار به في زمن جائحة "كورونا" مما يقتضي منا النظر من جديد فيما نحن فيه على غير هدى ولا سراج منير.

نسأل الله العفو والعافية في الدين و الدنيا، وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.
- "الأدب المفرد" للإمام البخاري، دار الصديق للنشر والتوزيع، ط 4، 1418هـ/1997م.

- "الإنسان كلا وعدلا" للأستاذ جودت سعيد، (سلسلة سنن تغيير النفس والمجتمع)، دار الفكر المعاصر، بيروت ـ لبنان.
- "التحرير والتنوير" للعلامة محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر والتوزيع.
- "الحكم العطائية" لابن عطاء الله السكندري بشرح بن عباد النفزي الرندي، ط1، 1408هـ/1988م، مركز الأهرام للترجمة والنشر.
- "سنن الترمذي بشرح عارضة الأحوذي" للإمام بن العربي المعافري، ط: دار الفكر، 1415هـ / 1995م.
- "السنن الكبرى" للإمام النسائي، مؤسسة الرسالة بيروت، ط1، 2001م/ 1421هـ
- "لسان العرب" لابن منظور الإفريقي المصري، ط1 دار صادر، دار الفكر، 1410هـ / 1990م
- "الوقت في حياة المسلم" للعلامة الدكتور يوسف القرضاوي، دار النهضة، الدار البيضاء، المغرب.

جائحة الشائعات والأخبار الزائفة في ميزان النقد الشرعي

الأستاذ الدكتور ميمون باريش[1]

مقدمة

مع إرجاع الطلبة المغاربة ـ أواخر شهر يناير 2020 ـ من "ووهان" الصينية، أكبر بؤر جائحة كورونا، بدأت الأخبار تتقاطر، والشائعات تتناسل، وتنتشر طولا وعرضا على وسائل الاتصال، فقد أسهم هذا الحدث الوطني البارز في تسريع وتيرة صناعة الإشاعات، مثلما أسهمت تطبيقات المراسلات الفورية على الهواتف الذكية في تسهيل عملية نقل الأخبار وتداولها، حتى إن مواقع التواصل الاجتماعي باتت مرتعا خصبا للأكاذيب، والافتراضات الخيالية، وأداة فعالة لانتشارها، انتشار النار في الهشيم.

والغريب في الأمر أن المخبرين الذين تجندوا لنشر الشائعات، وتوسيع دائرتها، لم يلتزموا الحياد فيما ينشرون، ولم يحترموا قواعد نقل الخبر فيما يروّجون له من الأباطيل، بل إنهم تمردوا على معهود المخبرين في نقل الأخبار، ومألوف أفذاذ الرواة في التثبت والعزو، ولم يقفوا بأخبارهم عند حدود الادعاءات الشخصية، والتقديرات الافتراضية، بل استفرغوا الوسع في ترويجها منسوبة إلى مؤسسات رسمية، لتكتسي طابع المصداقية، وهذا الاتجاه لو ـ سُكت عنه ـ لأسهم ـ بدون شك ـ في المساس بالنظام العام، والتأثير على أمن الوطن واستقراره، وطمأنينة المواطنات والمواطنين، ولكان سببا في العصف بالإجماع الوطني، والجهود الجماعية المبذولة للحد من انتشار الوباء القاتل Covid19.

1 أستاذ التعليم العالي بجامعة القاضي عياض بمراكش.

وللإشارة، فإن هذه الشائعات بدأت ـ أولا ـ بالترويج لنفي وجود هذا الفيروس القاتل، والتشكيك في الرواية الرسمية، رغم تأكيد منظمة الصحة العالمية على عالمية الوباء.

ثم انتقل التضليل ـ فيما بعد ـ إلى تركيب أشرطة مرئية، وفبركة أحداث لا وجود لها إلاَّ في أذهان صانعيها، وذلك بغية التشويش على الجهود المبذولة لمحاصرة الوباء، أو بغية إلحاق الهلع بالمواطنات والمواطنين، وذلك بنشر معلومات زائفة لا أساس لها من الصحة.

وبنظرة خاطفة في وسائل الإعلام الإلكترونية، يقف المتتبع على زخم من الشائعات التي تم الترويج لها إبان جائحة كورونا، والتي ظهرت إلى الوجود قبل أن يصدر ـ في شأنها ـ شيء عن المؤسسات الرسمية.

ولكثرة هذه الإشاعات يمكن تجميعها، وتنظيمها في أربع مجموعات، وهي الآتية:

المجموعة الأولى: إشاعات نُسبت إلى وزارة الداخلية، ويأتي في مقدمتها إشاعة عزل المدن عن بعضها، وإغلاق مداخلها ومخارجها، أو عزل بعض الأحياء عن بعضها داخل المدينة الواحدة، وإشاعة قيام طائرات حربية برش المدن والقرى بالمواد المعقمة، وإشاعة تجميد أنشطة الأمن الوطني والوقاية المدنية، وخبر فرض حظر تجولٍ شاملٍ أيام عيد الفطر في أرجاء المملكة كلها، وغيرها من الإشاعات الفارغة المحتوى، أو الأخبار السابقة لأوانها.

المجموعة الثانية: إشاعات نُسبت إلى نساء ورجال وزارة الصحة، وأبرزها الآتي:

1. الجزم بانتقال الفيروس عبر الهواء.
2. التأكيد على أن Covid19 مرض عضال يستحيل التعافي منه.
3. القول بانتقال العدوى من خلال لدغات البعوض، والذباب المنزلي.

4. الترويج لبعض المطعومات على أنها تتصدى لفيروس Covid19، وتَحُول دون الإصابة بالمرض،ومن أمثلتها: "الثوم" و"القرفة" و"القرنفل"، فكانت هذه الإشاعة سببا في اختفائها من الأسواق، وارتفاع ثمنها.

المجموعة الثالثة: إشاعات نُسبت إلى وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي والبحث العلمي، قبل أن تقول الوزارة الوصية كلمتها فيها، وهذا ما كاد أن يُربك اهتمامات التلاميذ والطلبة وأولياء أمورهم، ومن أبرزها:

1. إشاعة تعليق الدراسة الحضورية، وإغلاق المدارس.

2.إشاعة إعلان سنة دراسية بيضاء.

3. إشاعة الإعلان عن نجاح جميع التلميذات والتلاميذ.

المجموعة الرابعة: إشاعات نُسبت إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وقد تصدرت قائمتها إشاعةُ إغلاق المساجد، وتعطيل الجماعات والجمع، وصلاة العيدين، وإشاعة تعطيل شعيرة الأضحى، ثم إشاعة فتح المساجد قبل انتهاء فترة الحجر الصحي.

صحيح أنه بعد مرور الأيام، تحولت بعض هذه الادعاءات والإشاعات إلى حقيقة وواقع فرضه ازدياد حالات الإصابة بالمرض، لكن الغريب في هذا،والأغرب منه أن يتم الترويج لبعض هذه الأحداث في زمن لم يكن فيها ما يدعو إلى الترويج لها.

فتفاديا لأي بلبلة أو اضطراب بذلت كل المؤسسات الرسمية المعنية بهذه الإشاعات جهودا مضنية لتفنيد الأخبار الزائفة، والرد على الادعاءات الكاذبة، وتصحيح الأغلوطات المضللة، بنشر بلاغات تكذيب،وبياناتِ حقيقة فورية من خلال قنوات التواصل المؤسساتية، وهو ما زاد من أتعاب أطر هذه المؤسسات، وصرف بعض جهودها إلى نفي أقوال لا أصل لها، ودحض تفاهات لا معنى لها...

أمام هذه الفوضى كان لزاما على الجهات المختصة أن تتدخل لتصحيح الوضع؛ فانخرطت وزارة الداخلية بأجهزتها المختلفة، والسلطة القضائية بمؤسساتها المتعددة في عملية التصدي بحزم، وبلا هوادة للمرجفين، ومرضى القلوب الذين سولت لهم أنفسهم الركوب على الحدث العالمي للمَسِّ بالنظام العام، وبأمن الدولة، أو العصف باستقرار المجتمع، وسلامة المواطنات والمواطنين.

كان بالإمكان أن نوفر جهودا جمة لو اتفقنا على وأدِ هذه الإشاعات في مهدها، ووأدها لا يتأتى إلاَّ بعرضها على ميزان النقد الحديثي[1] الذي يُكسب الناظر في الأخبار ملكة التعامل معها لتمييز صحيحها من سقيمها، وجيدها من رديئها، وذلك من خلال التوجيهات الشرعية الآتية:

1.المنهج القرآني في تلقي الأخبار وروايتها:

نهى القرآن الكريم ـــ بما لا يحتمل التأويل ـــ عن نقل الأخبار وإذاعتها قبل تبيّنها وتحققها والتثبت فيها، فقد شـــدد في الإنكار على من يبادر إلى نقل الأخبار ونشرـــها قبل التأكد من صحتها، وقد لا يكون لها أســاس من الصـحة، لذلك كان إعمال ما في الوسـع لاسـتنباط الخبر واستخراجه من معدنه الأصلي أمرا في غاية الأهمية في ميزان الشرع الحنيف، يقول تعالى: (**وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُـــولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً**)[النساء/83].

وإذا كان المنهج الإسلامي يروم تأمين عملية نقل الأخبار وأدائها، فإن الأصل القرآني المعتمد في التعامل مع الأخبار والمخبرين قولُ الحق ســبحانه وتعالى في محكم التنزيل: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**)[الحجرات/6].

وهذا نص قرآني صريح في الدعوة إلى الإمهال والتريث في قبول خبر الفاســق؛ وبهذا الأمر الرباني يكون القرآن الكريم قد وضع قاعدة ذهبية جليلة في التعامل مع الأخبار والروايات بهدف تنقيحها وتهذيبها؛ وحاصل هذه القاعدة أنه ينبغي لنفس المتلقي أن تسكن إلى رواية المخبر العدل

1 تنظر تفاصيل هذا المنهج، وقواعده في كتابنا: أصول التحمل والأداء.

وأن تطمئن لخبره، في حين يجب التوقف في قبول خبر الفاسق ـــ كائنا من كان ـــ والتريث في روايته حتى يتبين صدقه من كذبه، وصوابه من خطئه، وأمانته من خيانته... وذلك بقيام الدليل لأحدهما على حســـاب الآخر... وتأملا في النص القرآني الســـابق، يقول الإمام القرطبي: «وفي هذه الآية دليل على قبول خبر الواحد إذا كان عدلا؛ لأنه إنما أمر فيها بالتثبت عند نقل خبر الفاســـق، ومن ثبت فســـقه بطل قوله في الأخبار إجماعا؛ لأن الخبر أمانة، والفســـق قرينة يبطلها»[1].

فهذا الاحتراز، وإن كان مؤكدا في الأخبار عموما، فإنه في أخبار الدين أوكد، لأن أخبار دين الله تعالى أحق أن يحترز لها، فإنها نصوص تُحمِّلت عن المعصوم، وفيها إخبار عن الغيبيات أو تنصـيص على أحكام الحلال والحرام، أو بيان لتشـريعات تصـان بها الأبضـاع، وتحفظ بها الأموال والدماء، وغير ذلك مما لا ينبغي أن يُعتمد في تحمله وأدائه إلاّ على خبر الثقة الأمين الذي تؤمن منه الجرأة على الكذب والتحريف والتبديل. لهذا كان التثبت والتبين في شـأن حقوق الله تعالى وحقوق العباد أمرا واجبا على كل مســـلم بالغ عاقل قادر، للنهي الوارد في قبول خبر الفاسـق، وهو نهي يقتضي- الفسـاد والتحريم[2]. وفي هذا يقول الإمام مسـلم: «واعلم، وفقك الله تعالى، أن الواجب على كل أحد عرف التمييز بين صحيح الروايات وسـقيمها، وثقات الناقلين لها من المتهمين، أن لا يروي منها إلا ما عرف صحة مخارجه، والسِّـتارة في ناقليه، وأن يتقي منها ما كان منها عن أهل التهم والمعاندين من أهل البدع؛ والدليل على أن الذي قلنا من هذا هو اللازم دون ما خالفه، قول الله جل ذكره: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِـقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِـيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)[الحجرات/6].»[3].

1 تفسير القرطبي297/16.

2 ينظر: الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم الأندلسي406/7، والمحلى له أيضا 51/1.

3 انظر مقدمة صحيح مسلم.

وللإشارة، فإن تبيين المعارف، والتثبت مما تتناقله الألسن من أخبار الدين والدنيا، يقتضي من المسلم عملية بحث متكاملة يلتحم فيها الفؤاد والحواس، ويطبعها الوعي والتبصر[1]، مصداقا لقوله تعالى: **"وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً"** [الإسراء/36]، فإعمال السمع أمر لابد منه للتلقي، وإعمال البصر أمر لابد منه للتدبر والتأمل، وإعمال العقل أمر لابد منه للتأكد من المرويات ولتخزينها إلى أن تدعو الحاجة إليها لتبليغها أو للعمل بمضامينها أو للاستنباط منها والاستدلال بها.

هكذا يضع القرآن الكريم ويؤسس قاعدة ذهبية محكمة في شأن الأخبار عموما وأخبار الدين خصوصا، قاعدة تقوم على منهج دقيق في تصفية وتنقيح الروايات، إنه منهج التثبت والتبين في تحمل الأخبار وأدائها وفي نقلها وتداولها.

2.المنهج النبوي في قبول الأخبار وتداولها:

إذا كان القرآن الكريم قد دعا بصريح العبارة إلى ضرورة التثبت من رواية الفاسق لوضع اللبنة الأساس لمنهج محكم في التعامل مع الأخبار والروايات والإشاعات، فإن السنة النبوية الشريفة ساهمت هي الأخرى في بناء هذا الصرح العظيم، إذ بدورها وضعت قواعد بنّاءة في التحمل والأداء، ومنها ما يأتي:

1.2 تسنين مبدأ التثبت في تحمل الخبر، وتبينه بعرضه على المحك قبل أدائه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:«كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع»[2]، وفي رواية أخرى: «كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع»[3].

1 تنظر هذه المسألة بمزيد تأصيل وتفصيل في كتاب: نحو منهج شرعي لتلقي الأخبار وروايتها، لمؤلفه الدكتور أحمد بن عبد الرحمن الصويان.

2 أخرجه مسلم في صحيحه، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع(ح5).

3 أخرجه ابن حبان في صحيحه213/1،(ح30).

وإنما حذر من هذا لأن الأخبار فيها الصحيح والسقيم، والصدق والكذب... ومن لم يتبين الخبر كان كحاطب ليل، يحدث بالغث والسمين، فيحصل له بذلك الحظ الوافر من الإثم؛ من هنا احتاط بعض علماء السلف من الصحابة رضي الله عنهم في الرواية عن رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـ، فإنهم وإن أكثروا في التحمل، فقد آثروا الاقتصاد في الأداء، ومن أمثلة هؤلاء: عمر بن الخطاب والزبير بن العوام وأنس بن مالك وابن هرمز، وعبد الملك بن إياس، وغيرهم ممن كان من المكثرين في التحمل فصار من المقلين في الأداء[1].

2.2 التشديد في النهي عن رواية المنكر من الأخبار، لتفادي الوقوع في مغبة الكذب على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وفي الحديث الشريف: «من حدث عني بحديث يرى أنه كذب، فهو أحد الكذابين»[2]، وتأملا في هذا النص الحديثي، يقول أبو العباس القرطبي«ويفيد الحديث التحذير عن أن يحدث أحد عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا بما تحقق صدقه علما أو ظنا، إلا أن يحدث بذلك على جهة إظهار الكذب»[3].

3.2 توجيه الأنظار إلى مبدأ التريث في الحكم على الأخبار بالصدق أو الكذب، وعلى الروايات بالصحة أو الضعف إلا بحجة دامغة، ويشهد لذلك قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم؛ وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم."الآية"»[4].

---

1 المفهم، 113/1.

2 أخرجه الإمام مسلم ترجمة، باب: وجوب الرواية عن الثقات، وترك الكذابين، والتحذير من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخرجه ابن ماجه في سننه، باب من حدث عن رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ حديثا وهو يرى أنه كذب(ح41).

3 المفهم112/1.

4 أخرجه البخاري في صحيحه، باب: قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا(ح4215)، ثم باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء(ح6928).

4.2 الدعوة إلى التصدي للرواة المموهين والملبسين من أصحاب الأخبار المختلقة والموضوعة، والاحتياط في تداول رواياتهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:«سيكون في آخر أمتي أناس يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم»[1].

5.2 التحذير من ركوب مركب التساهل في تحمل الأخبار وأدائها، وذلك سدا لذريعة الوقوع في مغبة التمويه، والتدليس، فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ قال: «بئس مطية الرجل زعموا»[2]، فقول الرجل زعموا سبيل إلى نقل الأخبار أو إلى أدائها بأيسر الطرق وأقصرها... وفي هذا يقول الإمام الخطابي: «وإنما يقال: زعموا في حديث لا سند له، ولا ثبت فيه، وإنما هو شيء يُحكى عن الألسن على سبيل البلاغ؛ فذم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الحديث ما كان هذا سبيله، وأمر بالتثبت فيه والتوثق لما يحكيه من ذلك، فلا يرويه حتى يكون معزيا إلى ثبت، ومرويا عن ثقة، وقد قيل: الراوية أحد الكذابين»[3].

وخلاصة القول فإن نصوص الوحي السابقة قد دعت ـــ بما لا مجال فيه للشك ـــ دعوة صريحة إلى ضرورة التعامل العلمي الأمين مع الروايات والأخبار تمهيدا لتأسيس منهج علمي محايد ومحكم للتثبت من الأخبار وتبيينها، سواء تعلق الأمر بتحملها أم بأدائها أم بالمساهمة في تداولها، أم بتفريع الأحكام عليها. ويكفى أن ترد أصول هذا المنهج في القرآن والسنة لتتأكد عظمته وأهميته وليكون ذلك سندا قويا ودافعا كبيرا لتلتفت إليه أنظار علماء الإسلام الربانيين العاملين على نصرة دين الله الخالص.

---

1 رواه مسلم في صحيحه، باب النهي عن الرواية عن الضعفاء والاحتياط في تحملها(ح6)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه، باب: ذكر الإخبار عما يظهر في آخر الزمان من الكذب في الروايات والأخبار(ح6766).

2 أخرجه أبو داود في سننه، باب قول الرجل: زعموا(ح4972)، وأحمد في المسند401/5(ح23451)... وأورده الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير(ح2846)، وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة(ح866).

3 معالم السنن130/4، وينظر أيضا: شرح السنة للإمام البغوي362/12.

4.جهود علماء الإسلام في تبين الأخبار والتثبت فيها:

إذا كانت نصوص الوحي قد دعت إلى ضرورة التثبت والتبين في شأن أخبار الدين، فإن أول من بادر إلى تفعيل أوامر الوحي والعمل بتوجيهاته هم الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وذلك بحكم غيرتهم على الدين وخوفهم من أن يلحق بنصوصه التحريف والتبديل، حتى إنهم نهجوا منهج التشدد والصرامة في قبول الروايات الحديثية، بل إن الواحد منهم مع ما له من ثقة في أخيه الصحابي لم يكن ليقبل منه ابتداء كل شيء يحدث به عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ـ، ولقد كان لهم في التبيين والتثبت طرائق عدة أهمها ما يأتي:

1.4 المطالبة بالبينة والشاهد، وحاصل هذه الطريق، أن الواحد من الصحابة إذا حدثه صحابي آخر بحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يقبل منه ذلك إلاّ أن يأتيه الراوي ببينة قاطعة، أو بشاهد يشهد على صحة روايته، والأمثلة من هذا القبيل كثيرة، أذكر منها الآتي:

1.1.4 قصة أبي بكر الصديق رضي الله عنه مع المغيرة بن شعبة في شأن ميراث الجدة: فقد جاءت الجدة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه تسأل ميراثها، فقال لها: مالَكِ في كتاب الله شيء، وما علمت لك في سنة نبي الله شيئا، فارجعي حتى أسأل الناس. فسأل الناس، فقال المغيرة بن شعبة: حضرت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أعطاها السدس. فقال أبو بكر: هل معك غيرك؟ فقام محمد بن مسلمة، فقال مثل ما قال المغيرة بن شعبة، فأنفذه أبو بكر[1].

2.1.4 قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أبي موسى الأشعري في شأن الاستئذان: فعن أبي سعيد الخدري قال: كنت جالسا بالمدينة في مجلس الأنصار، فأتانا أبو موسى فزعا أو مذعورا. قلنا: ما شأنك؟ قال: إن عمر أرسل إليّ أن آتيه فأتيت بابه فسلمت ثلاثا فلم يرد علي

1 أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الفرائض، باب: ميراث الجدة(ح1464)، والحاكم في المستدرك، كتاب الفرائض(ح7978)، ثم قال:«هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، وأخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء في ميراث الجدة(ح2100)...

فرجعت، فقال ما منعك أن تأتينا، فقلت إني أتيتك فسلمت على بابك ثلاثا فلم يرد علي فرجعت، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع»، فقال عمر: أقم عليه البينة، وإلا أوجعتك. فقال أبي بن كعب لا يقوم معه إلا أصغر القوم، قال أبو سعيد قلت: أنا أصغر القوم. قال: فاذهب به»[1].

3.1.4 قصة عمر بن الخطاب مع ابن عباس رضي الله عنهما، في شأن آية من القرآن، فعن ابن عباس أن رجلا جاء إلى عمر يسأله الصدقة، فجعل عمر ينظر إلى رأسه مرة وإلى رجليه أخرى، هل يرى عليه من أثر البؤس شيئا، ثم قال له عمر: كم مالك؟ قال: أربعون من الإبل. قال ابن عباس: فقلت: صدق الله ورسوله،«لو أن لابن آدم واديا من ذهب لابتغى إليه ثانيا، ولو كان له ثان لابتغى إليه ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب». فقال عمر: ما هذا؟ فقلت: هكذا أقرأنيها أبيّ. قال: فمر بنا إليه، فجاء إلى أبيّ فقال: ما يقول هذا؟ قال أبي: هكذا أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال عمر: أفأثبتها؟ فأثبتها[2].

2.4- الاستحلاف، وذلك بأن يستحلف الرجلُ الرجلَ عن رواية يرويها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وممن اشتهر بهذا الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقد كان يستحلف الناس إذا حدثوه بحديث... من السنة، وفي هذا الصدد يقول: «كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا نفعني الله بما شاء منه، وإذا حدثني عنه غيري استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، وإن أبا بكر حدثني وصدق أبو بكر أن النبي صلى الله عليه

---

1 أخرجه البخاري في صحيحه، باب التسليم والاستئذان ثلاثا(ح5891)، ومسلم في صحيحه، باب الاستئذان(ح2153)، واللفظ لمسلم.

2 أخرجه الإمام أحمد في مسنده117/5،(ح21149). وفي حديث آخر عن أبيّ بن كعب: أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال له:«إن الله تبارك وتعالى أمرني أن أقرأ عليك القرآن. قال: فقرأ(لم يكن الذين كفرو من أهل الكتاب). قال فقرأ فيها:«ولو أن لابن آدم واديا...»الحديث، المسند131/5(ح21240). وفي رواية أنس بن مالك، قوله عن هذا الحديث:«فلا أدري أشيء نزل عليه أم شيء يقوله»، انظر: المسند122/3(ح12250). وفي رواية زيد بن أرقم قال:«لقد كنا نقرأ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم:لو كان لابن آدم واديان...»، المسند368/4. وأشير إلى أن هذا يمثل وجها من أوجه النسخ، وهو من قبيل ما نسخ رسمه وتلاوته، ولا يعلم الذي نسخه.

وسلم قال: «ما من عبد يذنب ذنبا فيتوضأ فيحسن الطهور، ثم يقوم فيصلي ركعتين، ثم يستغفرُ الله بذلك الذنب، إلا غفر الله له»[1].

3.4 التحوط في قبول الروايات والتثبت في ذلك، ومعناه أن يحتاط الرجل في تحمل الحديث بله أدائه، فلا يقبله إلاّ من الثقة ولا يؤديه إلاّ وهو صحيح، وعن هذا المنهج يقول مجاهد: جاء بُشير العدوي إلى ابن عباس رضي الله عنه فجعل يحدث ويقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه، ولا ينظر إليه، فقال: يا ابن عباس مالي لا أراك تسمع لحديثي، أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسمع؟ فقال ابن عباس:«إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلا يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتدرته أبصارنا، وأصغينا إليه بآذاننا، فلما ركب الناس الصعب والذلول، لم نأخذ من الناس إلاّ ما نعرف»[2].

هذا المنهج الذي سلكه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين في التعامل مع حملة الحديث النبوي الشريف ورواته لم يكن ليصدر عن حظوظ نفسية ومصالح شخصية، بقدر ما كان انتصارا للدين، فليس من المنطق أن يشك صحابي في صحابي مثله وهم جميعا معدّلون بنص القرآن من فوق سبع سموات، ومزكّون من لدن المعصوم عليه أزكى السلام وأفضل الصلوات، وإنما الغيرة على الدين، والرغبة في سد الطريق على ضعاف الإيمان وقليلي الورع، وحرصا على وضع معالم منهج علمي دقيق للتعامل مع نصوص الوحي يكون حجة على الأجيال اللاحقة، ويشهد لهذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه معللا تشدده مع أبي موسى، إذ قال:«إنما سمعت شيئا فأحببت أن أتثبت»[3]، وقوله لأبي موسى: «أما إني لم أتهمك، ولكني خشيت أن

1 أخرجه ابن حبان في صحيحه، باب: ذكر مغفرة الله جل وعلا للتائب المستغفر لذنبه إذا عقب استغفاره صلاة،(ح623)، وأخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء في الصلاة ثم التوبة(ح406)، وأحمد في المسند1/2(ح2)... وأورده الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير(ح5738).

2 مقدمة صحيح مسلم.

3 في رواية عند الإمام مسلم، باب الاستئذان(ح2154).

يتقول الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم»[1]، وفعلا فقد توارث المسلمون هذا المنهج - أي منهج التثبت في قبول الروايات ــ خلفا عن سلف وجيلا بعد جيل، «وتوسعوا فيه كلما بعد الزمن من القرون المشـــهود لها بالخير، وما أن انتهى القرن الثالث حتى ازدهر هذا العلم، وبلغ منتهاه، وسمي بعلم الجرح والتعديل، وذلك لتمييز الصـــادق من الكاذب، والضـــابط من الواهي، والموثوق به من المطعون فيه، والحافظ من الغافل»[2].

غير أنه وإن وجدت حالات من التشـــدد في قبول الروايات، فإن الســـمة التي كانت غالبة على رجال القرون المشـهود لها بالخيرية، التعامل بحسـن الظن مع حملة الحديث النبوي الشـريف طيلة مرحلة النقاء والصفاء إلى أن وقعت الفتنة، وبدأ ظهور الزنادقة والمبتدعة وأصحاب الأهواء والدجالين والكذابين والمرتزقة والمتعالمين وغيرهم من الوصـوليين الذين يصـلون إلى الدنيا بالدين... فلزم حينئذ اعتماد منهج التثبت في قبول الروايات سدا لذريعة التقول على رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم، والوضـع في حديثه... وهذا ما يبينه قول علامة زمانه محمد بن سـيرين رحمه الله:«لم يكونوا يسـألون عن الإسـناد، فلما وقعت الفتنة، قالوا: سمّوا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السـنة، فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع، فلا يؤخذ حديثهم»[3].

فبعد أن تقوى تيار الجرأة في الكذب على رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم، والوضـع في الحديث الشـريف بقصـد الضـرب في صميم الدين، والتخطيط لتمزيق صـفوف المسـلمين، والعمل على التشـكيك في حقائق الإسـلام العقدية والتشـريعية، اقتضـت طبيعة المرحلة، الحزم في وضـع منهج دقيق يحمي الدين، منهج يرد كيد الكائدين ويفضـح مكائدهم، وذلك بتتبع سـلســـلة الرواة بدءا براوي الحديث، ومرورا بكافة نقلته الواحد تلو الآخر ثم وصـولا إلى منبعه الأصـلي، وذلك تثبتا من الرواة وتبيينا لحالهم، ودراسـة لمروياتهم، في إطار عملية منهجية دراسـية شـاملة لحلقات

1 أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجامع، باب الاســتئذان(ح2722)، وأبو داود في ســننه، باب: كم مرة يســلم الرجل في الاستئذان(ح5184)، وانظر: الرسالة1/434.

2 دراسات في الجرح والتعديل، ص16.

3 مقدمة صحيح مسلم. وفي هذا الصدد أيضا اشتهر قول محمد بن سيرين: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم».

السند حتى يستبين حال الناقل وحقيقة المنقول، وليوضع حد للتقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن هذا الصنيع يقول عبد الله بن المبارك: «الإسناد عندي من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء، ولكن إذا قيل له من حدثك بقي»[1].

هكذا ساهم النظر في الإسناد ودراسة أحوال رجاله في وضع معايير دقيقة تفضي إلى معرفة الرواة والتمييز بين العدول وغير العدول، بل إن الأمر لم يقتصر على النظر في حال الراوي من حيث عدالته فحسب، وإنما امتد ذلك إلى البحث في ضبطه ومدى عنايته بتحمل الحديث وقدرته على أدائه من غير وهم ولا تبديل ولا تحريف، فمن اختل ضبطه وتحققت غفلته، رُدَّت روايته، وإن قويت ديانته وثبتت أمانته، والشاهد على ذلك قول ابن أبي الزناد عن أبيه قال:«أدركت بالمدينة مائة كلهم مأمونون ما يؤخذ عنهم شيء من الحديث، يقال ليس من أهله»[2].

ونظرا إلى تنوع الأمزجة، وتفاوت حظوظ النفس الإنسانية في تقدير المصالح والمفاسد، وتعدد مذاهب العلماء في الجرح والتعديل بين التشدد والتساهل والاعتدال، ونظرا إلى ما قد تمليه المعاصرة من حجب الحقيقة، وما تفضي إليه من تجريح الأقران لبعضهم البعض... فإن أهل الصناعة قد اصطلحوا على أدوات تعبيرية دقيقة تمكنهم من معرفة صفة الراوي، فتواضعوا على ألفاظ حديثية متميزة لتزكية الراوي أو للطعن فيه، ورتبوها ترتيبا محكما: ترتيبا يتراوح بين صيغة المبالغة في التوثيق، كقولهم: "فلان أوثق الناس"، و"فلان لا أحد أثبت منه"، وصيغة المبالغة في التجريح، كقولهم: "فلان أكذب الناس"، و"فلان إليه المنتهى في الكذب"... وبين أعلى المراتب وأدناها مراتب تدل عليها ألفاظ مختارة ومعبرة؛ مثلما قعدوا للتجريح قواعد علمية محكمة، ومنها: أن الجرح لا يقبل إلا من أهل الصناعة، وأن الجرح لا يقبل إلا مفسرا، وأن الجرح لا يقبل في شخص اشتهر بالعدالة إلاّ ببيان ثابت، وأنه لا يعتد بتجريح الأقران إلاّ ببرهان قاطع، وأنه إذا تعارض جرح وتعديل فلا يترجح أحدهما إلاّ بمرجح صادع.

1 مقدمة صحيح مسلم.

2 انظر: مقدمة صحيح مسلم، والكفاية468/1.

زيادة على ذلك فقد اعتمدوا الرحلة وسيلة من وسائل التأكد من صحة الأخبار وسلامتها من التزيد، ذلك أن الواحد منهم قد يسافر مسيرة الأيام والليالي في سبيل تحقيق خبر واحد، وهو منهج تأسس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتطور حتى صار وسيلة معتبرة من وسائل التحمل والتحقق، يقول أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي: «كنا نسمع الرواية بالبصرة عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نرض حتى ركبنا إلى المدينة فسمعنا من أفواههم»[1].

وحرصا على تحقيق الإنصاف والموضوعية، ورغبة في حماية حقوق الرواة، فقد عمد علماء الأمة إلى تنظيم مقامات ومجالس للجرح والتعديل حتى لا يستأثر الواحد منهم بإصدار الأحكام على الرواة وانتقاد المرويات، بل إنهم كانوا يعرضون الروايات بأسانيدها ومتونها على المحك الدقيق لتصدر في حقها أحكام منصفة تطمئن إليها النفوس، وفي هذا يقول الإمام الأوزاعي:«كنا نسمع الحديث فنعرضه على أصحابنا كما يعرض الدرهم الزيف على الصيارفة، فما عرفوا أخذنا، وما تركوا تركنا»[2].

وللإشارة فإن مجالس المحدثين كادت أن توسم من لدن من لم يدرك حقيقتها بأنها مجالس أشبه ما تكون بمقامات المدمنين على الغيبة والبهتان، فقد اتُّهموا بكثرة القيل والقال والطعن في أعراض الرجال، غير أنهم دافعوا عن أنفسهم ببيان حقيقة مجالسهم والكشف عن أهدافها، والعرض المنصف لما يدار على موائدهم من أطباق لا تخلو من الفوائد والنكت العلمية، وفي هذا يقول ابن الأثير:«قد عاب من لا يفهم على أهل الحديث الكلام في الرجال، لأنهم لم يقفوا على الغرض من ذلك، ولا أدركوا المقصد فيه، وإنما حمل أصحاب الحديث على الكلام في الرجال، وتعديل من عدلوا، وجرح من جرحوا، الاحتياط في أمور الدين، وحراسة قانونه، وتمييز مواقع الغلط والخطأ في هذا الأصل الأعظم الذي عليه مبنى الإسلام، وأساس الشريعة، ولا يظن بهم أنهم أرادوا الطعن في الناس، والغيبة والوقيعة فيهم، ولكنهم بينوا ضعف من ضعفوه لكي يعرف

1 الكفاية402/1 وما بعدها.

2 الجرح والتعديل21/2.

فتجتنب الرواية عنه والأخذ بحديثه تورعا وحسبة وتثبتا في أمر الدين، فإن الشهادة في الدين أحق وأولى أن يتثبت فيها من الشهادة في الحقوق والأموال، فلهذا افترضوا على أنفسهم الكلام في ذلك وتبيين أحوال الناس، وهو من الأمور المتعينة العائدة بالنفع العظيم في أصول الدين»[1].

بهذه الخطوات السديدة، وبهذه الغيرة الدينية الشديدة، وبهذا النفس العلمي القوي، وبهذا العلو في الإنصاف والموضوعية، تمكن علماء الإسلام من وضع منهج حديثي دقيق لدراسة الأسانيد ونقد المتون، فقد بدأ هذا المنهج متواضعا وتطور شيئا فشيئا إلى أن استوى على عوده وصار عِلما قائما بذاته، بعد أن بُيِّنت أصوله وقعدت قُواعده وحُددت أهدافه،«وقد بنى أئمتنا الكرام رضي الله تعالى عنهم هذا المنهاج الكريم على أسس قويمة وضوابط علمية دقيقة لا لبس فيها ولا غموض، فميزوا بين الثقات والمجروحين من الرواة، والصحيح والضعيف من المرويات، بكل تثبت وإنصاف بعيدا عن الأهواء الشخصية والتعصبات المذهبية»[2].

خاتمة:

في ختام هذا البحث المتواضع أقول: لقد كان من أبرز ثمرات جائحة كورونا الكشف بوضوح تام عن الوجه السيئ لبعض وسائل الإعلام، التي تقنع في غالب منشوراتها بالغث من الأخبار، والرديء من الروايات، حتى إن بعض الصفحات الإلكترونية باتت جائحة شديدة الخطر على حياة الناس، بل أشد وقعا وأكثر تهديدا لأمنهم واستقرارهم وطمأنينتهم.

وإذا كان منهج النقد الشرعي قسطاسا دقيقا يجمع بين الصرامة والإنصاف في تمحيص الأخبار، فقد حان الأوان لتفعيل هذا المعيار،واستثمار قواعده، وتوظيف مسائله لتوجيه وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية، ولاسيما بعد أن شابها الكثير من الدخن والباطل في ترويج الأكاذيب، والإشاعات، والمفتريات...

1 جامع الأصول130/1 وما بعدها.

2 نحو منهج شرعي لتلقي الأخبار وروايتها، ص41.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع.
- الإحكام في أصول الأحكام، تأليف أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي. (ت456هـ)، تحقيق لجنة بإشراف الناشر، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الثانية 1413هـ/1992م.
- أصول التحمل والأداء، تأليف الدكتور ميمون باريش، مطبعة وليلي، مراكش، الطبعة الأولى 2004م.
- الجرح والتعديل، تأليف أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي التميمي(ت327هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى1271هـ/1952م.
- دراسات في الجرح والتعديل، تأليف الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي، مكتبة الغرباء الأثرية، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى1415هـ/1995م.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، تأليف محمد ناصر الدين الألباني(ت1420هـ)، مكتبة المعارف، الرياض، طبعة 1995م/1415هـ.
- سنن ابن ماجه، تأليف أبي عبد الله محمد بن ماجة بن يزيد القزويني(ت275هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
- سنن أبي داود، تأليف أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي(ت275هـ)، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.
- سنن الترمذي المسمى: الجامع الصحيح، تأليف أبي عيسى محمد بن عيسى ابن سورة الترمذي السلمي(ت279هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- صحيح ابن حبان، تأليف أبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي(ت354هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية1414هـ/1993م.

- صحيح البخاري، الموسوم بالجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وسننه وأيامه، تأليف أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي(ت256هـ)، تحقيق الدكتور مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة1407هـ/1987م.
- صحيح الجامع الصغير وزيادته للإمام السيوطي، تأليف محمد ناصر الدين الألباني(ت1420هـ)، أشرف على طبعه زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة1408هـ/1988م.
- صحيح مسلم، تأليف أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري(ت261هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الكفاية في علم الرواية، تأليف أحمد بن علي بن ثابت أبي بكر الخطيب البغدادي(ت463هـ)، تحقيق أبي عبد الله السورقي بمشاركة إبراهيم حمدي المدني، المكتبة الألفية، المدينة المنورة.
- المحلى بالآثار، تأليف أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري(ت456هـ)، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة،بيروت.
- المسند، تأليف أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني(ت241هـ)، مؤسسة قرطبة، مصر.
- معالم السنن، تأليف الإمام حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي(ت388هـ)، مطبوع بهامش سنن أبي داود، إعداد عزت عبيد الدعاس، وعادل السيد، دار الحديث بيروت، الطبعة الأولى1388هـ/1969م.
- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تأليف أبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي(ت656هـ)، تحقيق وتعليق وتقديم محي الدين ديب ستو وأحمد محمد السيد ويوسف علي بدوي ومحمود إبراهيم بزال، دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، دمشق بيروت، الطبعة الأولى 1417هـ/1996م.
- المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل(دراسة منهجية في علوم الحديث)، تأليف الدكتور فاروق حمادة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الثانية1409هـ/1989م.

- الموطأ، تأليف إمام دار الهجرة وعالم المدينة أبي عبد الله مالك بن أنس الأصبحي (ت179هـ)، تحقيق ثلة من علماء المغرب، منشـــورات المجلس العلمي الأعلى، الطبعـة الأولى 1434 هـ/2013م.

نحو منهج شرعي لتلقي الأخبار وروايتها، تأليف الدكتور أحمد بن عبد الرحمن الصويان، سلسلة كتاب المنتدى الإسلامي، دار السليم للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة1421هـ/2000م.

أزمة الخطاب الديني في زمن الجوائح
وباء كوفيد 19 مثالا

الأستاذ الدكتور أحمد غاوش[1]

مقدمة:

للخطاب الديني مجال فسيح للمشاركة الفاعلة في الجهود العالمية التي تبذلها البشرية لمواجهة الجوائح ومنها وباء كوفيد19؛ ذلك أن في إمكان الدين بما يتضمنه من العقائد والمبادئ أن يمنح الإنسان الطمأنينة الروحية، والسلام النفسي الذي يتشوف إليه، وأن يمده بحبل الأمل، وراحة السلوى بما يساعده على مجابهة الضغوط والأحزان التي يفرضها المرض وتوابعه من قبيل: فراق الأحبة، والعزلة الطويلة، والتباعد الاجتماعي، والحرمان من العادات المحببة...، ولم يعد خافيا على أحد ما للعوامل النفسية استواء واعتلالا من التأثير المباشر في تقوية مناعة الإنسان، أو إضعافها، وإمداده بالطاقة الذاتية اللازمة لمقاومة المرض، وعدم الاستسلام لما يفعله بالنظام الحيوي من التخريب والإنهاك. وليس هذا وحده دور الخطاب الديني؛ فإن له ما يقوله لتشجيع المجتمع على الالتزام الصارم بالإجراءات الصحية المتخذة لمحاصرة الوباء والتقليل من انتشاره، وكذا حث العقول على الاجتهاد في سبيل اختراع الأدوية، وابتكار العلاجات؛ تفعيلا لمعنى العموم الوارد في قول النبي صلى الله عليه وسلم:" ما أنزل الله عز وجل داء، إلا أنزل له دواء، علمه من علمه، وجهله من جهله"[2]. فالمرض، وإن استعصى واستشرى له علاج يستشفى به يقبع في مكان ما داخل مكونات الطبيعة التي سخرها الله للخلق، ينتظر من يستخرجه ويكتشفه بعقل وقاد ونظرة ثاقبة. إلا أن المراقب للخطاب الديني يفاجأ في كثير من الأحيان بتواتر خطابات دينية يتم ترويجها بين الجماهير، هي عند تحليلها علميا، ودراسة

---

1 أستاذ بجامعة القاضي عياض، مراكش - المغرب، وأستاذ زائر بجامعة محمد الخامس – أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، وعضو المجلس العلمي المحلي بمراكش.

2أخرجه: أحمد، مسند عبد الله بن مسعود، رقم:3922مسند أحمد ط الرسالة (7/ 38)؛ ابن ماجه،كتاب أبواب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، رقم:3438، سنن ابن ماجه ت الأرنؤوط (4/ 498).

مضامينها منهجيا، تعبير صريح عن وجود أزمة في هذا الخطاب تتعدد مظاهرها وصورها، وتتضخم عواقبها وآثارها ما لم يُتدارك الأمر بالتشخيص الصحيح، والمعالجة المناسبة.

وهذه الدراسة محاولة في هذا الطريق؛ فهي تسعى إلى تسليط الضوء على أهم مظاهر تلك الأزمة، وتحليل أسبابها الفكرية في الماضي والحاضر، على أمل البلوغ إلى أرضية شرعية مشتركة ننطلق منها للتعامل مع ظواهر الكون حولنا، ومن ضمنها: الجوائح والأوبئة التي تنزل بمجتمعات الإنسان.

أولا: التفسير الانتقامي للجوائح

تشيع في الفكر الإسلامي قديمه وحديثه، رؤية تفسيرية تميل إلى إلباس كل ما يقع في العالم من الكوارث، والجوائح، والأمراض، والمصائب، لباسَ النقمة الإلهية، والغضب السماوي.

وقد تجدد هذا الخطاب وذاع في خضم جائحة كوفيد19 الحالية؛ فسمعنا وقرأنا لكثيرين ممن ينتسبون للدائرة الدينية لا يترددون في الجزم بأن هذا المرض عقوبة ربانية نزلت بالناس، أو ببعضهم، جراء ما اقترفته أيديهم من الخطايا، وجزاء وفاقا على ما انغمسوا فيه من الآثام والبلايا[1].

ثم زاد بعضهم في الطنبور نغمة؛ فروج في الناس أن إغلاق المساجد، ومنع الجماعات والجمعات؛ توقيا من المرض واحترازا من العدوى، إشارة - بل برهان - على غضب الله على خلقه، وتسخطه لعباده حتى إنه منعهم من دخول بيوته، وحرمهم من الورود على حرمه، وأبعدهم عن الطواف بكعبته...

1 ينظر: للتمثيل فقط مقال: مسلمون ومسيحيون ويهود وهندوس.. رجال دين يصرون: كورونا "غضب إلهي". المنشور بموقع: ارفع صوتك:
https://www.irfaasawtak.com/extremism/2020/02/28 تاريخ الدخول: 22-04-2020.
ولست محتاجا للتذكير بأن المشكلة عامة عند أهل الديانات والملل، وليست مقصورة على المسلمين وحدهم، بل قد ظهرت لدى غيرهم تصرفات وتفسيرات لأزمة كورونا، تنم عن وجود أزمة فكرية لدى العقل الديني كله، غير أن مرادنا الحديث عما يجري في ساحتنا الفكرية؛ إيثارا للتدقيق، وتفضيلا لمنهج الاختصاص.

ولا تخطئ العين ملاحظة أن هذا اللون من التفسير صادف قبولا واسعا عند شرائح الناس المختلفة: متعلمها وجاهلها، وفقيرها وغنيها، يساعد على ذلك ما صيغ به من عدة حجاجية تستثمر بالأساس توظيف الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية ضمن سياقات تأويلية مركبة.

وأعتقد أن التسرع في إعلان رابط بين الجوائح عموما، وكورونا تخصيصا، بالعقاب الإلهي، أحد مشكلات الخطاب الديني التي ينبغي التفكير في حلها بتروٍّ وبصيرة وحكمة، وتجاوزها من داخل الخطاب الشرعي نفسه، وذلك عبر تأسيس رؤية تفسيرية مقابلة ترتكز في حجاجها النظري على المرتكزات الآتية:

1. إن المحكم الثابت بنص القرآن الكريم هو أن لا تلازم طردي بين أفعال الإنسان والعقوبة في الدنيا، وأن الحساب والعقاب تنصب له موازين القسط يوم القيامة، ولا يستثنى من ذلك إلا من حق عليهم القول من أقوام الأنبياء السابقين، وعتاة المكذبين ممن مضى قبل أمة النبي صلى الله عليه وسلم.

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾[1]

ونظيره أيضا قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا**﴾[2]

والمعنى الظاهر منهما أن الحق سبحانه يتجاوز عن أخطاء الخلق، ويعفو عن ظلمهم وعصيانهم، ويؤخرهم إلى اليوم الموعود الذي تحاسب فيه كل نفس على ما احتقبت في هذا العالم الدنيوي من أوزار وخطايا.

1 النحل، الآية 61

2 فاطر، الآية 45

قال الطبري في تفسير خاتمة سورة فاطر:" ولو يعاقب الله الناس ويكافئهم بما عملوا من الذنوب والمعاصي واجترحوا من الآثام ما ترك على ظهرها من دابة تدب عليها (وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) يقول: ولكن يؤخر عقابهم ومؤاخذتهم بما كسبوا إلى أجل معلوم عنده، محدود لا يقصرون دونه، ولا يجاوزونه إذا بلغوه"[1].

ثم تأملْ عظيمَ رحمة الله وشمول مغفرته - التي يذهل عن استحضارها كثيرون في مقامات الوعظ – عندما علق الحساب والعقاب حتى في وقت حلول أجله باسم الله (البصير) الذي هو أقرب إلى معنى: اللطف والعفو والمغفرة والتجاوز مقارنة مع اسم الله (العليم) المحيل على معاني الإحصاء والاطلاع الكامل المستوجب للمعاتبة والمحاسبة والمعاقبة.

قال الرازي:" وقوله: بصيرا اللفظ أتم في التسلية من العليم وغيره لأن البصير بالشيء الناظر إليه أولى بالإنجاء من العالم بحالة دون أن يراه"[2].

ولقد كان المشركون وهم أهل التكذيب المحض، والعصيان الصرف يستنزلون العذاب، ويستعجلون العقوبة، فكان الرد القرآني عليهم أن ذلك مؤخر إلى أجل مسمى، أو أنه مدفوع عنهم بوجود الصالحين، أو باستغفارهم.

ولا يجادل أحد في أن حال الأمة المسلمة اليوم خير من حال أولئك المشركين: اعتقادا وعملا، وأقرب إلى الاستغفار والأوبة قولا وفعلا، حتى لو ذهبنا في تقييم واقع ووزن حالة تدينهم مذاهب التنطع والغلو والإسراف.

2.إن التفسير الانتقامي للكوارث والجوائح، يستبطن تأليا صريحا على الله جل وعلا، ورجما بالظنون في أمر من أمور الغيب لا ينبغي للمؤمن الحق أن يورط نفسه فيه.

1 الطبري، ابن جرير تفسير الطبري = جامع البيان (20/ 486)

2 الرازي، فخر الدين تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (26/ 249)

ومن مقررات الاعتقاد الإسلامي أن مسائل الثواب والعقاب، والفصل بين العباد ليس لأحد من الخلق، مالم يكن نبيا مرسلا أوحي إليه بتعيين المصائر، والجزم بمآلات الخلائق عند الله.

وكيف يُذهل عن هذا المقرر، والقرآن صريح في بيان هذا المعنى، قال تعالى مخاطبا نبيه الكريم، فما بالك من دونه:﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ** ﴾[1] .

والرجوع إلى التراث التفسيري وما جاء فيه من روايات أسباب النزول، والحوادث المحتفة بتنزل الآية، يوقف على ما فيها من عميق الدلالة والإرشاد إلى ترك باب التألي، ومجانبة طريق الحكم على الخلق، وإن بدا من ظواهرهم ما يسهل فيه الحكم، ويزول في أمره الالتباس.

فقد أخرج أحمد في سبب نزول الآية عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (لما كان يوم أحد كسرت رباعية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشج في وجهه، قال: فجعل الدم يسيل على وجهه، فجعل يمسح الدم عن وجهه، ويقول: "كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى الله؟ ". قال: فأنزل الله الآية)[2].

وأخرج البخاري في صحيحه من حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقنت في صلاته فيقول (اللَّهُمَّ العَنْ فُلاَنًا وَفُلاَنًا وَفُلاَنًا، بَعْدَ مَا يَقُولُ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾[3].

وهؤلاء الذين كني عنهم في رواية البخاري، كشفت أسماءهم روايات أخرى عند أحمد والترمذي وغيرهما، وهم بعد معرفة أعيانهم مستحقون للدعاء عليهم من قبل نبيهم في ذلك الوقت، لكن الله

1 آل عمران، الآية 128.

2 أخرجه: مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد، رقم:1791 صحيح مسلم (3/ 1417)؛ أحمد، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه، رقم: 13138مسند أحمد ط الرسالة (20/ 390).

3 أخرجه: البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ليس لك من الأمر شيء، رقم: 4559 صحيح البخاري (6/ 38).

اختار له الأفضل له ولهم، وهو انتظار هدايتهم بدل هلاكهم، وكذلك كان؛ فأسلم فريق من أولئك المذكورين، وحسن إسلامهم.

وقد وردت في السنن ودواوين الأخبار أحاديث في التنصيص على أن أمر الفصل بين الخلق ليس من شؤون الخلق، بل هو حق حصري لله سبحانه وتعالى، ومن ذلك:

قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مالك من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (إِذَا سَمِعْتَ الرَّجُلَ يَقُولُ: هَلَكَ النَّاسُ. فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ)[1]. وأخرجه مسلم في صحيحه، وقال صاحبه أبو إسحاق عقبه(لَا أَدْرِي، أَهْلَكَهُمْ بِالنَّصْبِ، أَوْ أَهْلَكُهُمْ بِالرَّفْعِ)[2].

وعلى كلتا الروايتين يكون المغزى من الحديث الزجر الشديد عن إصدار الأحكام على الآخرين بما يتضمن احتقارهم، وعزل النفس دونهم، واعتبارها الناجية الوحيدة من بين جماهير الهالكين، وكم يعج خطابنا الديني المعاصر بأمثلة كثيرة من هؤلاء الذين يوحي كلامهم كأنهم حصلوا صكوك النجاة لأنفسهم ومن يشايعهم في يد، وفي اليد الأخرى أختام الوسم والإدانة يوزعونها على العالم سواهم.

ويعظم قبح مثل هذه المسالك في أوقات الأزمات، كأزمة الوباء المستجد حاليا (كوفيد19)، حيث يكون الناس أحوج ما يكونون إلى من يرفع معنوياتهم، ويخفف عنهم بعض ما يثقل كواهلهم من الأعباء النفسية والروحية...

3.الجوائح والكوارث لا تفرق بين المجتمعات؛ فهي تصيب بتقدير الله المجتمع الطالح كما الصالح، بل قد يكون أكثر الناس إيمانا وتقوى أشدهم بلاء، فقد عقد ابن حبان في صحيح باب عنونه يقوله: "ذكر البيان بأن البلايا تكون بالأنبياء أكثر ثم الأمثل فالأمثل في الدين"[3].

1 أخرجه مالك، كتاب الكلام، باب ما يكره من الكلام، رقم:984موطأ مالك ت عبد الباقي (2/ 984).

2 مسلم، أبو الحسن صحيح مسلم (4/ 2024).

3 ابن حبان، صحيح ابن حبان (7/ 184).

وفيه أخرج حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل: (يا رسول الله من أشد الناس بلاء؟ فقال الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل: يبتلى العبد على حسب دينه)[1].

وإذاً فلا تلازم بين وقوع جائحة ما وفساد المجتمع أو عصيانه أو فسوقه، ولا يقول بخلاف ذلك إلا من غفل عن سجلات التاريخ، وذهل عن مسطورات الحوادث الناطقة بأن أكثر المجتمعات تدينا، وأخلصها التزاما بتعاليم الدين، شهدت من هذه المصائب والمحن شيئا كثيرا.

واستقصاء كل ما دونه التاريخ الموثق بهذا الصدد غير ممكن، لكن قد يغني عنه الإلماح إلى أن مجتمعا كمجتمع الصحابة زمن الفاروق رضي الله عنه قد شهد من النوازل المتتابعة ما يعلمه قارئ السير والتواريخ، وفيها هلك خيار الناس من الصحب الكرام وأبنائهم وتابعيه بإحسان.

قال الطبري في تاريخه:"وفي هذه السنة - أعني سنة ثمان عشرة - أصابت الناس مجاعة شديدة ولزبة، وجدوب وقحوط، وذلك هو العام الذي يسمى عام الرمادة"[2].

ولم تكن المجاعة الشديدة البلاء الوحيد الذي أصاب الناس، فانضم إليها الطاعون المُفْني الذي عرف بطاعون عمواس، قال ابن الأثير:" وفي سنة ثماني عشرة أصاب الناس مجاعة شديدة وجدب وقحط، وهو عام الرمادة، وكانت الريح تسفي ترابا كالرماد فسمي عام الرمادة، واشتد الجوع حتى جعلت الوحش تأوي إلى الإنس، وحتى جعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها. وفيه أيضا كان طاعون عمواس"[3].

فأنت ترى أن هذا هو القرن المفضل، والجيل الأكمل، ومع ذلك لم يسلم من حلول الأوبئة به، وانتشار الأمراض بين أهله، قال الجلال السيوطي يلخص الحالة الوبائية للقرن الأول الهجري:"

1 أخرجه: ابن حبان، كتاب الجنائز، باب ذكر البيان بأن البلايا تكون بالأنبياء أكثر ثم الأمثل فالأمثل في الدين، رقم: 2921صحيح ابن حبان (7/ 184)؛ النسائي، كتاب الطب، باب أشد النساء بلاء، رقم:7440 السنن الكبرى للنسائي (7/ 47)؛ الدارمي، كتاب الرقائق، باب في أشد الناس بلاء، رقم:2825 سنن الدارمي (3/ 1831).

2 الطبري، ابن جرير تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، (4/ 96)

3 ابن الأثير، عز الدين، الكامل في التاريخ، (2/ 374)

القرن الأول وقع فيه (الطاعون) مرات متعددة، وفيه من الصحابة والتابعين ما لا يحصى، وهم خيار الأمة..."[1].

ولا تخلو فترة من فترات تاريخ الإسلام مشرقا ومغربا من حلول الكوارث الدورية، والأوبئة الموسمية التي كانت تحصد بسيفها ألوف الأرواح، وتخلي المدائن والبلدان، سواء كان الزمان زمان صلاح واستقامة، وانحراف ومجانة.

ولا يماري في ذلك إلا من كان حظه من القراءة التاريخية ضعيفا، أو أعمى بصره عن إدراك ما فيها من السنن السارية، والقوانين الجارية التي وضعها الخالق سبحانه نظاما للكون تضبط حركته، ويخضع لها الأحياء بما فيهم بنو الإنسان من غير ما تفضيل أو تفريق.

وأسعدهم جميعا من تعامل مع تلك السنن؛ فأحسن فهمها، واجتنب الاصطدام بها، ثم عمل على استثمار قوتها لصالحه وصالح مجتمعه وعموم جنسه.

4.إن للجوائح والكوارث والأوبئة أسبابا موضوعية، ولظهورها عوامل طبيعية، وربطها بقضايا الإيمان والكفر، والطاعة والعصيان، تشتيت للأنظار عن السبب الموضوعي، وإدخال للعقل المسلم في مسارات تأويلية بعيدة عن الواقع تفقده القدرة على الربط بين العلل والمعلولات، وتفشل طاقته في البحث – موازاة مع العالم – عن السبب المنطقي للجائحة أيا كانت، ثم ابتكار علاج نافع يداويها، أو حل مجرب يقلل من أضرارها.

ويضاف إلى هذه المفسدة تناقض منطقي لا فكاك منه حاصله: أن الوباء أو الكارثة إن كان عقابا إلهيا للإنسان كما يعتقد بعضهم؛ فإن السعي إلى التحرز منه بالحجر الصحي، وترك مخالطة المرضى، والوقاية بطرقها المتعددة، أو دفعه بالكلية عبر التداوي بالعلاجات والتطعيمات واللقاحات،

1 السيوطي، جلال الدين، ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، (ص:167)

أمر لا فائدة منه أصلا، وغير مقدور عليه أيضا؛ لاستلزامه إمكان الانفكاك عن قبضة القدرة والإرادة الربانية التي لا حدود لها.

وكل ذلك محال قطعا، وساقط عقلا وشرعا؛ فكيف يا ترى ستجتمع في عقل واحد أمثال هذه التناقضات، ثم لا يكون من نتيجتها التشكيك في الإيمان، وفتح باب النقد لعقائد الإسلام.

ثانيا: التصور غير العلمي للجوائح

لا ينفك الناس في مجتمعاتنا الإسلامية يرددون الحديث عن أن الإسلام دين العقل والعلم، وهذه حقيقة لا ريب فيها ولا امتراء، ولكن هذا الكلام يتحول في حالات متواترة إلى مجرد شعار لا طائل من ورائه، عندما نعجز عن تطبيقه على أرض الواقع، وجعله مجسدا عمليا في التعاطي العلمي مع الظواهر الكونية، والتحليل التجريبي للمجريات والوقائع.

آية ذلك، أننا - مثلا - بدل التركيز على فهم الوباء المستجد (كوفيد19) وتحليله، ودراسة خصائصه، ومكوناته، وكيفية اشتغاله... شط كثير من أهل الرأي في عالمنا العربي والإسلامي ذات اليمين وذات الشمال بعيدا عن الجوهر، بحثا عن تفسيرات للوباء أقل ما يقال عنها إنها بلا دليل يدعمها، إن لم نتجرأ على وصفها بالخرافة والخيال الجامح.

مثال ذلك أن لا يتردد بعض المشايخ المرموقين في الربط بين الوباء المستجد وبين شبكات الجيل الخامس والنظام الكهرومغناطيسي للأرض...[1] وأيضا ما أذاعه بعضهم ممن يحمل شهادة دكتوراه بأن الوضوء – كذا- يحمي من مرض كوفيد19، وأن منظمة الصحة العالمية قد أقرت بذلك، وأن هذا داخل ضمن دائرة الإعجاز العلمي للإسلام[2].

---

1 ينظر: مقال: فيروس كورونا: جدل بعد ربط مفتي مصر السابق علي جمعة الجائحة بـ"شبكة الجيل الخامس" على موقع بي بي سي عربي: https://www.bbc.com/arabic/trending-52272623 بتاريخ:2020/4/22

2 ينظر: مقال: رحلة كورونا من أرض الكفّار... المنشور بجريدة النهار اللبنانية : https://www.annahar.com/article/1139972 بتاريخ: 2020/4/22

ومثاله أيضا ما انتشر بين الناس من أمل موهوم بزوال المرض تبعا لطلوع نجم الثريا استنادا إلى ما يروى من حديث:" إذا طلعت الثريا غدوة ارتفعت العاهة عن كل بلد"[1].

والخطأ في هذا الخطاب الشائع في عالمنا الإسلامي كامن في أنه يؤسس الثقافة الدينية للجمهور على معطيات غير دقيقة، لن يتأخر العلم والواقع في تكذيبها؛ فيورثهم ذلك تقليلا من شأن الدين كله، إضافة إلى أنه يدعو الناس بطريق غير مباشر إلى المجازفة في التعامل مع الخطر،وبالتالي إدخال الداء على أبدانهم، والتسبب في إهلاك أنفسهم، أو غيرهم بناء على أمور لا دليل يسندها إلا أن تكون العواطف والمشاعر مدرجة ضمن الأدلة التجريبية.

إن هذا اللون من التفكير والخطاب ليس وليد العصر، ولا هو من مبتكرات هذا الدهر، بل العطب قديم، والداء متأصل من قرون متطاولة، ومن شاء الوقوف على حقيقة ذلك، فليرجع إلى الكتب والرسائل التي وضعها علماؤنا عن الطواعين والجوائح؛ فإنه سيجد فيها بعضا مما نتحدث عنه، أعني: غلبة الفكر غير العلمي، وتفضيل الخرافة وسيلة لتفسير الأوبئة والأمراض.

وأولئك الأعلام من قدماء الفقهاء معذورون غير محرج عليهم في شيء، بالنظر إلى المستوى العلمي المتواضع للعلوم الطبية والحيوية الذي كان يعرفه عصرهم، غير أن اللوم والتثريب كله يقع على الإنسان الذي يعيش ثورة العلم الحديث بما تمثله من تطور وتقدم معرفي، ثم ينحرف به الاتجاه إلى الانتصار للرؤى غير العلمية في تصور الأوبئة والتعامل معها.

ولنضرب أمثلة للخلل في تصور مؤلفي التراث، وكتَّابه، لا نريد بذلك التقليل من شأن من نذكرهم، ولا الإزراء عليهم، حاشا وكلا أن ينتقص من أقدار قوم اجتهدوا وفق ما أداهم إليه نظرهم الديني، وفهمهم لأدلة الشريعة ومقاصدها، وعلاقة نصوص بالحس والتجربة ودليل التجربة.

---

1 أخرجه: أبو نعيم، مسند أبي حنيفة رواية أبي نعيم (ص: 138) أحمد، مسند أحمد ط الرسالة، (14/ 192) بلفظ:" إذا طلع النجم".

1- أول من أحب التمثيل بقوله نظرا لتأثير خطابه فيمن جاء بعده، الشيخ ابن قيم الجوزية، فإنه رحمه الله قد رجح أن مرض الطاعون لا دواء يرجى له أصلا، وأنه لا دافع له بالكلية، وأن الأطباء وأهل المعرفة بخواص الأبدان ليس لهم قول يسمع في هذا الشأن، قال:"وهذه العلل والأسباب ليس عند الأطباء ما يدفعها، كما ليس عندهم ما يدل عليها، والرسل تخبر بالأمور الغائبة، وهذه الآثار التي أدركوها من أمر الطاعون ليس معهم ما ينفي أن تكون بتوسط الأرواح، فإن تأثير الأرواح في الطبيعة وأمراضها وهلاكها أمر لا ينكره، إلا من هو أجهل الناس بالأرواح وتأثيراتها، وانفعال الأجسام وطبائعها عنها، والله سبحانه قد يجعل لهذه الأرواح تصرفا في أجسام بني آدم"[1].

وهكذا يتوغل ابن القيم في ربط الأمراض بالأرواح الشريرة والخبيثة، ويجهد ذهنه في إبراز تأثير دفع الأولى، وإبعاد الثانية على الصحة البدنية إلى أن يصل إلى إصدار حكم عام يستشف منه الاحتقار البالغ لعلم الطب كله، وتشبيهه في هذا المحل بطب العجائز!

قال بعد كلامه السابق:" الطبيعة الإنسانية أشد شيء انفعالا عن الأرواح وأن قوى العوذ، والرقى، والدعوات، فوق قوى الأدوية، حتى إنها تبطل قوى السموم القاتلة"[2].

إن أخطر شيء تتضمنه رؤية ابن القيم ما فيها من المصادرات والأحكام الجازمة التي من شأنها أن توصد الباب أمام المعرفة العلمية والبحث والاكتشاف، ولا سيما بعد نصبه العدواة بين الطب الدنيوي والطب النبوي.

ومن شأنها أيضا أن تعوق حركة العقل المسلم إن هو تشوف لاكتشاف طبي ينقذ حقيقةً الأرواحَ من براثن هذا الطاعون الفتاك وغيره، كما حصل بعد ذلك بقرون على يد علماء – غير مسلمين – حددوا الجرثومة المسببة لمرض الطاعون، واكتشفوا ما يقضي عليها من العلاجات، والأمصال، واللقاحات التي جعلت خطره والأخطار المشابهة في الأزمنة المنصرمة، حديثا من أحاديث

1 ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد (4/ 36)

2 ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد (4/ 37)

الماضي انتهى منه العلم، ليبدأ رحلة جديدة في مواجة الأخطار المستجدة، والمنهج العلمي المتبع في مواجهة الطاعون ونحوه، قد يفشل أحيانا في التغلب على تحد ما في مرحلة زمنية معينة، لكنه أفضل ما لدى البشرية لمواجهة التحديات.

2- وثاني من أحب التمثيل برؤيتهم في هذا المضمار، الإمام ابن حجر العسقلاني، فإنه رحمه الله، كتب كتابا شهيرا في موضوع الطاعون عنوانه:" بذل الماعون في فضل الطاعون".

وفيه عقد فصولا مطولة لتقوية الأخبار المروية في إرجاع مرض الطاعون إلى " وخز الجن للإنس" وهي مسألة من قضايا الغيب التي ينبغي أن يتحوط لها في الرواية، وأن يتشدد في منهج قبول ما جاء في إثباتها؛ لأنها أمر سمعي لا يثبت بالظن الغالب، فكيف بالمتساوي على أحسن الفروض[1].

ثم بعد ذلك يخلص إلى اعتبار هذا الوخز السبب الرئيس للوباء، مع أنه اطلع على كلام " حذاق الأطباء" كابن سينا، وابن النفيس، بل الفقهاء كالغزالي، والقاضي عياض، والنووي، الذين نظروا إلى الوباء بعين تجريبية فاحصة ترصد الأعراض، وتتقصى الأسباب، ومن ذلك قول ابن سينا:" الطاعون مادة سمية تحدث ورما قتالا يحدث في المواضع الرخوة والمغابن من البدن وأغلب ما تكون تحت الإبط أو خلف الأذن أو عند الأرنبة"[2].

لكن الإمام ابن حجر أصر على نسبة المرض إلى أسباب غير طبيعية مكذبا بذلك المشاهدات – وهو المعاصر لعدد من الطواعين – فلم تزده كثرتها، وتضافر الأدلة المحسوسة إلا تكذيبا...

وقد نقل عنه السيوطي أنه اعترض عليه في تقريره ذاك باعتراض وجيه مفاده: أن الطاعون مرض له عادات معلومة تقترب من الاطراد، مما يدل على العلاقة السببية بينه وبين عوامل معينة.

---

1 قال النووي:" الذي عليه جماهير المسلمين من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من المحدثين والفقهاء وأصحاب الأصول، أن خبر الواحد الثقة حجة من حجج الشرع يلزم العمل بها، ويفيد الظن ولا يفيد العلم". شرح النووي على مسلم (1/ 131)

2 العسقلاني، ابن حجر بذل الماعون في فضل الطاعون، (ص:98)

من ذلك أنه يلزم بعض البلدان، ويأتي في فصول بذاتها دون غيرها، وهذه العادة والاطراد فيه، دليل على أن الأمر طبيعي محض، ولا صلة له بعالم الغيب إلا من جهة التقدير الرباني، والحكمة الإلهية الذين لا يخرج عنهما شيء في هذا الكون البتة.

فكان جواب الإمام ابن حجر عن هذا الاعتراض الوجيه بقوله:" فإن قيل: إذا كان من طعن الجن؛ فمقتضاه أنه لا يختص بوقت. فالجواب: أن الله أجرى العادة بذلك، ولو شاء لم يخصه بوقت، كما أنه سبحانه أجرى العادة بزيادة النيل في الصيف، وبوقوع المطر في الشتاء، ولو شاء لم يخص ذلك بوقت"[1].

وعندما نمثل بابن حجر لا نزعم أنه في ما قال مخترع لمذهب، بل هو جار على مسلك درج فيه فقهاء سبقوه كابن القيم، ومعاصرون كالبدر العيني والسيوطي وغيرهما، وهم في الجملة كونوا فكرتهم عن مرض الطاعون بالاستناد إلى الرواية لا إلى الواقع، وإلى المنقول لا المعقول، مع أنه كان في الإمكان الجمع بين العقل والنقل بطرائق عدة من بينها:

أ- أن يقال إن الحديث الوارد في الباب مختلف فيه اختلافا شديدا، وأن تصحيحه من الحافظ ابن حجر لم يتهيأ إلا بالجمع بين الطرق، وتقوية بعضها ببعض، والبحث عن الشواهد والمتابعات، وهذا السبيل إن كان مقبولا في الأبواب العملية التطبيقية، فإنه في السمعيات أضعف من أن يفيد علما يركن إليه لإثبات عقيدة من هذا الحجم؛

ب- على التسليم بالصحة، فإن بالإمكان أن يقال: إن المراد بالطاعون في الخبر شيء آخر غير هذا الذي تدل الشواهد الموضوعية على أن له أسبابا محددة، وأن لانتشاره عادات معلومة، وبذلك يزول الإشكال؛ لأن تنزيل الحديث على خصوص الطاعون مع أنه اسم عام لطيف واسع من الأعراض نوع من التأويل لا يساعد عليه الدليل.

ثالثا: أنموذج مشرق للتحليل العلمي للجوائح في التراث الإسلامي

1 السيوطي، جلال الدين ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، (ص:173)

لسنا نقصد من إيراد ما سبق أن الخطاب الديني في التراث الإسلامي لم يشهد حالات مشرقة لتحليل الأوبئة التي تصيب الإنسان، وإخضاعها لمنطق الملاحظة، والتجريب، والاستنتاج، بل أجزم بوجودها على اختلاف الأمكنة والعصور، ولكنها – للأسف الشديد – لم تصل درجة التحول إلى خطاب ديني سائد: تؤمن به النخبة العالمة، وتذيعه بوسائلها الإبلاغية في الجمهور والعامة.

لقد كان لسان الدين ابن الخطيب أحد الأصوات النادرة في تاريخ الفكر الإسلامي التي صدحت باقتراح قراءة علمية للوباء الذي أصاب بلاد الأندلس سنة(749هـ)حين وضع جزءا صغيرا سماه:" مقنعة السائل عن المرض الهائل".

وفيه يعرض جملة من القضايا التي يشتبك فيها فهم الدين وتأويله مع مجربات الحس، ومتأكدات التجربة، مع تقديم الحلول العلمية لفض ذلك الاشتباك من غير خروج على قواعد الدين، أو افتئات على العقل والعلم، ومن ذلك قوله:" فإن قيل: وكيف نسلم دعوى العدوى وقد ورد الشرع بنفي ذلك؟ قلنا: وقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء، والحس، والمشاهدة، والأخبار المتواترة، وهذه مواد البرهان"[1].

إن الشيخ ابن الخطيب ينتصر لما ظهر له أنه منطق العلم، ومقتضى التجربة والبرهان الذي لا ينبغي أن يترك مع يقينته حين يعارض بظنيات محتملة في ثبوتها، وأكثر احتمالا وظنية في دلالتها.

ولأجل ذلك يقرر قاعدة من قواعد نقد المتن، وإعلال المرويات المسلم بها نظريا في الدرس الحديثي كما يعلم ذلك بالرجوع إلى المظان[2]، وهي أن مناقضة يقينيات الحس، ومعارضة قطعيات

1 ابن الخطيب، لسان الدين، مقنعة السائل عن المرض الهائل، (ص:72)

2 ينظر على سبيل المثال كتاب: المنار المنيف في الصحيح والضعيف = نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول لابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، حلب: مكتبة المطبوعات الإسلامية، ط1، 1970. ودراسة د. صلاح الدين الأدلبي، منهج نقد متن الحديث عند علماء الحديث النبوي، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط1، 1983.

الواقع من موجبات التأويل في الدليل السمعي؛ تأكيدا لقاعدة " لا تعارض بين صحيح النقل وصريح العقل".

قال رحمه الله في تطبيق هذا التقعيد: "ومن الأصول التي لا تُجهَل: أن الدليل السمعي، إذا عارضه الحس، والمشاهدة؛ لزم تأويله، بما ذهب إليه طائفة ممن أثبت القول بالعدوى. وفي الشرع مؤنسات عديدة كقوله:" لا يورد ممرض على مصح"، وقول الصاحب:" أفر من قدر الله إلى قدر الله"..."[1].

ومما له شديد تعلق بهذا البحث أن الشيخ لسان الدين قد نبه في هذا الجزء اللطيف على خطورة ما ينطوي عليه الخطاب الديني المختل من الأضرار والمفاسد، وما يجلبه على عموم الأمة من المهالك والمعاطب، ليس آخرها إتلاف النفوس واحترامها، بعد إفساد العقول وتغييبها، وتعطيل القرائح وتجميدها.

يقول عن الجدل العقيم حول حصول العدوى من الأمراض مناقضة للقطعيات المشاهدة:" وارتكاب اللجاج فيه ألحم في الناس سيف الطاعون، وسلط الله عليهم من بعض المفتين من اعترضهم بالفتيا اعتراض الأزارقة من الخوارج للناس بالسيوف؛ فسالت على شبا (أطراف) أقلامهم من النفوس والمهج ما لا يعلمه إلا من كتب عليهم الفناء بسببه - سبحانه – وإن كان بريء القصد من المضرة؛ وقوفا مع ظاهر لفظ الحديث"[2].

والرجل في هذا النص يضع أصبعه بحذق بالغ على واحدة من المشكلات التي تأخر الفكر الإسلامي كثيرا في علاجها، ولا زال الوضع قائما كما كان، وهي الخلل في تعامل العقل المسلم مع الواقع، وافتراض بعض أطيافه أن سنن الله السارية في الكون يمكن أن تحابي، أو تجامل، أو تصانع؛ ولذا كان من المحتم إصلاح الرؤية، وتجديد الخطاب من هذه الوجهة، وإلا عانينا طويلا، وأهدرنا كثيرا من الزمن والطاقة فوق ما أهدر، ولا سيما في أوقات الأزمات كالجوائح المرضية مثلا. ذلك بأن

1 ابن الخطيب، لسان الدين، مقنعة السائل عن المرض الهائل، (ص:74و75)

2 ابن الخطيب، لسان الدين، مقنعة السائل عن المرض الهائل، (ص:74)

كل جهد يمكن أن تقوم به الدول والحكومات والمؤسسات والهيآت والنخب العالمة، تستطيع نسفه، أو على الأقل التشويش عليه، خطبة من متكلم فصيح يجيد توظيف نصوص الدين لخدمة أغراضه، أو منشور بليغ على إحدى الصفحات الاجتماعية يكتبه صاحبه مستصحبا ما يلزم من البهارات اللازمة لخلق حالة من التهييج العاطفي والحماس غير المعقلن.

خاتمة

على امتداد الدراسة حاولت قدر المستطاع التنبيه على أبرز مظاهر الأزمة التي تسم خطابنا الإسلامي المتعلق بالتعاطي مع الكوارث الصحية بمناسبة ما نعيشه مؤخرا من انشار عالمي لوباء كوفيد19 لم يستثن جهة من جهات المعمور.

والاتجاه العام لها هو ممارسة فضيلة النقد الذاتي بكامل الشجاعة حتى لو استدعى المقام مراجعة بعض ما كتبه سلفنا الصالح من الفقهاء والعلماء، ومحاورته، والتعقيب عليه، كل ذلك سعيا لإصلاح الواقع، وإنتاج خطاب بديل ينطلق من الأصول الثابتة، ويهيئ متلقيه من المسلمين للانخراط الفاعل في حركة العالم من حولهم، وهو أمر ينطلق أساسا من الفهم العلمي الصحيح للواقع ومنه الأمراض والأوبئة.

المصادر والمراجع

- ابن الأثير، عز الدين،الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1997.
- ابن حنبل، أحمد، المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، دمشق: مؤسسة الرسالة، ط1، 2001م.
- ابن الخطيب، لسان الدين، مقنعة السائل عن المرض الهائل، تحقيق: حياة قارة، الرباط: دار الأمان، ط1، 2015.

- الرازي، فخر الدين، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط3، 1420 هـ.
- السيوطي، جلال الدين، ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، تحقيق: محمد علي البار، دمشق: دار القلم، 1997.
- الطبري، ابن جرير، تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، بيروت: دار التراث، ط2، 1387 هـ.
- الطبري، ابن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دمشق: مؤسسة الرسالة، ط1، 2000.
- العسقلاني، ابن حجر، بذل الماعون في فضل الطاعون، تحقيق: أحمد عصام الكاتب، الرياض: دار العاصمة، ط1، 1411هـ.
- ابن القيم، شمس الدين، زاد المعاد في هدي خير العباد، بيروت: مؤسسة الرسالة، الكويت: مكتبة المنار الإسلامية، ط27، 1994.
- ابن ماجه،، سنن ابن ماجه، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد - محمَّد كامل قره بللي - عبد اللطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، ط1، 2009.
- أبو نعيم، الأصبهاني، مسند الإمام أبي حنيفة رواية أبي نعيم، تحقيق:نظر محمد الفاريابي، الرياض: مكتبة الكوثر، ط1، 1415 هـ.
- النووي، محيي الدين، شرح مسلم = المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، بيروت:دار إحياء التراث العربي، ط2، 1392هـ.

أخلاق البحث العلمي في زمن كورونا

الدكتورة سميرة عموري[1]

مقدمة

يعد البحث العلمي مظهرا من مظاهر نهضة الأمة وتميتها، إنه ضرورة حضارية لتحقيق عمارة الأرض وإصلاحها التي هي من مقتضيات مبدأ الاستخلاف في الأرض، قال تعالى ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة**﴾[2]. وتزداد أهمية البحث العلمي في حياة الإنسان في كونه مجالا مفتوحا لتحقيق أكبر قدر من المعرفة العلمية الدقيقة والموثقة، بعيدا عن التخمينات والظن والرؤى والعاطفة، ولذلك فهو قيمة مضافة في رصيد المعرفة الإنسانية ومؤشر قوي على تقدم الأمم وحضارتها. ومما يكسب البحث العلمي رصانة ومصداقية واستمرارية اقترانه بالقيم والأخلاق النابعة من قناعة الإنسان في نشر الخير والصلاح وتحقيق الأمن الروحي والمادي للبشرية جمعاء.

إلا أن توالي النتائج العلمية وتسارعها بالإضافة إلى تنوع واتساع رقعة ميادين البحث العلمي، من العلوم الاجتماعية، إلى علوم الوراثة والذكاء الاصطناعي، إلى الثورة الهائلة في التكنولوجيا والاتصال وعلم الروبوتات، جعل المخاوف على مستقبل البشرية في ازدياد متسارع ما لم تحد حدودا ومبادئ وخطوطا حمراء لا يتعداها الباحث حتى لا يصل إلى نتائج تسيء إلى الإنسانية بدل تحقيق الرفاهية المنشودة لها.

1 أستاذة باحثة - المغرب

2 سورة البقرة الآية 30

كل هذه الأخلاق والمبادئ لم توضع على محك حقيقي كما وُجدت، ولازالت موضوعة اليوم أمام جائحة كورونا، ذلك أن البشرية ومنذ الإنفلوانزا الإسبانية[1] لم تواجه وضعا خطيرا كهذا الذي تعيشه اليوم.

في هذا المقال سأحاول استقصاء مدى التزام المختبرات والدول بهذه الأخلاق وكيف أثرت هذه الجائحة وخلخلت كل التوازنات والعادات المتعارف عليها، وسأبدأ بالحديث عن ضرورة وجود أخلاق للبحث العلمي وما المقصود بهذه الأخلاق، بعد ذلك سأقدم بعض المبادئ الخاصة بالبحث العلمي في التراث الإسلامي ثم تطور هذه الأخلاق عند الغرب لأتحدث عن هذه الأخلاق في زمن كورونا لأنهي مقالي بخلاصة عن بعض الآفاق في الموضوع.

1. أخلاق البحث العلمي في الحضارة الإسلامية:

الأخلاق هي المبادئ والقيم والسلوكيات التي ينبغي أن يلتزم بها الباحث، فإذا كانت القيم الخلقية تمتد إلى كافة مرافق الحياة، فإن المجال العلمي باعتباره أحد أركان التمكين للأمة من أولويات المجالات التي تتطلب حضور الأخلاق لأن غيابها عند الباحثين ينتج عنه عواقب وخيمة على المستوى الفردي والجماعي، وقد اهتم كثير من الباحثين بتطوير مناهج البحث العلمي وتصميم أدواته البحثية لكنهم أهملوا الجانب الأخلاقي، وبما أن البحث العلمي من اختصاصات الجماعات والمراكز البحثية، فإنها -أي هذه المؤسسات- تركز على ضبط الأخلاق في هذا المجال من حيث كونها موجهة ومنظمة له، ومن حيث اعتمادها تحديد المشاكل وإيجاد الحلول الناجعة لها.

1 Michael Worobey, Guan-Zhu Han et Andrew Rambaut, « Genesis and pathogenesis of the 1918 pandemic H1N1 influenza A virus » [« Genèse et pathogenèse du virus de la grippe pandémique A (H1N1) de 1918 »]

منذ القدم وإلى يومنا هذا، واجه الباحث، في شتى ميادين العلوم، العوائق والإكراهات، فهو لا يستطيع أن يستمر في بحثه دون أن يأخذ بعين الاعتبار رأي المعتقد الديني لبلده والعادات والتقاليد التي بطبعها تتحفظ دوما على كل جديد.

ففي تراثنا الإسلامي، انطلقت أخلاق البحث العلمي من قيم الإسلام العامة التي ترتكز على تبين الخبر وعدم نقله ما لم يكن يقينا، والتحذير من الظن لأنه سبيل للافتراء والكذب والإفك والبهتان، قال تعالى:﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾،[1] وقال سبحانه وتعالى:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا على مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾[2]، وقال عز من قائل:﴿ **وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا، إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** ﴾ [3].

ولقد تجلت هذه الخصائص بوضوح في جهود المُحدثين الذين أنتجوا منهجا متينا لتصنيف الأحاديث انطلاقا من هذه القيم، ونعني به منهج الجرح والتعديل، ويمكن إجمال مميزات هذا المنهج في المبادئ التالية:

المبدأ الأول: الأمانة: وهو مبدأ أساس في الأخلاق العامة وصف الله تعالى به المؤمنين ﴿ **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون**﴾[4]، ويقتضي مبدأ الأمانة في البحث العلمي عدم التدخل في المعطيات أو النتائج بتعريفها أو تغييرها أو توجيهها وفق خلفية الباحث، كما يقتضي الوقوف على جهود السابقين في البحث، وتقدير جهودهم ونتائجهم، والاعتراف بها واحترام سياقاتها؛ ومن الأمانة كذلك الالتزام بالتخصص، والحفاظ على السرية فيما يخص الأبحاث الطبية والميدانية وغيرها، والحفاظ على البيئة، والاستئذان من المستهدفين بالبحث مثلا قبل التسجيل معهم أو التقاط صور لهم. وقد

1 سورة الإسراء، الآية 36
2 سورة الحجرات، الآية 6
3 سورة يونس، الآية 36
4 سورة المؤمنون، الآية 8

ضرب أئمة المسلمين أمثلة جلية في حضور هذا المبدأ في مختلف التخصصات، وأنشأوا لأجل تركيزه علوما كعلم الرجال في الحديث وعلم أصول الفقه.

وفي نظري أن التزام الباحث بالأمانة مرده إلى سبب رئيس وهو: حضور الوازع الديني المرتبط بإيمان الباحث بالمسؤولية وارتباط عملية البحث بالرسالية دنيا وبالجزاء أخرى. ولذلك ارتبط شرف البحث بشرف مقصده؛ يقول الإمام الشاطبي: "المقاصد أرواح الأعمال "[1]، وقال: "العامل بالامتثال عامل بمقتضى العبودية، واقف على مركز الخدمة فإن عرض له قصد غير الله رده قصد التعبد"[2].

-**المبدأ الثاني: الموضوعية:** ويقصد بالموضوعية الإنصاف والمناقشة بالحجة والدليل، بعيدا عن الهوى وإرضاء الذات، ولعل تحقق هذا المبدأ رهين بما سبق، لأن العامل التعبدي الروحي وسيلة للتجرد عن الهوى والتزام القسط والعدل، قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله** ﴾[3].

بيد أن السؤال الذي يشغل بال الباحث هو: إلى أي حد يستطيع الباحث أن يتجرد من الذاتية ويستجيب للموضوعية، لأن أساس المشكلة أن الذات تدرس الظاهرة، وهي جزء منها. والجواب الذي يفرض نفسه: نعم يستطيع إن درب نفسه على المحاسبة وهي مقام من المقامات التربوية العظيمة. "إنها محاولة عزل الذات عن الذات، أي محاولة تقوية النفس اللوامة على حساب النفس الأمارة" [4].

"إن عِلمين جليلين في الإسلام هما (مقاصد الشريعة) و(التصوف السني) يتكفلان بضبط النفس وتدريبها بواسطة القواعد العلمية والشعائر التعبدية قصد البلوغ إلى درجة الاستقلال أي

1 الموافقات للشاطبي، ج2،ص344
2 المصدر السابق، ج2، ص344
3 سورة النساء : الآية 135
4 أبجديات البحث في العلوم الشرعية، الدكتور فريد الأنصاري ص65، طبعة دار السلام، 2010

استقلال الذات عن الذات..."[1]. وإن تاريخ الأمة الإسلامية شاهد على استجابة علمائها للموضوعية وانتصارهم على الذات. يقول الدكتور فاروق حمادة: "فبالأمس أعلنها الإمام علي بن المديني، أستاذ البخاري أمير المؤمنين في الحديث، على رؤوس الأشهاد، عندما سئل عن أبيه، فأجاب: إنه الدين، وإن أبي ضعيف في الحديث، وتركها السجستاني صاحب السنن، كلمة باقية في الوارثين، عندما سُئل عن ابنه العالم عبد الله، فقال لهم: إن ابني كذاب، ومن البلاء أن يطلب للقضاء[2]"

المبدأ الثالث: المسؤولية: وهو كذلك من مقتضيات الجانب الروحي التعبدي، يحتم على العالم الالتزام بإجراء بحوث ذات قيمة ومنفعة للمجتمع، تنبع من إشكالات حقيقية لا وهمية، ورسم مشاريع بحوث تنطلق من واقع الباحث وتحقق أهدافا علمية محضة، لأن تحديد الأهداف عنوان سيادة الأمة، ومرتكز قوتها في الحال والمآل؛ وعلى هذا يتعاون الطلبة والأساتذة المشرفون، ويندرج تحت هذا المبدأ الحرص على بناء علاقات علمية متينة بين الباحثين وبعضهم بعضها وبينهم وبين أساتذتهم وبث روح التعاون، ومن المسؤولية كذلك احترام القوانين المنظمة للبحوث حفظا للحقوق.

ومن المسؤولية كذلك الحرص على تفادي الأخطاء في البحث، وتجنب عرض النتائج الخاطئة، وذلك في بذل الوسع لتقليلها لأن انتشارها دال على الإهمال وعدم المسؤولية.

وعليه، فلا بد من تدريب الطالب على التقييم المستقل، والاختيار الحر أثناء تنفيذ البحث وتحمل نتائج قراراته، وكذلك عدم الانزلاق إلى سلوكيات مُهينة، والمس بشعور الباحث، وتسفيه قدراته لأن ذلك مما يخدش شخصيته ويؤثر في عطائه.

والجامع بين هذه المبادئ: الأمانة والموضوعية والمسؤولية، إنها من تجليات الجانب الروحي التعبدي على البحث العلمي، وهذه المبادئ ضرورية في أي تخصص، سواء كان علوما إنسانية أو علوما بحتة.

---

1 المصدر السابق، ص64

2 المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل للدكتور فاروق حمادة، ص 9 دار طيبة، الطبعة الثالثة، 1997

2. أخلاق البحث العلمي في الحضارة الغربية:

أما عند الغرب، فقد كان الاعتقاد السائد في البداية أن البحث العلمي في حِلٍّ من أي معتقد ديني أو تقاليد مجتمعية أو أخلاق، فنتائجه هي الحق المطلق وغيرها النسبي القابل للنقاش والمراجعة، بل ساد في الاعتقاد أن المعارف السابقة هي عائق أمام المعرفة العلمية.

يقول باشلار(Gaston Bachelard :1884-1962) : " أمام الواقع، ما نعتقد معرفته التامة يحجب عنا ما يجب أن نعرفه"[1]. حتى أصبح الاعتقاد السائد أن ممارسة البحث العلمي يقتضي القطيعة مع التقاليد والمعتقدات السابقة، وغدا الأمر صراعا وحربا بين البحث العلمي وكل الأحكام السائدة والمتعارف عليها، سواء كانت دينية أو ثقافية أو أيديولوجية. وانتقل هذا الاعتقاد إلى علم الاجتماع أيضا، وانتشرت الفكرة القائلة بحياد العلوم أمام القيم.[2]

ومع تسارع الاختراعات والنتائج العلمية خاصة في القرن العشرين الميلادي وبداية ظهور النتائج الكارثية لبعض استعمالاتها في الحربين العالميتين (قصف هيروشيما ونكازاكي) أصيب المجتمع العلمي بالصدمة، وأصبح يضغط من أجل استصدار قوانين تفرض شروطا وأخلاقيات على البحث العلمي.

فيما يلي أهم المحطات التاريخية في التقارب بين الأخلاقيات والبحث العلمي:

أ- الميثاق العالمي لحقوق الإنسان (1948): جاء هذا الميثاق نتيجة الأحداث المروعة التي وقعت إبان الحربين العالميتين وما رافقها من استعمال لأسلحة فتاكة كيماوية ونووية؛ وكان الهدف من إصداره هو ضمان عدم تكرار ما وقع.[3]

1 Gaston Bachelard La formation de l'esprit scientifique, Edition Vrin, Paris 1938, ISBN 9782711611508

2 Max Weber (1919), Le savant et le politique, Paris, Union Générale d'Éditions, 1963

3 René Cassin ; la charte des droits de l'homme ; conférence NOBEL ; Oslo Decembre 1968.

ب- قانون نورنبرغ (1949) (THE NUREMBERG CODE[1]): أولى القوانين الدولية التي صدرت إثر محاكمة نورمبرغ الشهيرة الخاصة بمجرمي الحرب العالمية الثانية الذين أجروا تجارب طبية على الأسرى وتضمن القانون عشر قواعد تخص تقنين التجارب الطبية على الإنسان، منها القاعدة الثالثة التي تقرر أن "كل تجربة على الإنسان يجب أن تنبني على تجربة حيوانية، وعلى معرفة بالمرض المراد دراسته ومبررة بالنتائج المنتظرة"[2].

والسؤال هنا، ماذا عن التجارب غير المنتظرة وغير المعلنة.

ت- بيان روسل-أينشتاين (Manifeste Russell-Einstein1955)[3]: وهو أول اعتراف صريح بالمسؤولية الجماعية للعلماء تجاه البشرية وموقع من قبل أحد عشر عالما مرموقا، إنه عبارة عن بيان مجموعة من العلماء ينبه على الخطر الذي يهدد البشرية في وجودها بسبب البحث عن أسلحة الدمار الشامل، ويؤكد ضرورة استصدار قوانين تنهي السباق في هذا الميدان.

ث- توصيات ندوة أزيلومار (Moratoire d'Asilomar-1975)[4]: جاءت نتيجة التخوف من نتائج البحث العلمي في ميدان الهندسة الوراثية والتي كان من توصياتها العدول عن المطالبة باستصدار قوانين تبيح البحث العلمي في الهندسة الوراثية أو تجرمه، والاتفاق، بدل ذلك وبتصويت

---

https://www.nobelprize.org/prizes/peace/1968/cassin/26132-rene-cassin-conference-nobel/ Consulté le 13.03.2019

1 THE NUREMBERG CODE [from Trials of War Criminals before the Nuremberg Military Tribunals under Control Council Law No. 10. Nuremberg, October 1946–April 1949. Washington, D.C.: U.S. G.P.O, 1949–1953.]

2 المصدر السابق.

3 Science et société ; vol 26 (1976), p 17-19 n° 1/2
https://unesdoc.unesco.org/ark:/48223/pf0000017290_fre
Consulté le 13.03.2019

4 Génie génétique, INRA Paris 2001, ISBN 2-7380-0970-0 ISNN 1144-7605
https://books.google.co.ma/books?id=6-mgO0wun2YC&pg
Consulté le 14.03.2019

من العلماء المشاركين، حول مجموعة من الأخلاقيات، بندا بندا، وجب الالتزام بها في البحث العلمي الخاص بالهندسة الوراثية.

ج- فترة 1960-1970[1]: حركات اجتماعية قوية في أوروبا تنادي باحترام الثقافات الأخرى، والحق في الاختلاف، ورفض فكرة تفوق الثقافة الغربية على الثقافات الأخرى، ونشأت كذلك الحركات المدافعة عن البيئة، ونشط الناشطون ضد الهيمنة الصناعية على الإنسان.[2]

ح- فترة الأربعين سنة الماضية: عرفت هذه الفترة عدة أحداث مؤسفة هزت الرأي العام بقوة (حادث تشرنوبيل، الدم الملوث، مقاومة المواد المغيرة جينيا، حادث فوكوشيما...)، وكان لتصاعد الانتقادات الموجهة للثورة العلمية الأثر البالغ في الإسراع بإدماج الأخلاقيات في البحث العلمي.

وأصبح بذلك نموذج العلوم المفصولة عن المجتمع والتقاليد نموذجا متهافتا، ونشأ بدل ذلك مبدأ الاحتياط والحذر.

أما اليوم، فأصبحنا أمام نموذجين جديدين للبحث العلمي:

-إدماج غير المختصين في الإنتاج العلمي، حتى يكون لعلماء من اختصاصات متعددة، علماء اجتماع وعلماء نفس، أثر في هذا الإنتاج العلمي.

-نموذج العلوم التي تدمج المعرفة بالفاعلين من مختلف المشارب.

---

1 https://hal.archives-ouvertes.fr/cel-01452867v2/document

Consulté le 14.03.2019 12.27

2 يقول إفان إليتش صاحب مصطلح الاحتكار الراديكالي : في اللحظة التي يقوم فيها المجتمع الصناعي، رغبة في الزيادة في الفاعلية، بتقنين ومأسسة الوسائل (مؤسسة،تقنية) من أجل الوصول الى هدف ما، فإن هذه الوسيلة ستتجاوز الحد الذي بعده ستصبح عائقا أمام الهدف المرجو منها سلفا.

Ivan Illich, *La Convivialité*, Paris, Éditions du Seuil, 1973, p.

وهذه بعض أهم القرارات والقوانين الصادرة في الموضوع:

1. قوانين علوم الحياة والأخلاقيات (lois de bioéthique 2004,2011): كان من مقرراتها منع الاستنساخ البشري، الأبحاث حول الأجنة والخلايا الجنينية منعت مبدئيا كذلك[1].
2. أخلاق تكنولوجيا الإعلام والاتصال: مع التطور الذي عرفه البحث العلمي في الذكاء الصناعي والروبوتات تم إصدار توصيات وقوانين في هذا الميدان في العديد من الدول الغربية، ومن الباحثين المتخصصين في بعض الأحيان كمثل التعهد بعدم البحث في صناعة المشاعر والأحاسيس لدى الآلة.[2]
3. تم إصدار قانون الجمهورية الرقمية في فرنسا(2016) والذي من مقرراته إلزامية تداول المعطيات والمعرفة، حماية المواطن في المجتمع الرقمي وكذلك الحق في الرقمنة للجميع.[3]
4. في الولايات المتحدة الأمريكية، تم اصدار قوانين تهم تأطير البحث العلمي في الذكاء الاصطناعي بمذكرة تحت عنوان " تهيئة مستقبل الذكاء الاصطناعي.[4]

---

1 Loi n 2011-814 – Bioéthique- juillet 2011

Source : https://www.legifrance.gouv.fr/affichTexte.do?cidTexte=JORFTEXT000024323102

Consulté le 19.03.19 à 11 :09

2 -http://cerna-ethics-allistene.org/

Consulté le 21.03.2019 à 10 :06

3 Loi n 2016-1321 du 7 octobre 2016, bulletin Journal Officiel De La République Française du 7 octobre 2016.

https://www.legifrance.gouv.fr/affichTexte.do?cidTexte=JORFTEXT000033202746&categorieLien=id Consulté le 21.03.2019 à 10 :24

4 Executive Office of the President of the United States, EOP, 2016 https://www.whitehouse.gov/sites/whitehouse.gov/files/images/EMBARGOED%20AI%20Economy%20 Report.pdf

Consulté le 21.03.2019 à 10 :35

5.في نفس الموضوع وفي نفس السنة وهذه المرة في المملكة المتحدة تم استصدار قانون من طرف لجنة العلوم والتكنلوجيا التابعة للبرلمان البريطاني حول الروبوتات والذكاء الاصطناعي.[1]

في الإطار نفسه، أصبحت رسائل الدكتوراه في الجامعات الغربية مؤطرة لزوما بمجموعة من الأخلاق، وأصبح الباحثون ملزمين بها قبل البداية في رسالتهم[2]، وهذه أهم البنود:

- كل طالب مسجل في سلك الدكتوراه هو باحث ويعمل بالتالي في إطار قانوني، وأي مخالفة للقانون تعني بالضرورة المحاسبة والمتابعة القانونية، إلا أن العمل يمكن أن يكون قانونيا لكن تغيب عنه الأخلاق، لذلك كانت النقطة الموالية.

- ممارسة البحث العلمي تتم في إطار من الأخلاقيات وفق ميثاق الدكتوراه المعمول به، ووفق الميثاق الوطني لأخلاقيات مهن البحث العلمي.[3]

- يجب على الباحث أن يؤمن أن بحثه يتم وفق القيم المتعارف عليها، والمثل العليا التي يُرجى تحقيقها، هذه القيم والمثل يحددها المجتمع والدولة.

- اعتبار رسائل الدكتوراه جارية في إطار من الأخلاق يقتضي من الباحث التساؤل المتواصل حول مهنته كباحث، وحول مسؤولياته تجاه هذه المهنة، وتجاه موضوع بحثه، ومدى تأثيره في المجتمع الذي ينتمي إليه.

1-https://www.parliament.uk/business/committees/committees-a-z/commons-select/science-and technology-committee/
Consulté le 21.03.2019 à 10 :50

2 Catherine Tessier et al, Éthique de la recherche et intégrité scientifique, Toulouse, France. 2017, 56p.

3 Charte nationale de déontologie des métiers de la recherche, 2015.
http://www.cnrs.fr/comets/IMG/pdf/charte_nationale___deontologie_signe_e_janvier2015.pdf Consulté le 23.03.2019 à 09 :16

6. كانت آخر محطة في هذه القوانين (2017)، القانون الأوروبي المراجع والذي من خلاله تم توحيد القوانين والأخلاقيات الخاصة بالبحث العلمي[1] .

هذه أهم المحطات التي عرفها إدماج ووضع أخلاق البحث العلمي عند الغرب، ولا تفوتني هنا الإشارة - ودون النية في التباكي على ما مضى- إلى السبق الذي كان للعلماء المسلمين في وضع مبادئ وأخلاق للباحث في مختلف الميادين.

3. أخلاق ومبادئ البحث العلمي في زمن كورونا:

لم تكن البشرية مستعدة لجائحة كجائحة كورونا، ففي وقت وجيز أُغلقت الحدود والمطارات، وتوقفت الدراسة، وشلت الحركة الاقتصادية بشكل كبير، ثم امتلأت المستشفيات، وغصت ثلاجات الموتى بالجثث في انتظار الدفن، وهكذا أصبحت مختبرات البحث في سباق مع الزمن من أجل إيجاد لقاح لوقف الكارثة، وفي الوقت نفسه وضعت كل الأخلاقيات والأعراف على محك حقيقي.

فيما يلي، أهم التحديات التي واجهتها أخلاقيات البحث العلمي في زمن كورونا:

1. مراحل إنتاج اللقاح: تمر عملية إنتاج اللقاح بمراحل محددة، ذلك بأن القانون الذي يؤطر البحث العلمي المتعلق بالبشر يحدد المبادئ العامة الخاصة بهذا النوع من الأبحاث [2]، ويلخصها في ثلاثة أنواع:

---

1 The European Code of Conduct for Research Intregrity. Revised Edition. c/o Berlin-Brandenburg Academy of Sciences and Humanities. ALLEA - All European Academies, Berlin 2017.

http://www.allea.org/wp-content/uploads/2017/03/ALLEA-European-Code-of-Conduct-for-Research-Integrity-2017-1.pdf Consulté le 23.03.2019. 10 :13

2 https://www.legifrance.gouv.fr/affichCode.do consulté le 25.04.2020

- دراسة مبنية على الملاحظة: في هذه الدراسة، لا يقوم الطبيب أو الباحث بأي تدخل في نوع التكفل الخاص بالمريض، وإنما يلاحظ فقط مدى استجابة المريض للدواء .
- دراسة تدخلية: عكس النوع الأول، لا يكتفي الباحث بالملاحظة فقط وإنما يقوم بفرض وصفة أو " بروتكول" جديد ويغير في العلاقة والاتفاق العلاجي الخاص بالمريض.
- دراسة تدخلية مع مخاطر وإكراهات بسيطة: وهي كالنوع الثاني مع العلم المسبق بالمضاعفات البسيطة المحتملة.

هذا مع العلم أنه بين الدراسة المبنية على الملاحظة المطلقة والدراسة التدخلية الخالصة توجد ست وثلاثون مرحلة[1] .

بناء على ما سبق، أكد الخبراء الأكثر تفاؤلا، ومنهم الوكالة الأوروبية للأدوية[2]، أن المدة اللازمة لإنتاج لقاح خاص بهذا المرض لا تقل عن سنة، بينما تحدث خبراء آخرون عن سنة ونصف على الأقل[3].

أمام هذا التحدي، انقسم العلماء إلى قسمين: قسم يرى بضرورة الإسراع في إنتاج لقاح وعدم احترام هذه التراتبية لربح الوقت بينما القسم الثاني لا يعترف بهذه الاستنتاجات المتسرعة مادامت لم تحترم مراحل البحث العلمي المتعارف عليها دوليا.

1https://www.francetvinfo.fr/sante/maladie/coronavirus/coronavirus,consulté le 27.04.2020

2-https://www.ema.europa.eu/en/news/update-treatments-vaccines-against-covid-19-under-development, consulté le 27.04.2020

3 Nicolas Manel, directeur de recherche à l'Inserm au sein de l'unité "Immunité et cancer" de l'Institut Curie.

https://sante.journaldesfemmes.fr/fiches-maladies/2620433-vaccination-coronavirus, consulté le 27.04.2020

يقول راؤول ديدييه" Didier Raoult"[1] ؛ أحد منظري الصنف الأول من العلماء؛ والذي أعلن اكتشافه للقاح وباء كورونا[2] باكرا في شهر مارس الماضي، وذلك بعد خمسة عشر يوما من التجارب: " على المجتمع أن يقول كلمته في أخلاقيات البحث العلمي، وبالخصوص في أخلاقيات البحث في الميدان الطبي، نعم لقد أنشئت مؤسسات لهذا الغرض. لكن للأسف هذه المؤسسات تطورت تحت تأثير متخصصين في مناهج وطرق البحث، ورويدا رويدا غطى الشكل على المضمون."
[3]

لقد اعترض باحثون آخرون على هذا النهج، ولم يعترفوا بهذه النتائج مادام أصحابها لم يحترموا المراحل المقبولة علميا بل وأصبح هذا الباحث وأمثاله مهددا بالتوقيف عن مزاولة مهنة الطب نهائيا.[4]

2. اختيار المستفيد من العلاج من المتروك لمصيره : أمام الضغط الكبير الذي واجهته المستشفيات، وأمام محدودية عدد غرف العناية المركزة وأجهزة التنفس، أصبح الأطباء يختارون من يعالجون ومن يتركونه للموت المحتوم[5]، هكذا تخلوا في المرحلة الأولى عن استقبال كبار السن من

1 Didier Raoult, microbiologiste, directeur de l'Institut hospitalo-universitaire Méditerranée Infection, Marseille, France.

2 https://www.francetvinfo.fr/sante/maladie/coronavirus/coronavirus . consulté le 28.04.2020

3 https://www.lemonde.fr/idees/article/2020/03/25/ consulté le 28.04.2020

4 La dépêche numéro du 20.04.2020
https://www.ladepeche.fr/2020/04/26/coronavirus consulté le 29.04.2020

5 https://www.les-crises.fr/les-ravages-du-covid-19-dans-les-ehpad-colere-et-denuement/ consulté le 29.04.2020

المرضى حتى فقدت دور المسنين نصف قاطنيها[1]، ودفنوا مباشرة دون الوداع الأخير من الأهل[2]، أما في المرحلة الثانية، فلقد اضطروا لنزع أجهزة التنفس من كبار السن؛ ليموتوا بعد ثوان معدودة؛ ثم يعطونها لشخص أصغر سنا على أمل إنقاذه.

يقول الدكتور كريستيان سالارولي " Christian Salaroli " رئيس قسم العناية المركزة بمستشفى بركام بمنطقة اللومباردي بإيطاليا مركز الفيروس:" إذا كان لديك مريض عمره بين 80 و 95 سنة فمن الراجح أن ينزع عنه جهاز التنفس"[3]، ويضيف قائلا: " هذا كلام مرعب، لكن من المؤسف أن تكون هذه هي الحقيقة"[4]. هذا الكلام كان بتاريخ 21.03.2020 ولمّا تبلغ الجائحة ذروتها، فاضطر الأطباء بعد ذلك إلى جعل عتبة المتخلى عنهم للموت في سن الخامس والسبعين ثم إلى سن الستين! .

وأصدرت مِؤسسة [5](SIAARTI) المسؤولة عن قطاع العناية المركزة بإيطاليا مذكرة "أخلاقية" حول "من يحق لهم الاستفادة من سرير للعناية المركزة في وقت الأزمات"، بصيغة أخرى، نوعية الأشخاص الذين يتركون دون عناية.

1 https://www.linternaute.com/actualite/guide-vie-quotidienne/2492361

حسب الإحصاء الرسمي في فرنسا ليوم 29.04.2020 فإن عدد الوفيات في دور المسنين بلغ 11974 من مجموع الوفيات البالغ 23660

2 https://la-bas.org/la-bas-magazine/le-repondeur/le-message-du-jour-laisser-mourir-les-vieux consulté le 29.04.2020

3 https://www.bbc.com/afrique/monde-51996391 consulté le 29.04.2020

4- المصدر السابق

5 SIAARTI: Società Italiana di Anestesia Analgesia Rianimazione e Terapia Intensiva http://www.siaarti.it/default.aspx

وهكذا، بدل توجيهها للأطباء للتكفل بالمرضى الذين يصلون إلى المستشفى أولا بأول، كما في قوانين استقبال المرضى، وجهتهم إلى العناية بالمرضى الذين لهم أكبر احتمال للنجاة وعلى أساس هذه القاعدة، يتم نزع جهاز التنفس لشخص مسن ليعطى لشخص أصغر منه.

خاتمة:

لا غرابة أن تتوصل البشرية بفطرتها إلى أغلب هذه الأخلاق، وتسطر قوانين لتأطير البحث العلمي خوفا من السقوط فيما لا تحمد عقباه، هذه القوانين والاتفاقيات في مبادئها العامة تصب في حفظ سلامة البشرية؛ ولا ريب أنها مقبولة شرعا إلا ما تنافى منها مع محرم بنص شرعي، وتدخل في كون الإسلام يقبل كل خير توصلت إليه البشرية، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]: (شَهِدْتُ حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ (يقصد حلف الفضول) مَعَ عُمُومَتِي وَأَنَا غُلَامٌ فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ وَأَنِّي أَنْكُثُهُ).

وكان التساؤل القائم حول التزام مختبرات ومؤسسات البحث العلمي بهذه المبادئ والاتفاقيات وهل وضعت البشرية ما يكفي من الآليات لتنفيذ القوانين المؤطرة للبحث العلمي على أرض الواقع.

وما لبث أن أجابت أزمة كورونا على هذا التساؤل، واتضح جليا أن الغرب أخفق في هذا الاختبار إخفاقا مهولا حين داس أطباؤه الباحثون أولا على القوانين الخاصة بالبحث العلمي، فقاموا بالتجارب على البشر مباشرة دون الالتفات إلى مخاطر ذلك على الإنسان، وثانيا حينما باتوا يقررون فيمن يستحق الحياة ومن لا حاجة لهم في بقائه حيا، وهذا ليس بغريب على حضارة أصدرت قوانين ما يسمى ب"الموت الرحيم" " l'euthanasie" استعجالا لموت المرضى الذين يتألمون ولا يرجى شفاؤهم، رحمة بهم كما يدعون.

هذا حال الغرب في زمن كورونا، وأما عن حال المسلمين فلم يبلغ اكتساح الفيروس ما بلغه في دول الغرب، ولم يختبر الباحثون في الدول الإسلامية بما اختبر به غيرهم، والسؤال البديهي: هل

1 رواه البخاري في الأدب المفرد، باب حلف الجاهلية، رقم 567، ج 4، مكتبة الخانجي، القاهرة،2013.

يجوز للباحث المسلم شرعا وخُلقا أن يجري التجارب على البشر في زمن انتشار الأوبئة دون التقيد بالمراحل المعتمدة في هذا المجال؟ وهل يجوز للطبيب المسلم التمييز بين شاب وشيخ في قسم الإنعاش؟

لا شك أن هذه نوازل لا تقبل الرأي المتسرع والجنوح إلى العاطفة، بل تحتاج إلى الفقه الذي يستند إلى الدليل والنظر المقاصدي الذي يراعي مصالح الناس والعباد كما يراعي إنسانيتهم وحقهم في الحياة .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع
- أبجديات البحث في العلو الشرعية، الدكتور فريد الأنصاري، طبعة دار السلام سنة2010
- صحيح البخاري.
- المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل للدكتور فارق حمادة، دار طيبة، الطبعة الثالثة، 1997
- الموافقات للشاطبي، ج2، تحقيق وتعليق الدكتور عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، 1975

- Gaston Bachelard La formation de l’esprit scientifique, Edition Vrin, Paris 1938, ISBN 9782711611508
- Max Weber (1919), Le savant et le politique, Paris, Union Générale d’Éditions, 1963

- THE NUREMBERG CODE [from Trials of War Criminals before the Nuremberg Military Tribunals under Control Council Law No. 10. Nuremberg, October 1946–April 1949. Washington, D.C.: U.S. G.P.O, 1949–1953.]
- René Cassin ; la charte des droits de l'homme ; conférence NOBEL ; Oslo December 1968.
- https://www.nobelprize.org/prizes/peace/1968/cassin/26132-rene-cassin conference-nobel/
- Science et société ; vol 26 (1976), p 17-19 n° 1/2
- https://unesdoc.unesco.org/ark:/48223/pf0000017290_fr Consulté le 13.03.2019
- Génie génétique, INRA Paris 2001, ISBN 2-7380-0970-0 ISNN 1144-7605
- https://books.google.co.ma/books?id=6-mgO0wun2YC&pg Consulté le 14.03.2019
- https://hal.archives-ouvertes.fr/cel-01452867v2/document Consulté le 14.03.2019 12.27
- Ivan Illich, *La Convivialité*, Paris, Éditions du Seuil, 1973
- Michael Worobey,Guan-Zhu Han et Andrew Rambaut, « Genesis and pathogenesis of the 1918 pandemic H1N1 influenza A virus » [« Genèse et pathogenèse du virus de la grippe pandémique A (H1N1) de 1918 »], Proceedings of the National Academy of

Sciences, vol. 111, no 22, 3 juin 2014, p. 81078112 (résumé [archive], lire en ligne [archive] [PDF], consulté le 24 avril 2020).

- Loi n 2011-814 – Bioéthique- juillet 2011
- https://www.legifrance.gouv.fr/affichTexte.do?cidTexte=JORFTEXT000024323102 Consulté le 19.03.19 à 11 :09
- http://cerna-ethics-allistene.org/ Consulté le 21.03.2019 à 10 :06
- Loi n 2016-1321 du 7 octobre 2016, bulletin Journal Officiel De La République Française du 7 octobre 2016.
- https://www.legifrance.gouv.fr/affichTexte.do?cidTexte=JORFTEXT000033202746& categorieLien=id Consulté le 21.03.2019 à 10 :24
- Executive Office of the President of the United States, EOP, 2016
- https://www.whitehouse.gov/sites/whitehouse.gov/files/images/EMBARGOED%20AI% 20Economy%20 Report.pdf Consulté le 21.03.2019 à 10 :35
- https://www.parliament.uk/business/committees/committees-a-z/commons-select/science-and-technology-committee/ Consulté le 21.03.2019 à 10 :50
- Catherine Tessier et al, Éthique de la recherche et intégrité scientifique, Toulouse, France. 2017.
- Charte nationale de déontologie des métiers de la recherche, 2015.

- http://www.cnrs.fr/comets/IMG/pdf/charte_nationale_deontologie_signe_e_janvier2015.pdf Consulté le 23.03.2019 à 09 :16
- The European Code of Conduct for Research Intregrity. Revised Edition. c/o Berlin-Brandenburg Academy of Sciences and Humanities. ALLEA - All European Academies, Berlin 2017.
- http://www.allea.org/wp-content/uploads/2017/03/ALLEA-European-Code-of-Conduct-for-Research-Integrity-2017-1.pdf Consulté le 23.03.2019. 10 :13
- https://www.legifrance.gouv.fr/affichCode.do consulté le 25.04.2020
- https://www.francetvinfo.fr/sante/maladie/coronavirus/coronavirus, consulté le 27.04.2020
- https://www.ema.europa.eu/en/news/update-treatments-vaccines-against-covid-19-under-development, consulté le 27.04.2020
- Nicolas Manel, directeur de recherche à l'Inserm au sein de l'unité "Immunité et cancer" de l'Institut Curie.
- https://sante.journaldesfemmes.fr/fiches-maladies/2620433-vaccination-coronavirus, consulté le 27.04.2020
- Didier Raoult, microbiologiste, directeur de l'Institut hospitalo-universitaire Méditerranée Infection, Marseille, France.
- https://www.francetvinfo.fr/sante/maladie/coronavirus/coronavirus. Consulté le 28.04.2020

- https://www.lemonde.fr/idees/article/2020/03/25/consulté le 28.04.2020
- La dépêche numéro du 20.04.2020
- https://www.ladepeche.fr/2020/04/26/coronavirus consulté le 29.04.2020
- https://www.les-crises.fr/les-ravages-du-covid-19-dans-les-ehpad-colere-et-denuement/ consulté le 29.04.2020
- -https://la-bas.org/la-bas-magazine/le-repondeur/le-message-du-jour-laisser-mourir-les-vieux consulté le 29.04.2020
- https://www.bbc.com/afrique/monde-51996391 consulté le 29.04.2020
- SIAARTI: Società Italiana di Anestesia Analgesia Rianimazione e Terapia Intensiva
- http://www.siaarti.it/default.aspx
- https://www.linternaute.com/actualite/guide-vie-quotidienne/2492361

إعادة تصور السعادة من رحم كورونا

الدكتور إبراهيم أحتشاو[1]

مقدمة:

منذ هبوب رياح كورونا علينا ونحن نستشعر حالات الخوف، والحزن، والاكتئاب، والأمراض النفسية التي من شأنها أن تفتك بنا حقا، وأن تلحق بنا من الضرر والتحطيم النفسي أكثر مما قد تلحقه بنا كورونا، وعند معاينتنا لآرائنا وتصوراتنا تجاه الأشياء نجد أن الخلل الذي يجب معالجته راجع إلى افتقادنا القدرة على تصور جمالية الأشياء، إذ لا شيء يعدل الآن حصول حالة السعادة بداخلنا وانتشار عبقها بين جدران بيوتنا.إننا اليوم؛ في زمن كورونا، أشد ما نكون بحاجة إلى إعادة تصور السعادة إزاء تداعياتها ومخلفاتها في حياتنا التي طالما ألفناها، في حاجة لارتداء نظارة جديدة تجلي لنا بوضوح حقيقة السعادة، وطرح النظارة القديمة المضببة للأشياء والمفقدة لحقيقتها الكاملة وقيمتها السامية.

هذا المقال محاولة لمساءلة أنفسنا حول ما إذا كنا نتصور السعادة بطريقة صحية كي نتذوقها ونعيشها على حقيقتها، أم أننا نُعرّفها بتلك اللحظات النادرة التي نحصل فيها على ما نريد، أو تلك التي نجد فيها متعة أو لذة حسية زائلة فحسب.

أسئلة عالقة تطرق أذهاننا تترى حول إشكالية تصور السعادة في خضم منعطف كورونا؛ فماذا نعني بإعادة تصور حالة السعادة؟ وما صور السعادة التي منحتها لنا كورونا بالرغم من استحضار جانب الضرر فيها؟

---

1 دكتور متخصص في الفكر الاسلامي المعاصر وقضايا المجتمع، جامعة محمد الخامس بالرباط، وعضو هيئة تحرير مجلة الاستناد.

أولا: حول مفهوم "التصور" و"السعادة"

يستعمل مفهوم "التصور" في اللغة العربية كمقابل لمفهوم "التمثل"، ويعني التصور من خلال الفعل اللاتيني « Repraesentare » استحضار أو جعل الشيء حاضرا (Rendre présent) [1]، أو كما يعرفه (Moscovici 1975) بإعادة إحضاره مرة ثانية إلى مجال الوعي، وإعادة إصداره وبنائه رغم غيابه عن المجال البصري.إذاً هو فعل عقلي ينطلق من التفكير في تمثل شيء سبق وأن ترسخ في الوعي، وإعادة الشعور به بالرغم من غيابه المادي.

والسعادة مطلب البشر كلهم، ولا يختلف أياًّ كان مع نفسه في هذا المطلب وفي ضرورة امتلاكه، بل إن الإنسان يظل يحس بالرضى النفسي في حياته ما دام يتمرغ في صور السعادة، وما إن تُرفع عنه هذه الحالة حتى يحس بالضجر ويُعلن السخط على ذاته وعلى مجتمعه.

وإذا كان تصور قيمة السعادة لدى الإنسان يقتضي إعادة إحضارها إلى مجال وعيه، فإن صعوبة هذه العملية تتجلى في كون السعادة حالة نفسية لا يحكمها المجال البصري أو الحسي بل يحددها الشعور والإحساس بها. إن كون السعادة حالة نفسية هو ما يضفي عليها التعقيد ويجعلها عزيزة المنال من جهة لدى بعضهم، وما يفسر – أيضا - أنها مطلب سهل التحقيق من جهة ثانية لدى بعضهم الآخر إن هو أعاد تصورها.

قد يرى بعض الناس أنهم سعداء على الرغم من امتلاء حياتهم بالعديد من الحوادث السلبية أو السيئة (مشكلات صحية، وفقر، وخسائر) بينما نجد أناسا يتذمرون من نقص شعورهم بالسعادة على الرغم من تمتعهم بالامتيازات العديدة وأحوال معيشية طيبة.[2] ولتبسيط المسألة أكثر لا بد لنا

1 Dictionnaire latin ; site web :http://www.dicolatin.com/FR/LAT/0/dictionnaire-latin-français.htm

2 الفلسفة والسعادة، تأليف: ليزا بورتولوتي، ترجمة: أحمد الأنصاري، المركز القومي للترجمة، ط1- 2013. ص: 204.

من قياس هذه الحالة عند الإنسان الفقير مثلا؛ الذي قد يجد السعادة في حياته البسيطة التي ربما قد لا تعتبر حياة بالنسبة لمن يمتلك من كل خيرات الحياة نصيبا وافرا، ومن يظل سابحا بين صنوف المتعة والملذات، وكذلك بالنسبة لتصور السعادة في حالة المرض وعدم الاقتصار على استشعارها في الحالة الصحية السليمة فقط.

فقد أظهرت مثلا سلسلة من الدراسات التي أجريت على الأمراض المزمنة في التسعينيات بعض التفاؤل بإمكانية التعايش مع المرض. وتمت مناقشة موضوعات عديدة تتعلق بالشعور مثلا بالشجاعة، والتمسك بالأمل، وبكيفية إعادة تشكيل الذات، والقدرة على التحكم، وإيجاد معنى للحياة، والتعالي الذاتي، وظهور القدرات. إذ لا يستطيع الأصحاء حقيقة تصور مثل هذه الأشياء إلا أنها تساعد على تفسير إمكانية الإحساس بالسعادة في أثناء الإصابة بالمرض.[1] ويبين " Gilbert Simondon"[2]وجود بعض الآليات النفسية مثل التبرير والتنظير تجعل الناس يشعرون بالسعادة في أوضاع ليس لهم دور في اختيارها. إذ تظهر هذه الأوضاع الحتمية مجموعة من الوسائل الدفاعية التي تمكن الناس من النظر بصورة إيجابية إلى تلك الأوضاع، على الرغم من عدم توقعهم حدوث ذلك. وتعمل هذه الآليات النفسية، بمجرد إصابتنا بالمرض بنوع من النشاط الزائد يعمل على تغيير نظرتنا للموقف وإعادة تشكيل طريقة تفكيرنا.[3] فالخلل إذاً قد يعود إلى أصول التفكير لدى الإنسان إزاء تصوره للسعادة لا بقدر الملذات الذي قد يظن أنها المطلب لتحقيق حالة الرضى المثالية تلك.

لقد آن الأوان لمراجعتنا لأصول التفكير، والاستفادة من التجارب والمعطيات الجديدة في تعديل العديد من وجهات النظر التي تمسكنا بها، بناء على ظنون وأوهام، أو بناء على قراءات ناقصة لواقع الحياة.

1 الفلسفة والسعادة، مرجع سابق، ص: 163.

2 فيلسوف فرنسي (1924-1989).

3 الفلسفة والسعادة، مرجع سابق، ص: 162.

"ارتور شوبنهاور" (1860م) من أشهر فلاسفة الألمان، ومن أشهر الفلاسفة في التاريخ، له أسلوب نافذ حاد ومقنع في تفسير وتصور السعادة والشقاء. يقول " نحن نُحس بالألم إذ أصابنا.. ولا نحس بالخلو من الألم بعد فترة قصيرة من زواله". فنحن نحس بحالات الضر والحزن والهم إذا حلت بنا.. ولا نحس بالصفاء والعافية والفرح بعد مضي تلك الحالات بقليل.. كما نشعر بالرغبة وبالجوع والعطش، ولكن ما أن نعمل على إشباع تلك الرغبة إلا وتصير مثل تلك القطع من الحلوى التي نتذوق طعمها في الفم ثم لا يكون لها وجود بالنسبة للإحساس بعدما تُبتلع، ونحن نعاني أشد الألم إذا خلت حياتنا من الملاذ والمسرات، فنأسف على ذلك بوضوح ومضاضة، أما زوال الألم فعلى العكس من ذلك لا نحس به إلا برهة يسيرة ويصير الأمر لدينا عادياً وباعثاً على الملل.[1]

ثانيا: إعادة تصور السعادة من رحم كورونا

قبل معالجة هذا الموضوع لابد من استحضار المرجعية التي تحكمنا باعتبارنا أولا جزءا من المنظومة الإنسانية العالمية، ولكوننا داخل دائرة الدين الإسلامي المحدد لفلسفة وجودنا ثانيا، هذا الأخير يخبرنا في غير ما مرة أن كثيرا من الحالات والوقائع التي قد نظن أنها حالات يأس وضر وألم قد تكون في صالحنا، أو تكون مرحلة من مراحل إعادة صناعة تفكيرنا، ويتضح ذلك من قاعدة ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[2]، فنحتاج إلى إعادة التفكير في تصور الأشياء حتى نبلغ مرحلة استجلاء الخير الكثير من رحم الشيء المكروه، وباستحضار هذا، نستحضر معه أيضا أهمية التجارب التي يمر منها الإنسان في حياته ودورها في إعادة صناعة الإنسان، وأنها مهما كانت مريرة أو مؤذية للفرد في آنيتها إلا أنه لا ينكر الناجي منها بعد أفولها أنها شكلت محطة مهمة في حياته قد يُحصّل من خلالها ما لم يحصله في حالات الرخاء والهناء وراحة البال.

1 مقال: فلسفة شوبنهاور في السعادة والشقاء، عبد الله الجعيثن، مجلة الرياض،8 يوليو 2006م - العدد 13893. الموقع الالكتروني:http://www.alriyadh.com/169746

2 سورة النساء؛ الآية 19.

فقد يجد المرء السعادة وسط مجموعة من الأمور المسببة للإزعاج... وتعتبر السعادة مزاجا عاما نخلقه أو موقفا نصنعه بأنفسنا لمواجهة المواقف، وليست في حقيقتها إلا مجموعة من الصفات العقلية والمشاعر الوجدانية التي نؤولها ونواجه المواقف الحياتية بها.[1]

إن استشعار السعادة داخل رحم كورونا متوقف على الإحساس بها وبوجودها حتى تغمرنا هذه الحالة ونتفيأ بظلالها، وهذا ما تؤكده الدراسات في علم النفس وتدعو إليه؛ فأسباب شعورنا بالمعاناة ومعناها تعتمد على أحكامنا. فليس وجود الأشياء في ذاته السبب لانزعاج الناس وإنما نظرتهم للأشياء، فلا نشعر بالانزعاج من وجود الأشياء وإنما بسبب سلوكنا تجاهها وأحكامنا عليها بأنها سيئة،[2]فإذا تعلمنا تجنب الألم الذي من الممكن تجنبه، وتقبل الأشياء التي لا نستطيع تجنبها والهروب منها نستطيع العيش في هدوء والشعور بالسعادة والراحة.

ولكي نضع إطارا وحدودا لتناولنا لهذا الموضوع، سنقتصر في استجلاء ملامح السعادة من رحم كورونا على ثلاثة مجالات: مجال الذات، ومجال الأسرة، ثم مجال المجتمع.

1- داخل مجال الذات:

يوصي الكثير من الخبراء في تطوير الذات وعلماء النفس أن فترة العزلة والخلوة من أنسب الفترات لمراجعة الذات، واتخاذ القرارات الصائبة، ومعالجة المشاكل وحل الأزمات... وهذا كنز ثمين يمتلكه اليوم كل إنسان في هذا العالم، وهدية مجانية من كورونا لم يكن يحلم بها أي إنسان في حياته أمام كثرة الأشغال والالتزام بالعمل خارج البيت، ففترة الحجر الصحي محطة مناسبة لإعادة صناعة الذات؛ إذ يلفي الفرد نفسه في هذه الفترة إزاء محادثة ذاته حديث الفرد لنده، ومخاطبتها مخاطبة المربي للناشئة، كما تمكنه حالة العزلة تلك من القدرة على اتخاذ القرارات التي قد يكون الحسم فيها مستعصيا فيما دونها من الفترات. ولعل ما يساعد في صناعة هذا المناخ المناسب لهذه المراجعات

1 الفلسفة والسعادة، مرجع سابق، ص: 190.

2 الفلسفة والسعادة، مرجع سابق، ص: 196.(بتصرف)

سُكون الفرد وتحليه بالهدوء النفسي والطمأنينة الداخلية، بعيدا عن الاحتكاك بمحيطه الاجتماعي، ومُبعدا عن كل ما قد يعكر صفو حالته الذهنية.

في هذا المجال أيضا؛ يمكن استحضار منافع الحجر الصحي على ذواتنا، والتي لا يمكن حصرها؛ منها: إعادة النظر في تصورنا للحياة ولجدوى وجودنا، ومراجعة أحلامنا وأهدافنا المستقبلية، وتقييم علاقاتنا مع الآخرين ومدى صحيتها على نفسياتنا، وفي استثمار الوقت الغني الذي يوفره لنا الحجر في القراءة والبحث وإتقان لغات الآخر، وتعلم أشياء جديدة عنا، والتخلي عن العادات السيئة فينا. إن الأهم في هذه المرحلة هو المصالحة مع ذواتنا وأن نعرف من نحن وماذا نريد وإلى أين المنتهى وكيف السبيل إليه. ومن هنا تبدأ الذات في شق طريقها نحو إعادة صناعة السعادة، ونحو ضمان الرضى الذاتي.

2- داخل مجال الأسرة:

تتميز الأسرة داخل الحجر الصحي باجتماع مختلف مكوناتها تحت سقف واحد، ولعل هذا الاجتماع ماكان يحول دونه شرط الحداد وخرط القتاد بحكم التزام الوالدين بالعمل، والأبناء بالدراسة... فكانت فترة الحجر الصحي مناسبة للجلوس على مائدة المودة والرحمة بين الزوجين، لتعميقها وتطويرها، ولتشخيص مواطن الخلل، هي أيضا فرصة ومهلة زمنية للصلح بين المتنازعين من الأزواج ووضع نقطة نظام وعقد هدنة بينهما،إنها مرحلة ملائمة لإعادة تصور السعادة الزوجية التي غمرت قلبي الزوجين يوم العقد بينهما، والتقرب أكثر بينهما، وبذل المزيد لفهم الشريك واحترامه.

إن فترة الحجر الصحي محطة مهمة أيضا بالنسبة للأبناء، لبذل المزيد من صور البر تجاه أمهاتهم وآبائهم، ومساعدتهما على أشغال البيت والتعاون عليها، واستشعار المتعة والسعادة الداخلية في كل ذلك.هي محطة تربوية بامتياز؛ من خلالها يتعرف المربون على ميولات أطفالهم، ويراقبوا سلوكاتهم وتصرفاتهم وعاداتهم قصد تقييمها ثم تقويمها، إنها فرصة عظيمة ليس في إعادة تصورنا السعادة فحسب، بل في إعادة صناعة الإنسان والأسرة والمجتمع.

إن الناظر في حياة الأسر ومسؤولياتها والتزاماتها العملية قبل فترة الحجر الصحي يجد أن معظم أفراد الأسرة كانوا يعيشون أشبه ما يكون بالآلات والروبوتات، فمعظم الأسر تتعطش إلى مجرد بصيص من السعادة وراحة البال بسبب تفرقهم وابتعادهم عن بعضهم طيلة اليوم، فيجدون الاجتماع فيما بينهم متعذرا، بل قد لا يكون ذلك إلا في نهاية الأسبوع.

إن مؤسسة الأسرة هي المؤسسة المضطلعة بالدرجة الأولى لتوليد السعادة لدى أفرادها، ثم إن كل الأمراض النفسية التي تطال بعض الأفراد يكون سببها راجع إلى علاقة ذلك الفرد بأسرته، ومدى نجاعة التواصل بينه وبينها، كما أن المناخ الأسري يساعد بنسبة كبيرة على ضمان الأمن النفسي لدى الفرد وتحقيقه له.

ويبدو أن الأسرة التي لا تعرف استقرارا وتوازنا تخلق بيئة غير سليمة لنمو الطفل، وهذا ينتج عنه اختلالا على المستوى النفسي والاجتماعي نتيجة شعوره بالقلق والخوف مما يؤدي إلى إنتاج سلوكات واضطرابات نفسية واجتماعية تنعكس سلبا عليه وعلى محيطه. فالسلوك السوي هو نتيجة مناخ سليم داخل الأسرة وقيام الوالدين بأدوارهما التربوية وواجباتهما تجاه الأبناء من خلال توفير الشروط المادية والمعنوية لنمو سليم يؤهل الفرد للاندماج في المجتمع، بيد أن وجود الصراعات داخل الأسرة ينتج آثارا نفسية مؤلمة وقلقا اضطهاديا يؤدي حتما لظهور سلوكات عدوانية مضادة للنظام الاجتماعي، لهذا يربط علماء النفس بين التوتر داخل الأسرة وبين أنماط من السلوك تعكس عدم توفر الأمن النفسي عند الطفل وعدم اتزانه انفعاليا[1].

فهي أدوار تتقلدها الأسرة من باب المسؤولية الملقاة على عاتقها، وقد دعاها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى تحمل هذه المسؤولية، وخاطب مختلف الفئات المجتمعية، ومنهم الآباء والأمهات قائلا: **(كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والأمير راع، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)**[2].

1 علم النفس الاجتماعي، أحمد عبد العزيز سلامة وعبد السلام عبد الغفار، (دار النهضة – القاهرة، 1970م). ص: 41.
2 صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب المرأة راعية في بيت زوجها، 31/7، ح: 5200.

فالأسرة هي المصنع الأول للسعادة في حياة الفرد النفسية، وبالنظر إلى فترة الحجر الصحي من هذه الزاوية فإننا نحسبها هبة ربانية لإصلاح واقع كثير من الأسر اليوم، والتي أفرطت في الهجر وقلة الاهتمام بأفرادها ومكوناتها، وتنصلت من مسؤولياتها تجاههم.

3- داخل مجال المجتمع:

يظل الإنسان منتميا إلى مجتمعه، سواء أثناء احتكاكه وتواصله معه في الواقع الحقيقي أو الافتراضي، فهو جزء منه، ولبنة من لبناته، ذلك أن الإنسان بطبعه كائن اجتماعي مجبول على الاجتماع والمخالطة والتواصل، والظاهر أنه وإن حرم من التنقل الجسدي إلا أن روحه تظل ملتئمة بروح مجتمعه عن طريق وسائل التواصل الاجتماعي.

وتؤكد بعض الدراسات المتخصصة في موضوع السعادة مثل الدراسة التي قام بها " Jonathan Haidt"[1] أن التفاعل الاجتماعي يعد المصدر الرئيسي للسعادة. ويقلل أي شيء يؤثر على الحياة الاجتماعية تأثيرا سلبيا من قدرها.[2]

إن الفرد المنتمي للأسرة والمتواجد في حضنها طيلة فترة الحجر الصحي لا يعني أنه منفصل عن مجتمعه، فإن كان وجوده المادي ثابت معها، فوجوده الروحي أيضا متحقق وسط مجتمعه وبين انتماءاته واختياراته في الحياة، فتجد بين أفراد الأسرة من ينتمي لتيارات مخالفة لتيارات باقي أفراد الأسرة، وإيديولوجيات غير إيديولوجياتها واختيارات شخصية أخرى خاصة به.

إن المتأمل في تحرك المجتمعات العالمية وجهودها في التصدي للوباء والحد منه ليقف عند الشرخ الواضح في القيم المجتمعية، وقد أسهمت كورونا في فضح فقر معظم تلك المجتمعات لقيم المحبة والتكافل وصناعة المشترك الإنساني، كما أسهمت في كشف المحجوب المتمثل في منطلقات الرأسمالية المتوحشة،

1 عالم النفس الاجتماعي الأمريكي؛ من مؤلفاته: "فرضية السعادة: إيجاد الحقيقة الحديثة في الحكمة القديمة".

2 الفلسفة والسعادة، مرجع سابق. ص: 153.

والقائمة على قاعدة "نفسي نفسي" أو المتحولة بلغة المجتمعات إلى "مجتمعي مجتمعي" تجاهلا عن قصد لباقي المجتمعات، وتركها تحتضر أمام العالم.

لقد ساعدت كورونا على تزكية طرح "صراع الحضارات" الذي أكده هنتغتون منذ زمن، كما كشفت كورونا في المقابل حقيقة مجتمعنا المغربي الذي ضحى بمكونه الاقتصادي على حساب المكون البشري، وجعل من الرأسمال البشري محط الرعاية والاهتمام، ويظهر ذلك جليا في قيم التضامن والتكافل الاجتماعي التي انخرطت فيها مختلف مكونات المجتمع المغربي، بدءا من ملك البلاد ورجال الأمن والسلطات والأطباء والممرضين ورجال التعليم والمخترعين ورجال الأعمال... وما هذه الصور التضامنية المبهجة كلها إلا حسنة من حسنات كورونا ونتيجة اختبارها لدول العالم.

إنه من غير المقبول بعد منعطف كورونا أن نقبل بوجود فئات هشة، وطبقات متشردة، وتعليم ضعيف يفتقر لأدنى مقومات التربية والتعليم الحديثة، ونظام صحي لا يرقى إلى الاستجابة لاحتياجات المرضى. إن تشديد مجتمعنا على ضرورة الالتزام بقواعد النظافة والتعقيم والوقاية من الوباء، ينبغي التشديد معه أيضا –بعد إعادة تصورنا للسعادة، وبعد مرور هذه الأزمة- على غسل قلوبنا من الأوبئة اللا خلقية المضرة بتماسك مكونات المجتمع، وتعقيمها من الحقد والغضب والحسد والكراهية... فتعقيم الجوهر أولى من تعقيم المادة، إذ إن حقيقة الإنسان تتجلى في ذلك القبس النوراني الذي يسري بداخل الإنسان سير الدم في العروق، ويتدفق بداخله تدفق الماء في النبات، وكذلك بالنسبة لحقيقة المجتمعات التي تتجلى في روح تلك المجتمعات لا في نصيبها من امتلاك العمران وحصص الثروة العالمية.

خاتمة

بالنظر إلى كورونا بمنظار إعادة صناعة تصورنا للسعادة نقف حقيقةً على دور فترة الحجر الصحي في توليد الإرادة والعزيمة وإشعال شرارة التحفيز بداخلنا للقيام بالكثير من الأشياء التي يعز علينا فعلها بحُجّة ضيق الوقت، كما يتجلى دور كورونا أيضا في تشخيص حالة الأسر وقياس درجة تماسك أفرادها، ومدى القيام بأدوارهم ووظائفهم المنوطة بهم، كورونا أبانت لنا أيضا عن طبيعة

المجتمعات ومنظوماتها القيمية، لنقف بعدها -كورونا- في محطة مهمة في التاريخ الإنساني؛ محطة إعادة صناعة كل شيء، وإصلاح ما يمكن إصلاحه، وبعد مرور الأزمة سنقف مذهولين متخشعين ومتأملين في إخبار الخالق لنا: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾[1].

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، رواية ورش عن نافع.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، 1422هـ.
- علم النفس الاجتماعي، أحمد عبد العزيز سلامة وعبد السلام عبد الغفار، (دار النهضة – القاهرة، 1970م).
- الفلسفة والسعادة، تأليف: ليزا بورتولوتي، (ترجمة: أحمد الأنصاري، المركز القومي للترجمة، ط1- 2013).
- فلسفة شوبنهاور في السعادة والشقاء، عبدالله الجعيثن، مقال منشور بمجلة الرياض، 8 يوليو 2006م - العدد 13893. الموقع الالكتروني:http://www.alriyadh.com/169746
- Dictionnaire latin ; site web:http://www.dicolatin.com/FR/LAT/0/dictionnaire-latin-français.htm

1 سورة البقرة: الآية 216.

تجليات الابتلاءات على الحياة الإنسانية في زمن كورونا

الباحث توفيق الغدويني[1]

مقدمة:

الحمد لله العظيم المتعالي، صاحب الخير المطلق منعا وعطاء، المتحقق في حقه الكمال المطلق، حمدا يليق بحكمته، ويبلغ حامده مقام العبودية الحقة، وصلى الله على محمد وآله وصحبه صلاة يستنجح بها الطلاب، ويتقرب إلى الآمر بها على جهة التزلف، تذللا يليق بمقامات الاحتياج، وبعد: فهذه مشاركة أعالج فيها قضية يعيشها العالم بأسره الآن، بجميع صنوف بشريته، وإذ الأمر مقتض لبعض الإلمام، فقد اخترت الكلام في بيان أثر الابتلاءات على بعض مناحي الحياة في زمن جائحة كورونا، فجعلت المقال إلى ثلاثة مباحث:

- الأول: أثر الابتلاء على الجانب الفقهي.
- الثاني: أثر الابتلاء على الجانب الاقتصادي.
- الثالث: أثر الابتلاء على الجانب الاجتماعي.

أول ما يلوح لمبتغي الكتابة في هذا الموضوع، الإجابة عن هذا السؤال: هل فعلا كورونا ابتلاء أم لا؟

1 طالب باحث، جامعة القاضي عياض، مراكش.

وللإجابة على هذا السؤال، وجب البحث في ماهية الابتلاء، فجاء في تعريفه أنه الاختبار والامتحان، ويكون في الخير والشر؛ كما قال تعالى: ﴿**ونبلوكم بالشر والخير فتنة**﴾[1] فكون الأمر قد عم جميع البسيطة، كيف يحكم عليه أنه ابتلاء، وجوابه: أن الابتلاء لمن هم على الطريق لاختبار مدى تشبثهم بدينهم، وهو إيقاظ لغيرهم من غفلتهم حتى يُضاء لهم الطريق.

المبحث الأول: أثر الابتلاء على الجانب الفقهي:

عظمة التشريع الإلهي تظهر في مكنته بيان الحكم الشرعي في جميع النوازل، وإن بدت جديدة، فهذا التجدد في الفقه مُعلم بحياة الإسلام، وأورد هنا حديثا رغم حكم بعض الأئمة بضعفه، لكن يسعفني في إيراده تصحيح الإمام ابن القيم، والحافظ ابن عبد البر له: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يبعث معاذا إلى اليمن قال: كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بكتاب الله، قال فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال فإن لم تجد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا في كتاب الله؟ قال أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صدره وقال: الحمد لله الذي وفّق رسول رسول الله لما يُرضي رسول الله[2]". فما أن تطفو نازلة على الواقع حتى تجد لها جيشا من الفقهاء، يتناولون حيثياتها بتفصيل، مظهرين بذلك مرونة الفقه وقوته، وهذا كله مستمد من قوة الشريعة نفسها، وليس ببعيد عنا ما أثير في الساحة من فتاوى في موضوع النازلة:

أذكر منها على سبيل الاختصار اثنتين: فتوى وجوب المكوث بالبيت وإغلاق المساجد، وفتوى جواز صلاة التراويح خلف أجهزة الاتصال تلفاز أو مذياع وما إليه. فأما الأولى فهي تظهر جانبين من قوة الشريعة:

1 سورة الأنبياء، الآية 35.

2 سنن الترمذي باب ما جاء في القاضي كيف يقضي (608/3)

الجانب الأول: متانة الاعتبار لاتخاذ الأسباب لكونه سنة من سنن الله الكونية، فالوباء لا ينقطع بواحد من اثنين (الدعاء والدواء) ولكن يرفع بهما معا، وإذ الدواء هنا لم يوجد بعد، فالوقاية أرفع درجات اتخاذ الأسباب، وهو ما دعا إليه ديننا الحنيف. وجاء في صحيح مسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الطاعون قال: (هو عذاب أو رجز أرسله الله على طائفة من بني إسرائيل أو ناس كانوا قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوها عليه، وإذا دخلها عليكم فلا تخرجوا منها فراراً)[1]

الجانب الثاني: إن الامتثال هو جوهر الأمر، والعبادات لا تخضع للهوى، فكون عدم الاجتماع للصلاة هو مطلب شرعي الآن وجب الامتثال له، وهذا غاية ومنتهى مقام العبودية.

وأما الفتوى الثانية: فقد حظيت أكثر باهتمام جمع من العلماء الأجلاء بين مجوز ومانع، وهذا التضاد ليس تضاد اختلاف قصده هدم الرأي الآخر، بقدر ما يُلمس فيه وُسع الاجتهاد، الأمر الذي يجعل الناظر لهذا التنوع نظرة حياد، يحكم بقوة التشريع الإسلامي، واحتوائه لجميع مناحي الحياة، ولكل فريق سبيل معتبر في الاجتهاد تحت هذه النازلة؛ فالفريق الأول: نظر لتشوف الناس وشوقهم للاجتماع على إمام واحد متقن صاحب صوت ندي، يسهم في إبلاغهم مرتبة من الخشوع لا تتأتى إن هم صلوا في بيوتهم من غير ما ذُكر، ونظروا كذلك باعتبار المآل، واعتبار المآل هذا هو تقعيد فقهي رصين، قال الدكتور يوسف حميتو في كتابه "أصل اعتبار المآل": "يُعد اعتبار المآل الجالب للمصالح المتيقنة الدافع للمفاسد المتيقنة، أصل شرعي معتبر، إذ يتعين على المجتهد مراعاة التطابق بين قصد المكلف في الامتثال وقصد الشارع في وضع التكليف بتحصيل المصالح ودفع المفاسد".

فهم بهذا الأصل المتين نظروا في حال الناس أنهم إذا هم صلوا فرادى، ربما تكاسلوا عن إتمام عدد ركعات التراويح، فمن نظر لأقوالهم من الزاوية التي نظروا منها، حكم بالحكم نفسه، وعموما

1 صحيح مسلم، كتاب السلام، بَابُ الطَّاعُونِ وَالطِّيَرَةِ وَالْكَهَانَةِ وَنَحْوِهَا/ رقم 4226.

فهذه الفتوى قد سبق لها، وكتب فيها غيرهم، وأمثل مثال لذلك ما كتبه الإمام الحافظ أحمد بن الصديق في رسالته جواز الصلاة خلف المذياع.

والفريق الثاني: فريق منع لاعتبارات، من أهمها مخافة جريان الأمر بعد زمن كورونا وبقاء من سلك هذا الدرب على فتوى الجواز الائتمام بإمام ولو بعدت المسافة بشرط النظر والسماع للإمام، ومناط المسألة من حيث الدليل هو كون اتصال الصفوف ورؤية الإمام شرط كمال لا صحة عند المالكية والشافعية. وقصدوا في الأمر أن المنفرد حال انفراده في صلاة التراويح لا يعدو أن يكون قد رجع لأصل النفل وهو الانفراد، وما جاء على أصله لا يسأل على فصله، بل حكموا بتفضيل صلاة المنفرد على الاجتماع في صلاة التراويح، ودليلهم في ذلك قوي كذلك، ومعتمدهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (صلوا أيها الناس في بيوتكم، فإن أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة[1]).

خلاصة الأمر: مذهب من جوز له قوة باعتبار التوسعة في باب النفل، ومذهب من منع له قوة باعتبار النظر لأصل النفل وهو الانفراد.

المبحث الثاني: أثر الابتلاء (كورونا) على الجانب الاقتصادي:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني، وأنا منهم"[2]. حيث يعتبر هذا الحديث أصلا متينا في بيان التعامل مع الحوادث التي تحدث تغيرا في الصورة الكلية للمجتمعات.

1 صحيح البخاري، (147/1)

2 متفق عليه.

ولا يخفى على كل معاصر لوباء كورونا معرفة التغير الاقتصادي الذي يشهده العالم، من خلال ما يُشاهد أثره عيانا على الحياة، فاضطراب السوق العالمية بفعل انحباس الأسفار الوطنية فضلا عن الدولية، غَيَّر تغيرا ملحوظا في مبيان المداخيل الاقتصادية، وظهرت مجموعة من المفاهيم بقوة على الساحة، منها قضية الاكتفاء الذاتي؛ فكل دولة أو قطر كان عالة على غيره بلغت أضراره ضعف ما بلغت أضرار الدول التي لها من الغنية والكفاية مالها، فبهذا تغير منظور العالم لمجموعة من القضايا لنأخذ مجالين للتقريب، المجال الفلاحي والطبي، اخترت هذين المجالين لكونهما الأظهر عند عموم الناس، إن جائحة كورونا قلبت بعض موازين القوة، فجعلت الدول التي لها كفاية في موادها الغذائية بحيث نتاجها محلي تكون أبعد ما تكون من استجداء غيرها في هذا المجال، أما المجال الطبي فقد رأينا كيف عرضت ألمانيا مبالغ لا يستهان بها طلبا لشراء دواء كورونا إن وجد، والكل يعلم القوة الاقتصادية لألمانيا فها هي تحني رأسها في هذه الفترة لهذا الشأن، مع العلم أنها تبذل قصارى جهدها لاكتشاف الدواء، فكيف سنتحدث عما دونها من الدول.

هذا من الجانب الدولي والوطني، ولا شك أن هذا سيفضي بالعديد إلى إعادة الترتيبات فيما يخص المستوى الفردي، وسأتحدث عن الفرد المغربي؛ فبعد أن بلغ الحال لنسبة مهمة في المغرب إلى عيش حياة أقرب إلى الرفاهية، رأينا كيف كانت كورونا سببا في تغير منهج حياة هؤلاء، وكيف أصبح التفكير في الضروري من الأمر، فإن كان هذا هو حال أهل اليسر فكيف بمن هم دونهم.

إن قضية التوازنات بين المداخيل والمصاريف عرفت تغيرا قويا، كان لكورونا أثر قوي في تغير لائحة المقتنيات الفردية والمؤسساتية أيضا، وشاهدنا كيف بذل في سبيل امتلاك الكمامات ميزانية مهمة، هذا المنتوج الذي كان لا يعار عظيم اهتمام.

المبحث الثالث: أثر الابتلاء (كورونا) على الجانب الاجتماعي:

كل تغيرات الكون تجد لها صدى على الجانب الاجتماعي، وأرى أن أكثر المجالات التي عرفت تغيرات جذرية تحت طائلة هذه المحنة كورونا هو المجال الاجتماعي. وكثيرة هي القضايا الاجتماعية التي عرفت تأثرا كبيرا تحت هذا الوباء:

- القضية الأولى: أول قضية يمكن الحديث عنها في هذا المجال هي انحباس التزاور بين الأهل والأحباب والأصدقاء، وهو أمر فرضته قوة الوباء للسبب الذي يعلمه الجميع، وإذ الإنسان اجتماعي بطبعه، فقد ترك هذا المنع أثرا ليس بالحسن على نفسية الناس، لكن! من جهة أخرى كان هذا المنع سببا في تكثيف التواصل عبر معابر التواصل الاجتماعي، حتى أنه ربما تواصل الشخص مع أناس لم يكن يزورهم في الواقع. ودون أن ننسى قضية الملل الذي عاشه معظم الناس، وبخاصة من كان مسكنه ضيقا.

- القضية الثانية: اجتماع الوالدين مع الأبناء طيلة أربع وعشرين ساعة له من الأثر الشيء الكبير، إذ انقسمت العوائل لصنفين، صنف ازداد بهذا الحظر قربا، وسلك الأب والأم مسلكا مرضيا للتقرب من أبنائهم أكثر، وهذا من عظيم المنح التي حملتها هذه المحنة، فهناك من لم تسعفه ظروف الحياة للقرب من أبنائه بهذا الشكل، وصنف وجد من أبنائه وزوجه متنفسا يفرغ فيه جام غضبه لانحباسه داخل البيت، فعرفت بعض العائلات الكثير من المشاكل، وهو ملحظ اجتماعي لو أثير في القنوات والإذاعات مع عرض حلول لكان فيه خير كثير.

-القضية الثالثة: مبدأ التآزر، المحن تظهر معدن الناس، فبعد الشكاوى الكثيرة من بعض الاسر المعوزة، تحركت القلوب تحركا يظهر من خلاله معدن المواطن المغربي، فكثرت المعونات والمساعدات، وهذا في حد ذاته مكسب في دراسة الشأن المغربي.

-القضية الرابعة: كورونا أظهرت صنفين من الرجال، الأول: يحب داره وزوجه فهو الذي تجده في خدمة أهله، كما أوصى بذلك النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، وصنف ليس له من الأمر إلا الأنانية وحب الذات ونكران الآخر.

ثمرة واجتناء:

اللبيب مَن جعل مِن كل محنة منحة، فنظر لما يمكن أن تحمله من إيجابيات، وغض الطرف عما يمكن أن تحمله من سلبيات، وتيقن أن الأمر لا يعدو أن يكون محض خير، فأمر المؤمن كله خير، حال الصبر وحال الشكر.

خاتمة:

المسلم الفطن ينظر للأمور نظرا شموليا، ويبحث في مآلاتها، ويتقصَّد بيان حكم الله في كل أمر مستجد، فيجعل من الخبر المتداول مادة تدرس، فيسل منها ما يمكنه من فهم الأمر الرباني على الجهة التي يجب أن يفهمه عليه، فيكون له رأي مستقل تظهر فيه قيمة العقل الاسلامي. ومنه فهمه أن الأمور كلها تساق له ليعي عن الله قضاءه وقدره، حيث لا تزل قدمه في الحكم على أي أمر مستجد. وبهذا التوازن التدبري للقضايا يصاغ المجتمع الواعي، فيتعامل مع النوازل بالصفة التي تجعل هذه النوازل مقربة لله تعالى، ومنه امتثال هذا الفرد لكل ما من شأنه أن يكون سيرا قويما فيسهم بذلك في رفع الابتلاء، أو لنقل للنقص من انتشاره في أقل حالاته.

المصادر والمراجع:

- أصل اعتبار المآل، يوسف حميتو.

- الفِقْهُ الإسلاميُّ وأدلَّتُهُ (الشَّامل للأدلّة الشَّرعيَّة والآراء المذهبيَّة وأهمّ النَّظريَّات الفقهيَّة وتحقيق الأحاديث النَّبويَّة وتخريجها)، وَهْبَة بن مصطفى الزُّحَيْلِيّ، دار الفكر - سوريَّة – دمشق.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور، دار صادر بيروت، 1414 هـ.
- الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت، الطبعة: (من 1404 - 1427هـ).

فقهيات

جائحة كورونا

الأثر المقاصدي في تدخل الدولة لمواجهة وباء كورونا "المملكة المغربية أنموذجا"

الدكتورة بشرى البرطيع[1]

مقدمة

الحمد لله مجري الأحكام على وفق مراده المتصرف بالحكمة البالغة في أقضيته وأحكامه، الهادي عباده المؤمنين إلى طاعته والتزام شرعه، والصلاة والسلام على نبي الرحمة، الذي أرسله الله حجة لهذه الأمة، ليفقهها في دينها الذي يصلح به أمرها، وعلى آله و أصحابه الطاهرين، وعلى مَنْ تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فقد قامت الشريعة الإسلامية على رعاية مصالح الخلق وحمايتها من كل ضرر واقع أو متوقع، وأرست قواعد كلية تضمن حفظ نظام الأمة واستدامة صلاحها بجلب المصالح ودرء المفاسد، فالأحكام الشرعية تنظم جميع نواحي الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وتشمل الشؤون الخاصة والعامة للمكلفين في دينهم ودنياهم فهي ليست أحكاما وقتية لزمان دون آخر، ولا أحكاما خاصة بأفراد دون غيرهم.

فهذه الأحكام الشرعية لا تخلو من القصد إلى حكمة و مصلحة، فما كان مصلحة فهو مطلوب الفعل، وما كان مفسدة فهو مطلوب الترك، و لضمان التعهد بهذه المصالح و العناية بها، يقوم نظام الحكم في الإسلام على قواعد كلية و أصول عامة، تضمن الحقوق والحريات الأساسية يلتزم بها ولي الأمر، ولا يجوز له الخروج عنها إلا ما كان موضع اجتهاد أو تأويل، و من أبرز

1 أستاذة باحثة - المغرب

سمات نظام الحكم، الالتزام بالعدل والشورى وحمل الأمانة ورفع الظلم وجلب المصلحة ودفع المفسدة، واختيار ما يناسب واقع المسلمين و ظروفهم .

فشرع لهم السلطة للقيام بشؤون الناس، وحفظ مصالحهم العامة، ودفع المفاسد عنهم، وتوفير أسباب القيام بمهمة الخلافة، ويستمد سلطته من الأمة بالاختيار أو البيعة، وإدراكه لطبيعة سلطته يجعله ملتزما بحدوده، مدركا لواجباته ووظائفه السياسية والدينية.

إن مناط مشروعية تصرفات ولي الأمر، هو تحصيل مقاصد الشريعة الإسلامية، فهو مسئول أمام الله سبحانه وتعالى عن تصرفاته، وسياسته لرعيته، فهو شبيه كما جاء في الحديث النبوي بالراعي الذي يحوط قطيعه بالرعاية، والتعهد، والاجتهاد في البحث عن مواضع الكلأ والماء، إن تصرفات الراعي في الإسلام منوطة بالمصلحة ولا شيء غير المصلحة، لذلك أوجب الشرع على الرعية طاعة الراعي في غير معصية.

فوحدة صفوف المسلمين واجتماع كلمتهم لا تتم إلا تحت قيادة رشيدة وحكيمة تسوسهم، وتمارس سيادتها عليهم وتسير حياتهم وفق ما أمر به الحق سبحانه و تعالى، و قد أطلقت مسميات لهذه القيادة، وكان لكل مصطلح نشأته و أسبابه التاريخية، من ذلك لقب **الخليفة**، الذي أطلق على أبي بكر الصديق خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقب **أمير المؤمنين** في عهد عمر بن الخطاب، و لقب **الإمام** الذي أطلقه الشيعة على علي بن أبي طالب، و ألقاب أخرى، منها الراعي، وولي الأمر، ورئيس الدولة...، وهي مسميات لا تكاد تختلف من حيث طبيعة وظيفتها واختصاصاتها، ولقد غلب استعمال لقب الدولة في عصور كثيرة، والقصد بذلك الدولة الإسلامية التي يتحدد عملها في جلب المصالح ودفع المضار، وإقامة القسط في حقوق الله تعالى و حقوق العباد لتكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله، وقد حدد الفقهاء وظائف الدولة في حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية، والدنيوية الراجعة إليها، وهي في جوهرها خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين و سياسة الدنيا.

لأهمية هذه القضايا قديما وحديثا، ونظرا لما تعيشه دول العالم من أوضاع استثنائية بسبب انتشار"وباء كورونا كوفيد 19" الذي تسبب في تسارع نسبة الوفيات في غياب علاج ناجع، وتعطيل الاقتصاد وفرض العزلة الصحية على الأفراد لمنع انتشار العدوى، واستجابة للدعوة الكريمة لمجلة "الاستناد" مشكورة، ورغبة مني في المشاركة الجادة في التوعية والتحسيس بأهمية التضامن والتعاون للنجاة من خطر الوباء، وأيضا للإشادة والتنويه بالإجراءات الاحترازية والوقائية التي اتخذتها المملكة المغربية لمواجهة الوباء رعاية للمصلحة العامة للأفراد، ارتأيت البحث في موضوع مقاصد الشريعة الخاصة بسياسة الدولة المغربية في مواجهة وباء كورونا، فحاولت قدر جهدي الإلمام بالموضوع وجمع أطرافه حتى يسهل على القارئ الاطلاع على جانب من جوانبه، فاخترت:**"الأثر المقاصدي في تدخل الدولة لمواجهة وباء كورونا:"المملكة المغربية أنموذجا"**، وسلكت في عرض المادة العلمية بحكم تخصصي منهجا فقهيا، وفق خطة تضمنت مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، فقسمت المباحث إلى مطالب، والمطالب إلى فروع، أما المقدمة فذكرت فيها أهمية الموضوع ودواعي اختياري له.

أما المبحث الأول فعنونته **بتصرفات الدولة على الرعية منوطة بالمصلحة**، وقسمته إلى ثلاثة مطالب، ذكرت في المطلب الأول مفهوم الدولة الإسلامية ووظائفها، وقسمته إلى ثلاثة فروع، تحدثت في الفرع الأول عن مفهوم الدولة، وفي الثاني عن نشأة الدولة الإسلامية، وفي الثالث عن وظائف الدولة الإسلامية، أما المطلب الثاني فخصصته بتدخل الدولة الإسلامية منوط بالمصلحة العامة، وشمل ثلاثة فروع، الأول في تعريف المصلحة، والثاني في تصرف الراعي على الرعية منوط بالمصلحة، و الثالث في مشروعية تدخل الدولة الإسلامية.

وخصصت المبحث الثاني للحديث عن المقاصد الشرعية الخاصة بتصرفات الدولة الإسلامية، واشتمل على مطلبين، تناولت في المطلب الأول حفظ النفس الإنسانية وظيفة الدولة الإسلامية، وقسمته إلى ثلاثة فروع، الأول في المقاصد في اللغة، والثاني في المقاصد في الشرع، و الثالث في حفظ النفس مقصد الشريعة الإسلامية، وتناول المطلب الثاني حفظ الأمن الداخلي

وظيفة الدولة الإسلامية، اشتمل على فرعين، الأول في تعريف الأمن، والثاني في أهمية الأمن في الدولة الإسلامية .

وعالج المبحث الثالث تدخل الدولة المغربية لمواجهة خطر وباء كورونا، اشتمل على ثلاثة مطالب، عرضت في المطلب الأول تدخل دول العالم لدفع خطر وباء كورونا، وقسمته إلى ثلاثة فروع، الأول في تعريف الوباء، والثاني في تعريف وباء كورونا، والثالث في مواجهة دول العالم لخطر وباء كورونا، وخصصت المطلب الثاني بالحديث عن تدخل الدولة المغربية لفرض حالة الطوارئ الصحية، اشتمل على ثلاثة فروع، الأول في تعريف الحجر الصحي، والثاني في الإلزام بالحجر الصحي، والثالث في مشروعية الحجر الصحي، وعرضت في المطلب الثالث تدخل الدولة لاتخاذ التدابير الاحترازية والوقائية لمواجهة وباء كورونا، وقسمته إلى ثلاثة فروع، الأول في إحداث صندوق خاص لتدبير ومواجهة وباء كورونا، والثاني في إغلاق الحدود البرية والجوية لمنع العدوى، والثالث في مراقبة وتتبع تطبيق التدابير الاحترازية والوقائية لمواجهة وباء كورونا.

وبعد أن أنهيت عرض ما تيسر لي عرضه ختمت البحث بخاتمة ضمنتها أهم خلاصات البحث ونتائجه.

المبحث الأول: تصرفات الدولة على الرعية منوطة بالمصلحة

المطلب الأول: مفهوم الدولة الإسلامية ووظائفها

الفرع الأول: مفهوم الدولة لغة: الدَّولة والدُّولة بالفتح والضم، لغتان، العقبة في المال والحرب سواء، والعقبة: هي التناوب في الشيء، بأن يأخذه هذا مرة، وهذا مرة[1]. أما اصطلاحا: الدولة من الكلمات التي خضع مدلولها للتطور، فقد كانت في اصطلاح الأقدمين" تطلق على سلسلة

1 ابن منظور، لسان العرب، حرف اللام، فصل الدال المهملة 252/11 دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى 1990/1410والفيروز أبادي، القاموس المحيط ص: 1293، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان الطبعة الثانية 2000/1420.

من الأمراء من أسرة واحدة"، كدولة بني أمية، ودولة بني العباس، ثم أصبحت تطلق في العصور الحديثة على الحكومة بالإجمال، والسلطة وكل ما يتعلق بالأحوال السياسية[1].

الفرع الثاني: نشأة الدولة الإسلامية

بدأت فكرة إقامة الدولة الإسلامية مع ظهور الدعوة الإسلامية، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يبحث عن أرض يقيم عليها دولته، ويوحد فيها صفوف المسلمين، فكان يعرض نفسه على القبائل في مواسم الحج، إلى أن استجاب له نفر من أهل المدينة، فعقد معهم بيعتي العقبة الأولى والثانية، وأرسل معهم مصعب بن عمير يدعوهم إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون، ونساء مسلمات[2]، فأمر أصحابه صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة، فكانت الهجرة تمهيدا لإنشاء دولة الإسلام على أرض المدينة، والإقرار بحاكمية الرسول صلى الله عليه وسلم، والولاء له، فقد كانت إقامة الدولة الإسلامية هي الهدف الذي سعى الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تحقيقه منذ تباشير الوحي الأولى. إن اجتماع كلمة المسلمين، ووحدة صفهم، لا تتم إلا تحت قيادة رشيدة وحكيمة تسوسهم، وتمارس سيادتها عليهم، وتسير حياتهم وفق ما أمر به الحق سبحانه وتعالى.

الفرع الثالث: وظائف الدولة الإسلامية

اهتمت كتب السياسة الشرعية، والأحكام السلطانية، والفكر السياسي، بتحديد واجبات الإمام، أو السلطان، أو ولي الأمر: فذكر الماوردي أن الدولة يجب أن تقوم قواعدها على أمرين: تأسيس، وسياسة، ويقوم التأسيس على ثلاثة أركان: دين، وقوة، ومال: وتقوم السياسة على أربع قواعد: عمارة البلدان، وحراسة الرعية، وتدبير الجند، وتقدير الأموال، وعمارة البلدان نوعان:

---

1 بطرس البستاني، دائرة المعارف 157/8 قاموس عام لكل فن ومطلب، دار المعرفة بيروت، دون طبعة، دون تاريخ.
2- ابن الأثير (ت 630 هـ)، الكامل في التاريخ1/608_612، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1987/1407.

عمارة مَزارع، وعمارة أمصار[1]. أما الجويني فقد قسم وظائف الدولة فيما يناط بالأئمة والولاة من الأحكام إلى:

- أولا: نظر الإمام في الدين، وينقسم إلى النظر في أصل الدين (حفظ الدين)، والنظر في فروع الدين (العبادات البدنية، والمعاملات والتصرفات المالية).
- ثانيا: نظر الإمام في الدنيا، ويشمل ما يتعلق بالكلي من أمن داخلي وخارجي، وما يتعلق بالجزئي من فصل الخصومات، وإقامة السياسات، والعقوبات (الحدود والتعزيرات)، ورعاية المشرفين على الضياع، قال رحمه الله: " الإمام ولي من لا ولي له، من الأطفال، والمجانين، ويسد حاجات المحاويج"[2]. وقال أيضا: " أما سد الحاجات والخصاصات، فمن أهم المهمات، ويتعلق بهذا ضرب من الكلام الكلي، وقد يلفى مجموعا في الفقه"[3].

وحدّد ابن خلدون وظيفة الإمام في حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي، في مصالحهم الأخروية، والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين، وسياسة الدنيا به[4]. ويرى ابن تيمية أن عمل الدولة يتحدد في جلب المصالح ودفع المضار، وإقامة القسط في حقوق الله تعالى وحقوق العباد، لتكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله، لأجل هذا تمارس الدولة أو ولاة الأمر عددا من الأعمال، يمكن توزيعها في عدة ولايات، كولايات الحرب، والقضاء، والمال،

1 - الماوردي، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك، ص: 152- 160، دار النهضة العربية، بيروت 1981/1401.

2 - الجويني (419-478 هـ) غياث الأمم في الثيات الظلم، ص: 183_201، مكتبة إمام الحرمين، الطبعة الثانية، 1401هـ.

3 المصدر السابق ص: 232

4 عبد الرحمن بن خلدون(ت 808) المقدمة ص:151 دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى 1993/1413.

وغيرها، وهذا التوزيع والاختصاصات، يرجع في نظر بن تيمية إلى عرف الناس، وليس له حد في الشرع[1].

تتمثل الوظيفة الأساسية للدولة الإسلامية، في قيامها بتنفيذ الأحكام التي جاءت بها شريعتنا الإسلامية في جميع مجالات الحياة الإنسانية، وهذا ما يمنحها حق التدخل لتنظيم الشؤون الدينية والدنيوية للأفراد.

المطلب الثاني: تدخل الدولة الإسلامية منوط بالمصلحة العامة

الفرع الاول: تعريف المصلحة

عرفها الغزالي بأنها:"المحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة وهو أن يحفظ عليهم دينهم، وأنفسهم، وعقلهم، نسلهم ومالهم، وكل ما يتضمنه حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل مايفوت هذه الأصول الخمسة فهو مفسدة[2]وعرف الشاطبي المصالح:"بأنها ما يرجع إلى قيام حياة الإنسان، وتمام عيشه، ونيله ما تقتضيه أوصافه الشهوانية، والعقلية على الإطلاق، حتى يكون منعما على الإطلاق[3]،

يتضح من التعريفين أن المحافظة على مقصود الشارع تتم بجلب المنفعة ودرء المفسدة عن العبد سواء في دينه، أو عقله، أو نسله، أو ماله، لأن الله تعالى إنما بنى الأحكام على قدر ما تجلبه من المصالح وما تدفعه من المضار.

الفرع الثاني: تصرف الراعي على الرعية منوط بالمصلحة

1 ابن تيمية، الحسبة ص:47_61، الدار العثمانية، دار ابن حزم بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2004/1424.

2 أبو حامد الغزالي (ت 505هـ) المستصفى من علم الأصول، ص: 275 دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 2010.

3 الموافقات 20/2

إن نفاذ تصرفات ولي أمر المسلمين متوقف على وجود المصلحة، قال أحمد الزرقا:"والمراد بالراعي كل من ولي أمرا من أمور العامة، عاما كان كالسلطان الأعظم أو خاصا كمن دونه من العمال فإن نفاذ تصرفات كل منهم على العامة مترتب على وجود المنفعة في ضمنها"[1].

ولهذا قرر الفقهاء قاعدة:" تصرف الراعي على الرعية منوط بالمصلحة" لضبط الحدود التي يتصرف في نطاقها كل من ولي شيئا من أمور العامة من إمام، أو أمير، أو قاض، أو موظف، ويفيد أن أعمال هؤلاء وتصرفاتهم وأفعالهم لابد أن تكون مبنية على مصلحة الجماعة، قال العز بن عبد السلام:" يتصرف الولاة ونوابهم بما ذكرنا من التصرفات هو الأصلح للمولى عليه درءا للضرر والفساد وجلبا للنفع و الرشاد ولا يقتصر أحدهم على الصلاح مع القدرة على الأصلح إلا أن يؤدي إلى مشقة شديدة، ولا يتخيرون في التصرف حسب تخيرهم في حقوق أنفسهم وكل تصرف جر فسادا أو دفع صلاحا فهو منهي عنه"[2].

الفرع الثالث: مشروعية تدخل الدولة الإسلامية

نجد سند تدخل الدولة في قوله تعالى:﴿ **يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾ [النساء جزء من الآية59] و"أولي الأمر" في الآية هم أصحاب السلطة الشرعية، والآية وإن كان فيها دلالة على وجوب طاعة ولي الأمر، إلا أن هناك فرقا بين وجوب الطاعة، ووجوب التدخل، كما أن هذه الطاعة ليست مطلقة، بل منضبطة بحدود الشرع، فيكون الجمع بينهما في كون التدخل، لا يتحقق إلا من سلطة لها وجوب الطاعة، فولي الأمر يستمد سلطته من هذه الطاعة التي نص عليها قوله تعالى:﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾ فله أن يضع ما يراه من توجيهات وأوامر ملزمة، في إطار المصلحة التي يحرص على رعايتها، فتدخل ولي الأمر يلتقي مع الأحكام الشرعية الواردة بالأمر والنهي، لأن كلا منهما يهدف إلى الصالح العام، الذي تحرص الدولة على رعايته. فهذا النص الشرعي يعطي الدولة حق التدخل، وتدخل

1 أحمد الزرقا (1938/357) شرح القواعد الفقهية 309/1، دار القلم، دمشق، الطبعة السادسة، 2001/1422.
2 قواعد الأحكام في مصالح الأنام، 89/2

الدولة مقيد بأوامر الشرع، يقول الحصري:" ليس لولي الأمر أن يتدخل في العقود المشروعة بتحريمها أن يعطيها وصف الحرمة أو الحل، فهذا من خطاب التكليف، أي من جهة الشارع، وهو الله العلي القدير، لكن الأمر المباح إذا ترتب على فعله ضرر عام، لا يمكن تلافيه إلا بإيقاف هذا المباح مؤقتا، فإنه يصبح لولي الأمر الحق الكامل في إيقاف هذا المباح، ذلك أنه:" لا ضرر ولا ضرار في الإسلام"، و"لا حاكم إلا الله ولا حكم إلا منه سبحانه وتعالى"[1].

المبحث الثاني: المقاصد الشرعية الخاصة بتصرفات الدولة الإسلامية

المطلب الاول: حفظ النفس الإنسانية وظيفة الدولة الإسلامية

الفرع الأول: المقاصد في اللغة: "يقال قصد الرجلَ، وقصد له، وقصد إليه، إذا توجّه إليه، ومنه في المجاز: بلغ بيتَ القصيد، أي وصل منتهى قصده، و رأس غايته"[2].

الفرع الثاني: المقاصد في الشرع: لم يضع الأصوليون القدامى تعريفا علميا دقيقا لمقاصد الشريعة، يبرز حقيقة المقاصد، وإنما اكتفوا بذكر ما يتحصل من مصالح ويدفع من مفاسد.

قال الغزالي:" أما المصلحة فهي عبارة في الأصل عن جلب منفعة أو دفع مضرة، ولسنا نعني به ذلك، فإن جلب المنفعة، ودفع المضرة، مقاصد الخلق، وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم، لكننا نعني بالمصلحة، المحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة، وهو أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة، فهو مصلحة، وكل ما يفوِّت هذه الأصول، فهو مفسدة ودفعها مصلحة"[3]. وقال العز بن

---

1 أحمد الحصري، السياسة الاقتصادية والنظم المالية في الفقه الإسلامي، ص: 372، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى 1407/1986.

2 لسان العرب مادة قصد (حرف الدال، فصل القاف) 3/ 353

3 أبو حامد الغزالي (ت 505هـ) المستصفى من علم الأصول، ص: 275 دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 2010.

عبد السلام:" من تتبع مقاصد الشرع في جلب المصالح ودرء المفاسد، حصل له من مجموع ذلك اعتقاد أو عرفان بأن هذه المصلحة لا يجوز إهمالها، وأن هذه المفسدة لا يجوز قربانها، وإن لم يكن فيها إجماع، ولا نص، ولا قياس خاص، فإن فهم نفس الشرع يوجب ذلك"[1].

أما المعاصرون فقد حاولوا تعريف المقاصد تعريفات كثيرة، كلها عند الإمعان تفيد إناطة أحكام الشريعة بمعانيها المقصودة، ومراميها المرجوّة، حيث عرفها الطاهر بن عاشور بأنها: " المعاني والحِكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة "[2]. وقال علال الفاسي: "المراد بمقاصد الشريعة: الغاية منها، والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حُكم من أحكامها "[3].

يتبين من خلال التعريفين أن الشريعة الإسلامية جاءت لتحقيق سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة بما تجلب من مصالح وتدفع من مفاسد، تواكب تطورات الحياة ومستجداتها، وهذا ما يضمن استمرارها، وصلاحيتها لكل زمان ومكان. والمتأمل لآيات القرآن الكريم، و أحاديث السنة النبوية، يجد مقاصد وحكما ومعاني سامية تسعى إلى حفظ الضروريات الخمس: حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، وحفظ الحاجيات من تيسير ورفع الحرج والمشقة، وحفظ التحسينات وهي ما يخص مكارم الأخلاق والعادات.

الفرع الثالث: حفظ النفس مقصد الشريعة الإسلامية:

يعد حفظ النفس أحد الضروريات الخمس وأهم مقاصد الشريعة الإسلامية بعد الدين التي لابد منها لقيام مصالح الناس الدينية و الدنيوية، قال الإمام الشاطبي:" إن الأصول الكلية التي

1 عز الدين بن عبد السلام (ت 660هـ)، قواعد الأحكام في مصالح الأنام: 2 / 160، د ار الكتب العلمية، بيروت، لبنان بدون تاريخ

2 محمد الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، ص: 49 دار السلام القاهرة، دار سحنون، تونس، 2006/1427.

3 علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية و مكارمها ص: 7، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الخامسة

جاءت الشريعة بحفظها خمسة: وهي الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال"[1]. وشرع الاسلام لإيجاد النفس وبقاء النوع البشري الزواج والتناسل وأوجب لحمايتها تناول ما يقيمها ويبقيها من ضروري الطعام والشراب واللباس والمسكن، وشرع أحكاما لصيانتها وحفظها وعدم الاعتداء عليها بالقتل أو الانتحار قال الله تعالى:﴿**ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق**﴾ [سورة الأنعام الآية 151] وقال أيضا: ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما**﴾[سورة النساء الآية 29] وقال تعالى:﴿**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾[سورة البقرة الآية195]واوجب دفع الضرر عنها فشرع القصاص والدية. أمام هذه التشريعات الربانية توجب على الدولة الإسلامية الحرص على إقامة شرع الله وسن عقوبات رادعة لمنع جرائم الاعتداء على النفس الإنسانية أو الإلقاء بها في الهلاك أو الإضرار بها، واتخاذ تدابير وقائية للحفاظ على النفس بتوفير الكفاية من ضروري الطعام وبناء المستشفيات والعناية بالمرضى وتوفير الأطقم الطبية وإقامة أجهزة الامن للحفاظ على أمن وسلامة المجتمع وبث الأمن والطمأنينة في النفوس.

المطلب الثاني: حفظ الأمن الداخلي وظيفة الدولة الإسلامية

الفرع الاول: تعريف الأمن: عرفه سعيد عدلي حسن بأنه:"تأمين كيان الأمة ضد الأخطار التي تتهددها داخليا وخارجيا، وصيانة مصالحها الحقيقية، وتهيئة الظروف والعوامل المناسبة لتحقيق أهدافها بما يكفل للأمة حياة مستقرة تساعد على النهوض والتقدم"[2]. ويتّضح من خلال التعريف أن مفهوم الأمن ورد شاملا وهو مقصد تسعى كل دولة لتحقيقه حفاظا على الاستقرار ودفع الأخطار الداخلية والخارجية، واستثمار الموارد الاقتصادية وتنميتها وهذا ما يتطلب من الدولة الحرص على استتباب الأمن ورعاية المصالح بجلبها ودفع المفاسد والزجر عنها.

1 أبو إسحاق الشاطبي (ت 790هـ)، الموافقات في أصول الشريعة33/3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة 2005/1426.

2 سعيد عدلي حسن،الأمن القومي العربي واستراتيجية تحقيقه، ص:16 القاهرة طبعة 1997.

الفرع الثاني: أهمية الأمن في الدولة الإسلامية: قال الرسول صلى الله عليه وسلم :"من أصبح منكم آمنا في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا"[1]. حيث يشمل مفهوم الأمن في الحديث العافية في البدن وسلامته من الأسقام والكفاية من الطعام، وجعل النبي صلى الله عليه وسلم الأمن على النفس والأمن على الحاجات الضرورية من طعام ومسكن وكسوة سبيلا لامتلاك الدنيا بأكملها. وفي ذلك إشارة إلى أن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا فالدين لا يقوم إلا بصحة البدن وبقاء النفس وسلامتها يقول الغزالي:" إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا... فنظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل إليها إلا بصحة البدن وبقاء الحياة وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والمسكن و الأقوات و الأمن"[2].

المبحث الثالث: تدخل الدولة المغربية لمواجهة خطر وباء كورونا

المطلب الأول: تدخل دول العالم لدفع خطر وباء كورونا

الفرع الأول: تعريف الوباء: عرفته منظمة الصحة العالمية بأنه حالة انتشار لمرض معين حيث يكون عدد حالات الإصابة أكبر مما هو متوقع في مجتمع محدد أو مساحة جغرافية معينة أو موسم أو مدة زمنية .

الفرع الثاني: تعريف وباء كورونا

صنفت منظمة الصحة العالمية كورونا "جائحة" وهو مصطلح علمي أكثر شدة واتساعا من "الوباء العالمي" ويرمز إلى الانتشار الدولي للفيروس وعدم انحصاره في دولة واحدة.

الفرع الثالث: مواجهة دول العالم لخطر وباء كورونا

1 أخرجه الترمذي في كتاب الزهد رقم 2346، وقال:" هذا حديث حسن غريب"

2 أبو حامد الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد ص:148 دار الكتب العلمية بيروت طبعة 1988

ظهر هذا الوباء في دولة الصين ثم انتشر في باقي دول العالم ويسمى "بفيروس كورونا كوفيد 19" تسبب في عدد كبير من الوفيات تعد بالآلاف، وتزداد النسبة يوما بعد يوم في غياب لقاح، أو دواء ناجع يحد من تفشي الوباء الذي يهدد أمن وسلامة واقتصاد دول العالم.

اتخذت دول العالم مجموعة إجراءات وتدابير لمواجهة جائحة كورونا والحد من انتشارها، واستعانت بالأجهزة الطبية، والأمنية، وأغلقت الحدود البرية والجوية، وألزمت المواطنين بالعزلة الصحية واتخذت عدة إجراءات احترازية ووقائية للخروج من هذه الأزمة بأخف الأضرار.

أما الدولة المغربية فكان لها السبق والريادة في اتخاذ قرارات جريئة واستباقية لمواجهة وباء كورونا والحد من انتشاره، وسنعرض بعض النماذج مستعينين في ذلك بالبيانات والبلاغات الصادرة عن الديوان الملكي ووزارتي الداخلية والصحة والنشرات الإخبارية اليومية [1].

المطلب الثاني: تدخل الدولة المغربية لفرض حالة الطوارئ الصحية

الفرع الأول: تعريف الحجر الصحي

هو إجراء وقائي يفصل ويقيد حركة الأشخاص الذين تعرضوا لمرض معد لمعرفة ما إذا كانوا مرضى أم لا، ووفقا لمنظمة الصحة العالمية يمكن التوصية بالحجر الصحي للأفراد الذين يُعتقد أنهم تعرضوا لأمراض معدية، مثل كورونا "كوفيد 19" لكن لم تظهر عليهم الأعراض.

الفرع الثاني: الإلزام بالحجر الصحي

جاء في بيان مشترك لوزارتي الداخلية والصحة نشرته وكالة الأنباء المغربية:" السلطات تدعو المواطنات والمواطنين إلى تقييد والحد من تنقلاتهم، والتزام العزلة الصحية في منازلهم كإجراء وقائي ضروري في هذه المرحلة الحساسة للحد من انتشار الفيروس"، وبمجرد فرض حالة الطوارئ

1 مثل شبكة الجزيرة وقناة فرانس 24 والقناة الثانية المغربية

الصحية نزلت قوات الأمن ومدرعات الجيش والسلطات العمومية إلى الشوارع لإقناع المواطنين بالتزام العزلة في منازلهم، باستخدام مكبرات الصوت، وظلت التحركات في الأماكن والفضاءات العمومية مؤطرة بالضرورة القصوى من أجل التبضع والتطبيب أو الالتحاق بالعمل.

لقد بدت الحاجة اليوم أكثر من ذي قبل إلى التعاون والتضامن للنجاة من الخطر الذي يتهدد بلادنا فالجميع يركب سفينة واحدة إما أن تغرق ويغرق الجميع أو تنجو فينجو الجميع.

وهذا شبيه بما جاء في الحديث النبوي عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال رسول الله عليه وسلم:"مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنْ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا، هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ، نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا "[1]. دلّ الحديث أن ركاب السفينة لهم هدف مشترك، وهم أفراد مجتمع واحد، وحفظ مصالحهم العامة، ورعاية حقوقهم واجب، بل فرض عين على كل فرد منهم.

شبه الرسول صلى الله عليه وسلم المجتمع كله بسفينة النجاة التي يتعاون أهلها لنجاتها فإن تركوا العابثين يعبثون فيها فسيهلك العابثون والساكتون، فكذلك المجتمع إذا لم يتعاون أفراده على البر والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويمكن الاستدلال بالحديث على ضرورة تعاون الأفراد والأطباء، و رجال السلطة، و سائر أجهزة الدولة ومؤسساتها للتغلب على الوباء والالتزام بالتوجيهات والتعليمات الصادرة عن الجهات الرسمية والهيئات الطبية.

الفرع الثالث: مشروعية الحجر الصحي

1 أخرجه البخاري، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة و الاستهام فيه حديث رقم 2493.

يمكن الاستدلال من القرءان الكريم بقوله تعالى: ﴿**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾[سورة البقرة الآية195]لأن الإنسان مأمور بالحفاظ على النفس والبعد عن أسباب الهلاك لأن النفس أحد الضروريات الخمس التي سعت الشريعة للحفاظ عليها، والإنسان اليوم مطالب بالتزام العزلة في المنزل وعدم الخروج إلا لضرورة مع الأخذ بالتوجيهات الخاصة بالوقاية من الوباء وعدم نقل العدوى للآخرين.

فمشروعية الحجر الصحي يمكن الاستدلال بها من السنة النبوية لمواجهة وباء كورونا بحديثين عن النبي صلى الله عليه وسلم نهى فيهما المسلم عن الدخول إلى أرض بها الطاعون، ونهى عن الخروج من أرض بها الطاعون، فعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:"إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ[1] بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْه[2].وَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه عنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ" :إِذَا سمِعْتُمْ الطَّاعُونَ بِأَرْضٍ، فَلاَ تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وقَعَ بِأَرْضٍ، وَأَنْتُمْ فِيهَا، فَلاَ تَخْرُجُوا مِنْهَا"[3].

ومن الآثار الواردة أن عمر بن الخطاب توجه إلى الشام لحرب الروم، وكانت جيوش المسلمين في الشام مع قائدهم أبي عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وجماعة، فلما وصل عمر رضي الله عنه إلى محل يقال له السرغ -في أطراف الشام- بلغه أن الطاعون قد وقع في

1 يعني: الطاعون

2 أخرجه البخاري في كتاب الطب باب ما يذكر في الطاعون رقم الحديث 5730 ومسلم في كتاب السلام باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها رقم الحديث 2218

3 أخرجه البخاري في كتاب الطب باب ما يذكر في الطاعون رقم الحديث 5728ومسلم في كتاب السلام باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها رقم الحديث 2218

الشام -يعني الوباء الخبيث- فتوقف واستشار الناس في ذلك، فلما سمع من عبد الرحمن بن عوف حديث النبي صلى الله عليه وسلم في النهي عن دخول الأرض التي بها وباء رجع إلى المدينة[1].

المبحث الثالث: تدخل الدولة لاتخاذ التدابير الاحترازية والوقائية لمواجهة وباء كورونا

الفرع الأول: إحداث صندوق خاص لتدبير ومواجهة وباء كورونا

وجه الملك محمد السادس حكومة بلاده إلى إنشاء صندوق خاص لتدبير ومواجهة وباء كورونا، وأفاد الديوان في بيان نشرته وكالة الأنباء الرسمية؛ أن هذا الصندوق ستوفر له اعتمادات للتكفل بالنفقات المتعلقة بتأهيل الآليات والوسائل الصحية، سواء فيما يتعلق بتوفير البنيات الملائمة، أو المعدات والوسائل التي يتعين اقتناؤها بكل استعجال لعلاج الأشخاص المتضررين من الفيروس في ظروف جيدة، وسيدعم الصندوق الاقتصاد الوطني من خلال مجموعة من التدابير التي ستقترحها الحكومة لاسيما فيما يخص القطاعات الأكثر تأثرا بفعل انتشار فيروس كورونا كالسياحة، والتخفيف من التداعيات الاجتماعية لهذه الأزمة.

ونجد في كتب السياسة الشرعية ما يدل على جواز تدخل الدولة لتدبير النفقات وتحقيق الكفايات من بيت مال المسلمين، فإذا لم يكن فيه مال توجهت الدولة لأصحاب المكنة منهم، يقول الماوردي:" البلد إذا تعطل شربه، أو استهد سوره، أو كان يطرقه بنو السبيل، من ذوي الحاجات فكفوا عن معونتهم، فإذا كان في بيت المال مال، لم يتوجه عليهم فيه ضرر، أمر بإصلاح شربهم، وبناء سورهم، وبمعونة بني السبيل في الاجتياز بهم، لأنها حقوق تلزم بيت المال دونهم، وكذلك لو استهدمت مساجدهم وجوامعهم، فأما إذا اعوز بيت المال، كان الأمر ببناء سورهم، وإصلاح

1 الأثر وارد في الصحيحين: البخاري في كتاب الطب باب ما يذكر في الطاعون رقم 5729 ومسلم في كتاب السلام باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها رقم 2219

شريهم، وعمارة مساجدهم، و جوامعهم، ومراعاة بني السبيل فيهم، متوجها إلى كافة ذوي المكنة منهم[1].

بيّن الماوردي مسئولية الدولة – وهي مهمة والي الحسبة- في مراقبة وصيانة المرافق العامة، وإصلاحها والتي لا غنى عنها لجماعة المسلمين، وتأخذ من بيت المال ما يكفي لهذا الغرض، وإذا لم يكن فيه ما يكفي، لها أن تلزم القادرين بهذا الإنفاق الضروري.

إن أكثر المرافق أهمية في زمن كورونا هي المستشفيات ومايلزمها من أجهزة ووسائل ومعدات طبية وأدوية لعلاج المصابين والحد من انتشار الوباء، ولقد كان لدولة المغرب السبق في توفير مستلزمات الوقاية وتجهيز المستشفيات وزيادة المعدات ودمج الأطقم الطبية العسكرية بالمدنية للعناية بالمرضى المصابين.

الفرع الثاني: إغلاق الحدود البرية والجوية لمنع العدوى

شرع المغرب في تشديد إجراءات مواجهة الوباء بإغلاق المجالين الجوي والبحري أمام المسافرين وإلغاء التجمعات، والتظاهرات الرياضية، والثقافية، والفنية، وتوقيف الدراسة بالمدارس و الجامعات، والإغلاق المؤقت للمساجد،وتعليق الجلسات بمختلف المحاكم، وإجراءات في مجالات النقل العمومي، وإغلاق المحلات العمومية غير الضرورية(بيان الديوان الملكي).

فالأصل هو حرية تصرف الفرد، لكن إن اصطدمت ممارسة هذه الحرية مع المصلحة العامة، تدخل ولي الأمر العادل، لأنه مسئول عن رعاية مصالح الأمة، وقد يكون هذا التدخل واجبا لمراقبة سلوك الأفراد، وتقييد تصرفاتهم، إذا ما أضرت بالصالح العام، وهذا ما نجد له سندا في

1 أبو الحسن الماروردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينيةص:413-414. المكتبة التوفيقية القاهرة، مصر، دون طبعة، دون تاريخ.

الحديث النبوي، فَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه عنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :إِذَا سَمِعْتُمْ الطَّاعُونَ بِأَرْضٍ، فَلاَ تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وقَعَ بِأَرْضٍ، وَأَنْتُمْ فِيهَا، فَلاَ تَخْرُجُوا مِنْهَا[1].

والحديث دليل في النهي عن دخول أرض بها الطاعون والنهي أيضا عن الخروج من أرض بها الطاعون

الفرع الثالث: مراقبة وتتبع تطبيق التدابير الاحترازية والوقائية لمواجهة وباء كورونا

يتحمل الملك محمد السادس مسؤولية مراقبة وتتبع تدابير الوقاية من فيروس كورونا من خلال عقد الاجتماعات ومواصلة اتخاذ المزيد من الاجراءات لمواجهة أي تطور من ذلك أنه:

- **أولا:** أصدر تعليماته بوضع المراكز الطبية المجهزة التي سبق أن أمر بإحداثها لهذا الغرض رهن إشارة المنظومة الصحية بكل مكوناتها إن اقتضى الحال وعند الحاجة.
- **ثانيا:** وجه السلطات المختصة للسهر على حسن تطبيق التدابير الناجعة المتخذة في مجال ضمان تزويد الأسواق بجميع المواد الغذائية والاستهلاكية ومواد التطهير والتعقيم بصفة منتظمة ومتواصلة.
- **ثالثا:** محاربة كل أشكال الاحتكار والزيادة في الأسعار.
- **رابعا:** أمر بتسريع دمج الأطقم الطبية العسكرية بالأطقم الطبية المدنية العاملة بالمستشفيات .
- **خامسا:** تكليف شركات مختصة بتموين المستشفيات العامة و الخاصة حيث يرقد المرضى بفيروس كورونا في الحجر الصحي.
- **سادسا:** تخصيص مساعدات مالية لدعم الأسر المتضررة من إجراءات مكافحة كورونا.

---

1 سبق تخريجه

- **سابعا:** أمر بالاعتناء بالمرضى المصابين بالفيروس وتقديم ثلاث وجبات طعام يوميا لهم.

إن هذه القرارات والتعليمات الملكية تعد مبادرة غير مسبوقة لاتخاذ إجراءات وقائية واحترازية للحد من انتشار الوباء ومواجهة آثاره الصحية، والاجتماعية، والاقتصادية، وكما وصفتها باقي دول العالم تعد استباقية وجريئة.

كما أن السهر على حسن تطبيقها والتتبع المستمر لتطورات الوباء والحد من انتشاره وتفقد أحوال المصابين والتوجيه إلى العناية بهم ليعد من صميم المسؤولية التي يرعاها ملك البلاد، والتي نجد سندها في قوله صلى الله عليه وسلم: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"[1].

هذه المسؤولية تشمل تفقد أحوال الرعية والسهر على راحتها وجلب ما يعود عليها بالمصلحة ودفع كل ضرر واقع أو متوقع بها، فهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان شديد الحرص على تفقد أحوال رعيته ورعاية مصالحها، وكان شديد الخوف من محاسبة الله تعالى له على مال المسلمين، كان يقول:" لو ماتت شاة على أرض المسلمين، لظننت أن الله سائلي عنها يوم القيامة".[2]

خاتمة:

وبعد الانتهاء من عرض ما تيسر عرضه خُتم البحث بخاتمة ضمت أهم خلاصات البحث ونتائجه:

- الشريعة الإسلامية جاءت لتحقيق سعادة الإنسان في الدنيا و الآخرة بما تجلب من مصالح وتدفع من مفاسد، وهذا مايضمن استمرارها وصلاحيتها لكل زمان ومكان.

1 أخرجه البخاري، كتاب الاستقراض، باب العبد راع في مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه حديث رقم 2409 ومسلم كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام وعقوبة الجائر رقم 1829

2 أبو نعيم الأصفهاني(ت 430ه) حلية الأولياء و طبقات الأصفياء، 53/1، دار الكتب العلمية.

- تدخل الدولة لرعاية المصالح وجلبها ودفع المفاسد، منضبط بنصوص شرعية.
- لولي الأمر أن يضع مايراه من توجيهات ملزمة في إطار المصلحة التي يحرص على رعايتها.
- الدولة الإسلامية ملزمة بالحرص على إقامة شرع الله وسن العقوبات الرادعة لمنع جرائم الاعتداء على النفس الانسانية أو الإضرار بها، لأن حفظها مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية.
- من وظائف الدولة الاسلامية إقامة المستشفيات وتوفير الأدوية والأجهزة الطبية لعلاج المرضى والعناية بصحتهم.
- تأمين سلامة المجتمع وصيانة مصالحه ودفع الأخطار الداخلية والخارجية وتنمية واستثمار الموارد الاقتصادية وظيفة الدولة الإسلامية.
- السبق والريادة للدولة المغربية في اتخاذ قرارات جريئة وتدابير وقائية واحترازية لمواجهة خطر وباء كورونا.
- التزام الأفراد بقواعد الحجر الصحي واحترام التعليمات الرسمية والتوجيهات الطبية سبيل للنجاة من خطر الوباء والخروج بأخف الأضرار.
- نسأل الله تعالى أن يوفق ملكنا وبلادنا لمواجهة الوباء وأن يحفظنا، ويحفظ سائر البلدان. آمين والحمد لله رب العالمين.

لائحة المصادر والمراجع

- ابن تيمية، الحسبة، تحقيق صالح عثمان اللحام، الدار العثمانية، دار ابن حزم بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2004/1424.

- أبو إسحاق الشاطبي إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي (ت 790هـ)، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة 2005/1426.
- أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين (ت 630 هـ)، الكامل في التاريخ،تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1987/1407.
- أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك، تحقيق محيي هلال السرحان وحسن الساعاتي، دار النهضة العربية، بيروت 1981/1401.
- أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي المارودي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية: تحقيق عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية القاهرة، مصر، دون طبعة، دون تاريخ.
- أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري(261ه) صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار ابن الجوزي القاهرة2010.
- أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني (419-478 هـ) غياث الأمم في الثياب الظلم، تحقيق عبد العظيم الديب، مكتبة إمام الحرمين، الطبعة الثانية، 1401هـ.
- أبو حامد الغزالي محمد بن محمد بن محمد الطوسي (450-505هـ) شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل، تحقيق حمد الكبيسي، مكتبة ابن تيمية، دون طبعة، دون تاريخ.
- أبو حامد الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد دار الكتب العلمية بيروت طبعة 1988.
- أبو حامد بن محمد بن محمد الغزالي (ت 505هـ) المستصفى من علم الأصول، ضبطه عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 2010.

- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (ت 256 هـ) صحيح البخاري ترقيم و ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي، دار ابن الجوزي، القاهرة 2010.
- أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي (ت 660هـ)، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان بدون تاريخ.
- أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني(ت 430ه) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية.
- أحمد الحصري، السياسة الاقتصادية والنظم المالية في الفقه الإسلامي، دار الكتاب العربي، 1986/1407.
- أحمد بن الشيخ محمد الزرقا (1938/357)شرح القواعد الفقهية، دار القلم، دمشق، الطبعة السادسة، 2001/1422.
- بطرس البستاني، دائرة المعارف قاموس عام لكل فن ومطلب، دار المعرفة بيروت، دون طبعة، دون تاريخ.
- سعيد عدلي حسن، الأمن القومي العربي واستراتيجية تحقيقه، القاهرة، طبعة 1997.
- عبد الرحمن بن خلدون(ت 808) العبر وديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى 1993/1413.
- علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية و مكارمها، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الخامسة.
- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، القاموس المحيط، إعداد وتقديم محمد عبد الرحمان المرعشلي، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان الطبعة الثانية 2000/1420.
- محمد الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، دار السلام القاهرة، دار سحنون، تونس، 2006/1427.

- محمد بن عيسى بن سورة الترمذي،سنن الترمذي، تحقيق محمد علي محمد عبد الله دار ابن الهيثم 2004م-1425هـ.

"كورونا والصلاة في البيوت"
هل حفظ الأبدان مقدم على حفظ الأديان ؟

الباحث كريم عيار[1]

مقدمة:

إثر اتساع دائرة وباء كورونا الذي ابتليت به البشرية جمعاء في الآونة الأخيرة، وقرار السلطات المختصة إغلاق بيوت الله احترازا من انتشار هذا الوباء، أثير نقاش حول قضية الإغلاق هذه؛ من حيث مشروعيته في ظرف الناس فيه أحوج إلى الارتباط ببيوت الله وتقوية الصلة به، من باب إظهار الخضوع له والتذلل بين يديه، والتقرب إليه بالطاعات والصالحات من الأعمال، والتي يعد من أبرزها إعمار بيوت الله بإقامة الصلوات والأذكار.

النقاش الفقهي الدائر حول هذه المسألة تجاذبته آراء متباينة، بعضها اتسم بالغلو والتطرف بحكم ما ميزها من اختلالات منهجية ومنطلقات فكرية متعصبة، إلى الحد الذي جعل بعض المنتسبين إليها يعمدون إلى لغة اللعن والطعن بل والتكفير، إلا أن السواد الأعظم من العلماء، ولله الحمد، أعربوا عن استهجان هذه الآراء، التي لا تستحق أن توسم بالفتاوى الشرعية للنوازل الفقهية.

إزاء هذه القضية، حصل إجماع العلماء على مشروعية إغلاق المساجد إزاء انتشار هذا الوباء، حرصا على سلامة الناس وحفظا لأبدانهم رغم ما في ذلك من تفويت لمصالحهم الدينية، وهنا صرح عدد لا بأس به من علمائنا أنَّ تعليل هذا الرأي يتعلق بإعمال مجموعة من النصوص الشرعية والقواعد الفقهية والمقصدية، والتي من أبرزها قاعدة حفظ الأبدان مقدم على حفظ الأديان.

فهل فعلا حفظ الأبدان يقدم على حفظ الأديان في مثل هذه النوازل والمسائل؟

---

1 - باحث بسلك الدكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش.

1- مداخل أو تأسيسات أولية :

أ- التأسيس الأول : تزاحم المصالح الشرعية :

إن التأسيس الأول الذي ينبغي تحرير الكلام فيه يتعلق بالبعد المصطلحي، وهو مصطلح تعارض المصالح الشرعية فيما بينها؛ فهذا الإطلاق نظريا يوحي إلى معنى ينبغي أن ينزه عنه الشارع الحكيم، وهو أنه سبحانه يشرع من الأحكام ما يترتب عنه مصالح متعارضة، أي أنه سبحانه يصدر عنه التناقض والتعارض، لأن التعارض في المصالح يقتضي أنه سبحانه يأمر بالمصلحة ونقيضها في الآن نفسه؛ وهذا مما يستحيل في حقه جلّ وعلا.

وبذلك فالاصطلاح الأقرب هو مصطلح التزاحم، بما يفيد أن المصالح التي يقصد الشرع إلى تحقيقها للمكلف قد يقع بينها التقاطع عند التنزيل، فمصطلح التعارض يحيل إلى بعد نظري ينبغي تنزيه الشريعة عنه، بينما التزاحم يحيل إلى بعد تنزيلي، يستساغ بحكم كثرة المصالح وتعددها وتقاربها، وهو ما أشار إليه الإمام الآمدي عند حديثه عن المذهب القائل بترجيح حقوق الآدمي على حقوق الله تعالى إذ قال: "ولهذا رجحنا حقوق الآدمي على حق الله تعالى بدليل أنه لو ازدحم حق الله تعالى وحق الآدمي في محل واحد، وضاق عن استيفائهما بأن يكون..."[1].

لكن من تمام الإنصاف، ينبغي القول بأن الكتابات الأصولية التي توظف مصطلح التعارض بين المصالح، لا تقصد التعارض التنظيري، بل التنزيلي الذي يحصل عند تقاطعها والتقائها؛ لهذا ارتأينا من أجل المزيد من الإيضاح، توظيف مصطلح يسد باب الاحتمال، ويقطع بالمقصود عند الاستعمال، وهو مصطلح التزاحم، فهو أسلم وأحكم، وأروع وأورع.

وبذلك يستفاد من هذا، أن مصالح الشريعة ومقاصدها لا تتعارض من الناحية التأصيلية؛ لأن معالمها واضحة، وكلياتها ناصعة؛ بينما تنزيلها وتطبيقها على الواقع، يوقع في التزاحم بينها، لا بسبب أنها شرعت في الأصل متزاحمة أو متعارضة، ولكن بسبب تعدد الوقائع وتناقضها في أحيان كثيرة، فإذا حملت الواقعة وصفين متعارضين ودعت إلى أحد الاختيارين المتباينين، فلا شك أن كل وصف

---

1 الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام 275/4، تحقيق عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت - لبنان 1402هـ.

وراءه مصلحة يرجى حفظها؛ مما يستوجب بعد هذا الالتقاء والتقاطع، الترجيح بينهما من حيث الأقوى والأهم والأعلى رتبة.

ب- التأسيس الثاني: حفظ الكليات الخمس متضمن في المراتب الثلاث:

القصد هنا **بالكليات الخمس:** حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسل، وحفظ المال، والقصد **بالمراتب الثلاث:** الضروريات والحاجيات والتحسينيات.

هذه المراتب الثلاث هي التي استقر عليها الدرس المقصدي منذ الإمام الغزالي[1]، وهي كما أشار إليها عَلَم المقاصد الإمام الشاطبي :

المصالح الضرورية: وهي ما لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين، كحفظ النفوس فإنه مقصود الشارع.

المصالح الحاجية: وهي ما كان مفتقرا إليها من حيث التوسعة ورفع الضيق المؤدي إلى الحرج والمشقة اللاحقة بفوت المطلوب، فإذا لم تراع، دخل على المكلَفين الحرج والمشقة، ولكنه لا يبلغ مبلغ الفساد العادي المتوقع في المصالح العامة.

المصالح التحسينية: وهي الأخذ بما يليق من محاسن العادات، وتجنب الأحوال المدنّسات، التي تأنفها العقول الراجحات، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق، أي ما يقع موقع التحسين والتزيين[2].

---

1 ينظر مثلا: أبو حامد الغزالي، شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل، ص 162، تحقيق حمد الكبيسي، مطبعة الإرشاد، بغداد، الجمهورية العراقية، 1390هـ - 1971م، وابن قدامة، روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ص538، تحقيق وتعليق الدكتور عبد الكريم النملة، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1413هـ - 1993م.

2 الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، 12/3 و19 و22، تحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الطبعة الأولى 1417هـ/ 1997م.

إن الشائع في الكثير من الكتابات الأصولية والمقاصدية هو تسمية الكليات الخمس، بالضروريات الخمس أيضا، وهذا الكلام قد يحيل إلى استثناء من أن تكون كل من مرتبتي الحاجيات والتحسينيات، راعية لهذه الكليات الخمس؛ والواقع أن هذا الرأي بالإجمال مقبول ومتفهم، باعتبار أن الشريعة قاصدة بالضرورة إلى حفظ هذه الكليات الخمس، لأنها أساس الحياة، بها تقوم، وبفقدانها تضيع؛ أما بالتفصيل، فإن هذه الكليات الخمس لا تتوقف على الضروريات فقط؛ بل تمتد فروعها وتجلياتها إلى الحاجيات والتحسينيات؛ وبمعنى آخر، فكما أن المصالح الضرورية تتضمن أحكاما تؤدي إلى حفظ هذه الكليات الخمس، فحتى الحاجيات والتحسينيات تتضمن أحكاما أيضا تحفظها، لكنها متفاوتة عن الأولى من حيث قوتها وأهميتها، إلى درجة أن الأحكام الراعية لمرتبة التحسينيات تعد مكملة لأحكام الحاجيات، والتي بدورها تعد تكملة لأحكام الضروريات. من أمثلة ذلك مما يتعلق بحفظ الدين، أن الشارع الحكيم قد شرع من الأحكام ما به يحفظ هذا الدين، وهذه الأحكام تتوزع بين ما يحفظ هذا الدين ضرورة وحاجة وتحسينا؛ فمما يحفظه من حيث الضروريات، نجد فريضة الصلاة بحكم ارتقاء الشرع بها إلى أعلى مراتب الوجوب، أما ما يحفظه من جهة الحاجيات، فنجد مثلا الطهارة التي تعد مكملة للصلاة ومقصودة من أجلها؛ وأما ما يحفظه من جهة التحسينيات فكالتنزه عن النجاسات وأخذ الزينة، فذلك مكمل لما قبله؛ ومن الأمثلة المتعلقة بحفظ النسل ضرورة، عقد الزواج، أي ضرورة إقامته، وترتبط بهذا العقد أحكام على درجة أقل من الأهمية، كاشتراط ولي المرأة، وهو ركن يعد من الحاجيات المكملة للضروري؛ لأن عدم وجوده لا ينبغي أن يعود على الأصل بالإبطال، أما تحسينيات هذا الباب، فمنها إقامة الوليمة والإشهار مما يكمل المصالح السالفة.

وبهذا التصنيف، استنبط العلماء مبادئ مهمة في فقه الأولويات، وفي الترجيح بين المصالح عند تزاحمها، من أهمها أن "كل تكملة فلها من حيث هي تكملة شرط، وهو أن لا يعود اعتبارها على الأصل بالإبطال، وذلك أن كل تكملة يفضي اعتبارها إلى رفض أصلها، فلا يصح اشتراطها عند ذلك"[1].

1 الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، 29/3.

بناء على كل ذلك، نصل إلى أن كل مرتبة من المراتب الثلاث، تتضمن الكليات الخمس بأكملها، وهو ما لم يلتفت إليه في عدد غير قليل من الكتابات الأصولية والمقاصدية؛ من ذلك على وجه التمثيل لا الحصر، معلمة زايد للقواعد، التي تعد من الدراسات المعاصرة الجامعة المانعة لهذا الموضوع، فعند الحديث عن قاعدة "المقاصد الشرعية ضروريات وحاجيات وتحسينيات" جاءت الإشارة بقوة واستفاضة إلى الكليات الخمس في ثنايا الحديث عن الضروريات، وغاب الأمر عند الحديث عن الحاجيات والتحسينيات؛ إذ اكتفي عند الحديث عن الحاجيات، بأنها مصالح ذات أهمية بالغة في الدين والدنيا[1].

2- حفظ الأبدان أولا، أم حفظ الأديان :

إن عددا لا بأس به من تعليقات العلماء الأفاضل حول نازلة إغلاق المساجد، مالت إلى إقرار قصد الشريعة في حفظ النفوس وحفظ الأبدان، باعتباره مقدما على غيره من المصالح التي جاءت الشريعة من أجلها، دون أن يصرحوا بهذه المصالح المرجوحة –والتي هي في نازلتنا تتعلق بكلية الدين المرتبطة ببيوت الله-، ومنهم من صرح بهذه المصالح المرجوحة من خلال ما سموه بقاعدة حفظ الأبدان مقدم على حفظ الأديان، فهل الأمر كذلك؟

إن المستقرئ والمتتبع لكتب علم الأصول وكتب القواعد الفقهية والمقاصدية لا شك أنه سيلحظ الاستقرار الذي ترتب عن النقاشات والخلافات الأصولية حول ترتيب الكليات الخمس، إذ استقر الأمر على تصنيف حفظ الدين أولا ثم حفظ النفس ثم حفظ العقل ثم حفظ النسل ثم حفظ المال، من هذه النقاشات والردود ما أورده الإمام الآمدي: "فإن قيل: بل ما يفضي إلى حفظ مقصود النفس أولى وأرجح، وذلك لأن مقصود الدين حق الله تعالى ومقصود غيره حق للآدمي، وحق الآدمي مرجح على حقوق الله تعالى لأنها مبنية على الشح والمضايقة، وحقوق الله تعالى مبنية على المسامحة والمساهلة من جهة أن الله تعالى لا يتضرر بفوات حقه، فالمحافظة عليه أولى من المحافظة

1 معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية والمقاصدية، 515/3 إلى 526، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ومجمع الفقه الإسلامي الدولي، الطبعة الأولى، 2013هـ.

على حق لا يتضرر مستحقه بفواته، ولهذا رجحنا حقوق الآدمي على حق الله تعالى بدليل أنه لو ازدحم حق الله تعالى وحق الآدمي في محل واحد، وضاق عن استيفائهما بأن يكون قد كفر وقتل عمدا عدوانا نقتله قصاصا لا بكفره. وأيضا قد رجحنا مصلحة النفس على مصلحة الدين، حيث خففنا عن المسافر بإسقاط الركعتين وأداء الصوم، وعن المريض بترك الصلاة قائمًا وترك أداء الصوم..، قلنا: أما النفس فكما هي متعلق حق الآدمي بالنظر إلى بعض الأحكام، فهي متعلق حق الله تعالى بالنظر إلى أحكام أخر، ولهذا يحرم عليه قتل نفسه والتصرف بما يفضي إلى تفويتها، فالتقديم إنما هو لمتعلق الحقين ولا يمتنع تقديم حق الله وحق الآدمي على ما تمحض حقا لله..، وأما التخفيف عن المسافر والمريض فليس تقديما لمقصود النفس على مقصود أصل الدين بل على فروعه، وفروع أصل غير أصل الشيء، ثم وإن كان فمشقة الركعتين في السفر تقوم مقام مشقة الأربع في الحضر، وكذلك صلاة المريض قاعدا بالنسبة إلى صلاته قائمًا وهو صحيح، فالمقصود لا يختلف"[1]. ولعل الشواهد والنقول التي تفي بغرض بيان هذا الترتيب الذي استقر عليه الأمر، مما لا يحصى ولا يحصر، منه ما جاء في مراقي السعود:

"دينٌ فنفسٌ ثم عقلٌ نسبُ مالٌ؛ إلى ضرورةٍ تنتسبُ

ورتِّبنْ، ولتعطفنْ مُساويا عِرْضا على المال، تكُنْ مُوافيا"[2].

أما مقولة "حفظ الأبدان مقدم على حفظ الأديان" التي نسبت إلى الفكر التقعيدي، فبين وواضح أنها تفيد خلاف ما يفيده الترتيب المستفيض، الذي ينص على أن حفظ الدين أولى من حفظ النفس، جاء في شرح زاد المستقنع: جواز الفطر في الجهاد في سبيل الله، وذلك للمشقة

1 الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، 275/4

2 محمد الأمين بن زيدان الجكني، مراقي السعود إلى مراقي السعود، ص349، تحقيق محمد المختار بن الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الأولى 1993م.

وللقياس الظاهر-بل الأولى- على مسألة السفر والمرض ولحفظ الأديان الذي هو أعظم من حفظ الأبدان والأموال[1].

لكن رغم ذلك هناك من يستفرغ جهده ويبذل طاقته في إثبات أن حفظ الأبدان أولى، مستدلا بأدلة منها :

– حديث عمار الذي خيره الكفار بين التعذيب و الكفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم فاختار مضطرا النطق بكلمة الكفر، فعن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، عن أبيه، قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر آلهتهم بخير ثم تركوه، فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما وراءك؟» قال: شر يا رسول الله، ما تركت حتى نلت منك، وذكرت آلهتهم بخير قال: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئن بالإيمان، قال: «إن عادوا فعد»[2].

– ومما يستدلون به أيضا المعقولات، ومنها ما يقال بأن أحكام الدين لا عبرة بها إن غابت النفس وأهدرت، فالأصل هو حياة الإنسان، وإلا فما قيمة الأحكام مع عدم وجود إنسان يقوم به وعقل يدركه، ومن ثَمَّ كان الحفاظ على النفس الإنسانية هو محور التكاليف الشرعية.

– الاستدلال بأن الشرع منح حق الحياة لكل إنسان، لكنه ترك العقيدة مجالا للاختيار، أي أنه سبحانه منع المساس بحياة الإنسان ولو كان غير مسلم، بما يظهر قيمة الحياة الإنسانية وإن اختلفت الديانة، وهو ما أسسته الآية القرآنية: ﴿**لا إكراه في الدين**﴾[3]، ولذلك قال سبحانه: ﴿**وإن أحد من**

1 حمد بن عبد الله بن عبد العزيز الحمد، شرح زاد المستقنع، 10 / 15، موقع الزاد لدروس الشيخ حمد، 1430هـ، وانتهى الشيخ من مراجعته في 1438هـ.

2 أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، تفسير سورة النحل، رقم3362، و البيهقي في السنن الكبرى، باب المكره على الردة، رقم 16896

3 سورة البقرة، الآية 256

المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾[1]، فهنا لم ينظر الشرع إلى ديانته – مع شِركه ومخالفته– وإنما نظر إلى كينونته وآدميته، للدلالة على ضرورة حفظ حياة الإنسان، الذي جعله الله تعالى سيدا على سائر المخلوقات، بل هذا الأمر امتد إلى حال الوفاة ولم يتوقف فقط على حال الحياة بسند ما رواه عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : "كَانَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْف، وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ قَاعِدَيْنِ بِالقَادِسِيَّةِ، فَمَرُّوا عَلَيْهِمَا بِجَنَازَةٍ، فَقَامَا، فَقِيلَ لَهُمَا إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ أَيْ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ، فَقَالاَ: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ فَقَامَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ: «أَلَيْسَتْ نَفْسًا»"[2].

إن مجمل استدلالات من يناصر ترجيح حفظ الأبدان على حفظ الأديان أو حفظ النفس على حفظ الدين لا تخرج عموما عن هذا، أما الأجوبة والردود التي يمكن تقديمها فأبرزها ما يأتي :

– إن حديث عمار الذي يعد عمدة استدلالات هذا الاتجاه، لا يشكل حجة لترجيح حفظ النفس على حفظ الدين، لأن نطق الصحابي الجليل بكلمة الكفر لا يمس عقيدته في شيء، بل هو أسلوب اعتمده إرضاء لمعذبيه من قبيل المواراة والتحايل المقبول شرعا، أي أن هذه الحالة لم يتزاحم فيها أصلا حفظ الدين مع حفظ النفس بدليل قرينة واردة في الأثر نفسه، وهي قوله عليه الصلاة والسلام لعمار: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئن بالإيمان، وكأنه عليه الصلاة والسلام يريد معرفة هل تناقض عند عمار حفظ نفسه مع حفظ دينه، فكان جوابه بالنفي، أي مادام قلبه باقيا على حاله كما كان، فليس هناك تهديد لإيمانه، وإلا لو وقع التزاحم فعلا كما يقولون، لاقتضى الحال أن نقول أن عمارا انتصر لحفظ نفسه وضيّع دينه، وهو ما لم يقع؛ فهو بما قاله لم يضيّع دينه؛ ثم ما قال له عليه الصلاة والسلام: "إنْ عادوا فعُدْ"، إلا بعد تيقنه من أنَّ الدين غير مهدد، وتيقنه من عدم تزاحم مصلحتي حفظ النفس مع حفظ الدين أصلا، بدليل سؤاله عن إيمانه هل هو باق على أصله، لكن هبْ أن الإيمان لن يظل على أصله، وأن النطق بكلمة الكفر يُخْرجه من الإيمان، آنذاك ما كان عليه

---

1 سورة التوبة، الآية 6

2 أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي، رقم 1312، واللفظ له. ومسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة، رقم 961.

الصلاة والسلام ليرخص له في النطق بها، ولو ترتب عنه إزهاق روحه بدليل نصوص كثيرة تبلغ حد التواتر المعنوي، على معاني الابتلاء التي تعرض لها الأنبياء والصحابة والصالحون والعلماء، بحيث رجحوا حفظ دينهم ولو في سبيل إهدار نفوسهم، من ذلك ما جاء عن خباب بن الأرت، قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه»[1].

– وأما ما يستدل به من المعقولات، من حديث عن مكانة حفظ النفس في الإسلام وقيمة الحياة الإنسانية عموما، فذلك كله مما لا ينكر ولا يخالف؛ لكن ليس إيراد نماذج من سنة نبينا تفيد احترام النفس البشرية ولو كانت مخالفة لديننا، يعد من حجج القول بترجيح حفظ النفس على حفظ الدين؛ بل بالعكس، إنّ ذلك وراءه قصد حفظ الأديان أساسا من التهديد والإكراه؛ بل إنّ من تمام حفظ الدين، احترام الحريات واحترام المخالف حتى على مستوى العقيدة، لأن ديننا دعا إلى احترام المخالف والعناية بأمواله ونسله وكافة حقوقه... وإلا فقد يقول قائل: إن حفظ المال والنسل وسائر الحقوق مقدم على حفظ الدين، بحكم أن ديننا يمنع الاعتداء على أموال غير المسلمين وكافة حقوقهم، وهذا ما لا يقوله عاقل فضلا عن عالم.

– ثم إن منح الحريات الشاملة والحقوق الكاملة في الحياة، إنما وراءه مقاصد، أحدها أن يكون للحساب الأخروي معنى، أي أن يحاسب الإنسان على أعمال وتصرفات اختارها بمحض إرادته، فيتحمل مسؤولية الحساب كاملة، أي مسؤولية حفظه لدينه بتلك الحريات التي منحها سبحانه له، لهذا جاءت آية كريمة كافية شافية ضابطة لهذا الموضوع، هي قوله تعالى : ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾[2]، أي إن العلة من خلق الخلق ورعاية حقوقهم وكافة حرياتهم هي معرفة الله وعبادته، وهو عمق حفظ الدين وصونه، لذلك يقول ابن تيمية مرجحا بين الأمرين : "الفساد إما في الدين وإما

1 أخرجه البخاري في صحيحه، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم 3612 .

2 سورة الذاريات، الآية56 .

في الدنيا فأعظم فساد الدنيا قتل النفوس بغير الحق، ولهذا كان أكبر الكبائر بعد أعظم فساد الدين الذي هو الكفر"[1].

– ويكفينا في ختام هذه الجزئية أن نختار أي الجوابين أسلم وأحكم عن السؤال الآتي:

أي الجوابين فيه النجاة للإنسان يوم لقاء ربه؟ هل من أجبره حفظ نفسه تضييع دينه؟ أم من أجبره حفظ دينه تضييع نفسه.

3-حكم إغلاق المساجد بسبب كورونا من خلال الموازنة بين حفظ الأديان وحفظ الأبدان، أو بين حفظ الدين وحفظ النفس :

إذا كنا قد حسمنا من قبل القول بأن حفظ الأديان مقدم على حفظ الأبدان، أو أن حفظ الدين مقدم على حفظ النفس، فهذا بالإجمال لا التفصيل، لأن التفصيل يقتضي منا ضبط المرتبة التي تندرج فيها المصلحة المتوخاة من حفظ الدين، والمرتبة التي تندرج فيها المصلحة المتوخاة من حفظ النفس، وذلك بناء على التأسيس الثاني الذي أشرنا إليه سابقا.

وهذا الضبط التقعيدي هو السبيل إلى ضبط حكم المسألة فقهيا، وهو المعين عموما على التوصل لجميع الأحكام الشرعية والنوازل الفقهية التي تستجد في حياة الناس، بطبيعة الحال بشرط أن يكون صادرا عن أهله ممن استجمعوا شروط الاجتهاد وتحققت فيهم أوصافه، ولهذا جعل الإمام الشاطبي هذه الشروط تدور حول إدراك وضبط البعد المقاصدي في قولته الشهيرة: "أوصاف من تحصل له درجة الاجتهاد : الأولى: فهم مقاصد الشريعة على كمالها، الثانية: التمكن من الاستنباط بناء على فهمه فيها"[2].

إن القواعد المقصودة هنا تتعلق بترتيب المصالح المتوخاة من الأحكام الشرعية، بحيث تصنف وفق الأولى فالأقل أولوية، والأهم فالأقل أهمية، لتكون النتيجة معرفة الحكم الشرعي المناسب عند

1 ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، 253/1، تحقيق ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة، 1419هـ - 1999م.

2- الشاطبي، الموافقات 433/5.

وقوع التزاحم بين هذه المصالح[1]. وفيما يأتي نصنف ونرتب القواعد المقصودة، والتي لها ارتباط بنازلتنا المتعلقة بحكم إغلاق المساجد بسبب هذا الوباء المنتشر:

أ- أعلى المراتب هي الضروريات، فالضروري في حفظ الدين مقدم على الضروري في حفظ النفس، وبالتبع مقدم على الحاجي والتحسيني في حفظ النفس أيضا.

ب- الضروري في حفظ النفس مقدم على الحاجي والتحسيني في حفظ الدين.

ت- الحاجي في حفظ الدين مقدم على الحاجي والتحسيني في حفظ النفس

ث- الحاجي في حفظ النفس مقدم على التحسيني في حفظ الدين

ج- التحسيني في حفظ الدين مقدم على التحسيني في حفظ النفس.

إنها القواعد الخمس التي تضبط علاقة كلي حفظ الدين بكلي حفظ النفس، والتي من شأنها معالجة كل مظاهر التزاحم التي تقع بين المصالح التي تحفظ الدين والتي تحفظ النفس. وبتنزيل هذه الموازنات على النازلة التي شغلت العلماء والرأي العام بسبب انتشار وباء كورونا، يمكن القول إنها تنسجم مع التقعيد "ب"، باعتبار أن : الصلاة ببيوت الله تعد مصلحة من المصالح التي جاء الشرع لرعايتها بنصوص صحيحة وصريحة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وهي مصلحة ملحقة بحفظ الدين بدون شك، لأن كل أحكام العبادات أصلا تلحق بكلي حفظ الدين. ومن جهة أخرى فهي تلحق بمرتبة التحسينيات أو على أعلى تقدير بمرتبة الحاجيات، وذلك بحسب الاختلاف الفقهي المذهبي في حكمها الشرعي، لكنها لا يمكن أن تصل لمرتبة الضروريات، فإقامة الصلاة في حد ذاتها من مرتبة الضروريات، لكن إقامتها بالمساجد، أي صلاة الجماعة، فهي لا تعدو أن تكون في مرتبة التحسينيات.

1 هذه الموازنات مستفادة من الكتاب الجامع المانع الماتع للدكتور سالم الشيخي الموسوم ب: مهارات الاجتهاد التنزيلي لفقه المصالح والمفاسد وتطبيقاتها على الواقع الإفتائي المعاصر، دليل إعداد المدربين، دار قناديل العلم للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى 2017. وقد تشرفت بحضور دورتين تكوينيتين بالمغرب حول هذه المهارات، تأطير الدكتور سالم الشيخي.

وبذلك فالمصلحة المترتبة عن صلاة الجماعة تعد تحسينية متعلقة بحفظ الدين، أو كما قلنا حاجية متعلقة بحفظ الدين (وسواء جعلناها حاجية أو تحسينية فهو غير مؤثر على حالتنا هذه). أما حفظ حياة الناس إزاء انتشار هذا الوباء فهو بدون شك من المصالح أيضا التي جاء الشرع لرعايتها بنصوص صحيحة وصريحة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وهي مصلحة ملحقة بحفظ النفس بدون شك. ومن جهة أخرى فهي تلحق بمرتبة الضروريات، لأن هذا الفيروس يعد وباء قاتلا كما هو سائد في الواقع الصحي، فالتعرض للإصابة بعدوى هذا الفيروس، يفضي إلى إزهاق الأرواح والأنفس. وبذلك فالمصلحة المترتبة عن الوقاية من مرض كورونا تعد ضرورية متعلقة بحفظ النفس.

ومن هنا يظهر بحسب السلم الترتيبي للمصالح أعلاه، أن المصلحة الضرورية المتعلقة بحفظ النفس أولى وأرجح من المصلحة الحاجية أو التحسينية المتعلقة بحفظ الدين عند تزاحمهما كما في حالة هذا المرض، وهي المشار إليها في القاعدة "ب"، وبذلك يكون الحكم الشرعي المستفاد هو ضرورة الحرص على حماية الأرواح والأبدان ولو ترتب عنه إغلاق بيوت الله تعالى.

المصادر والمراجع

- الآمدي، أبو الحسن سيف الدين(631هـ)، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت - لبنان 1402هـ.
- البخاري، الإمام محمد بن إسماعيل، أبو عبد الله البخاري الجعفي(256ه)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، 1422هـ.
- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني، أبو بكر(458هـ)، السنن الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، 1424 هـ - 2003 م.
- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (728هـ)، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب

الجحيم، تحقيق ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة، 1419هـ - 1999م.

- الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري (405هـ)، المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، 1411 هـ – 1990م.
- حمد بن عبد الله بن عبد العزيز الحمد، شرح زاد المستقنع، موقع الزاد لدروس الشيخ حمد، 1430هـ، وانتهى الشيخ من مراجعته في 1438هـ.
- سالم الشيخي، مهارات الاجتهاد التنزيلي لفقه المصالح والمفاسد وتطبيقاتها على الواقع الإفتائي المعاصر، دليل إعداد المدربين، دار قناديل العلم للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى 2017.
- الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (790هـ)، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الطبعة الأولى 1417هـ/ 1997م.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (505هـ) شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل، تحقيق حمد الكبيسي، مطبعة الإرشاد، بغداد، الجمهورية العراقية، 1390هـ - 1971م.
- ابن قدامة، موفق الدين عبد الله ابن قدامة المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي(620هـ)، روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق وتعليق الدكتور عبد الكريم النملة، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1413هـ - 1993م.
- المرابط، محمد الأمين بن زيدان الجكني، مراقي السعود إلى مراقي السعود، تحقيق محمد المختار بن الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الأولى 1993م.

- مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج، أبو الحسن القشيري النيسابوري (261هـ)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم(صحيح مسلم)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية والمقاصدية، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ومجمع الفقه الإسلامي الدولي، الطبعة الأولى، 2013هـ.

الأحكام الفقهية لبعض المسائل المستجدات الحالية في زمن وباء كورونا

د. رشيد اليزيدي[1]

مقدمة:

لقد امتحن الله الأمة الإسلامية بهذا المصاب الجلل في هذه الأيام العصيبة، بسبب هذا الوباء الذي فتك بالبشرية في العالم أجمع، ولم يسبق مثله في الأزمنة الفارطة، رغم مضي أوبئة كثيرة تؤذي الكائن البشري، فتحصد أرواح الأبرياء، ولكن وباء كورونا المستجد أعظم وأشدّ من كل ما سبق اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا، فأُغْلِقت بسببه المدارس والجامعات، وتوقفت حركة السير في كل الاتجاهات، وسُدَّت كل الأبواب والطرقات، فكان هذا الأمر امتحانا واختبارا، وإعلاما وإخبارا، من الله العزيز الجبار، مصداقا لقول ربنا عز وجل :﴿ **ولنبلونكم بشي من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس و الثمرات، وبشر الصابرين**﴾[2] قال أبو بكر رضي الله عنه: في معنى الآية ولنختبرنكم "بشيء من الخوف والجوع"، لتنالوا به درجة، وتصلوا معه إلى منزلة، لولا هو ما وصلتم إليها، ولكي تتضرعوا في كشفه عنكم، فتكتسبوا بذلك حظا من الثواب جزيلا، ﴿ **لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[3]، وقال في آية أخرى:﴿ **وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ** ﴾[4]، قال صاحب الظلال:"والابتلاء بالشر مفهوم أمره، ليتكشف مدى احتمال المبتلى ومدى صبره على الضر، ومدى ثقته في ربه، ورجائه في رحمته، وإن الابتلاء بالخير أشد وطأة، وإن خيل للناس أنه دون الابتلاء بالشر"[5]، فجاء الخطاب المولوي صريح اللفظ والعبارة، و المعنى والمبنى والدلالة، على أن هذا الكون الفسيح لخالق ومبدع واحد، لا يتصرف فيه أحد،

1 دكتوراه من جامعة القاضي عياض بمراكش.

2 سورة البقرة، الآية 153

3 سورة الأنفال الآية 42

4 سورة الأنبياء الآية 34

5 في ظلال القرآن، ج 4 /2377، الناشر: دار الشروق، بيروت، القاهرة، الطبعة السابعة عشر 1412هـ.

مهما بلغ وادعى بلوغه من علم وحضارة، فقد توقفت الأجهزة البارعة، والوسائل البديعة، والآلات المبتكرة، والأطباء حائرون أمام هذا الداء نتيجة عجزهم عن إيجاد دواء ضد هذا الوباء الفتاك، وما هذا إلا ذكرى للمتذكرين، وموعظة للمتعظين، فالناس تريد أن ترجع إلى حياتها الطبيعية، إلا أن الوضع لا يستسيغ لها ذلك، فاحتاجت إلى من ينور لها الدرب، ويضيء لها السبيل، حتى تطمئن في عملها، سواء مع بارئها جل وعلا، أو مع عائلتها وأفراد أسرتها، خصوصا في جانب أمور الدين حيث أغلقت بيوت الله المساجد، التي هي مصدر الأمن الروحي، وزيادة الإيمان، وخلق التآلف والمحبة بين المصلين، وصفاء الود بينهم، ولا شك أن مع العسر يسرا وأن الكرب سيزول لا محالة، ولنا أن نقتفي قول الشاعر في أبياته:

ندعو القريب بعفوه وبلطفه *** أن يستجيب لكي يطيب لنا الغد

ونعود نعمر بالصلاة مساجدا*** هي في الحياة لنا المكان الأسعد[1]

لهذه الأمور كلها، ولأجل المساهمة بجهد المقل في تنوير وعي الناس بهذه الجائحة، كتبت هذا المقال الذي تناولت فيه ما يلي:

أولا : مفهوم الوباء من حيث اللغة والاصطلاح

ثانيا : مفاهيم ذات الصلة بالوباء مع التمييز بينها

ثالثا : بعض الأحكام الفقهية للحالة المستجدة منها:

أ - عدم الخروج من المنزل أثناء الوباء أهو حجر صحي أم فرار من قدر الله؟.

ب - اجتماع الناس على الصلاة والدعاء أثناء الوباء هل جائز أم لا ؟

ج - أحكام الميت والمفقود زمن الوباء

1 البيتان للشاعر سعد عطية الغامدي منشورة في تغريدة له عبر تويتر ولم يعرف له ديوان.

د - هل يعد التيمم مسقطا للوضوء للأطباء المتناولين المرضى زمن وباء كورونا.

أولا : - مفهوم الوباء لغة واصطلاحا:

"وَبَأ، وَهِيَ أَرْضٌ وَبِئَةٌ عَلَى فِعْلِهِ وَقَدْ وَبَئِت، وموبوءة وَقَد وَبَيْت[1]. وَقَوْلُهُم: وَبَات إِلَيْه، و وَبَات، أَي أَشَرْت، مِنْ بَابِ الْإِبْدَال، وَالْأَصْل الْمِيم، وَقَدْ أَنْشَدُوا بِالْبَاء"[2]، تَرَى النَّاسَ مَا سِرْنَا خَلْفَنَا ***وَإِن نَحْنُ أَوْ بِأَنَّا إِلَى النَّاسِ وَقَفُوا[3]، وَقَالَ الْخَلِيلُ فِي كِتَابِهِ الْعَيْن: "الْوَبَاء مَهْمُوزٌ : الطَّاعُون، وَهُوَ أَيْضًا كُلُّ مَرَضٍ عَام، تَقُول : أَصَابَ أَهْلُ الْكُورَة الْعَامّ وَبَاء شَدِيدٌ، وَأَرْض وَبِئَةٌ، إِذَا كَثُرَ مَرَضهَا، وَقَد استوبأتها، وَقَد وبؤت توبؤ وباءة إِذَا كَثُرَتْ أَمْرَاضهَا"[4]. وأما "قولهم أرض وبئة، وقد وبئت، معنى هذا قد جعل بها الوباء، فخرج على مثل جعل، وفعل في هذه اللغة. وهذا نظير قولهم: رجع ورجعته، وجبر وجبرته وإن كان بينهما فرق، وذلك أنك إذا جعلت الفعل للبلدة، بنيته على فعل يفعل، كفعل المطاوعة بمعنى الانفعال، والقياس في هذا أن يقال: موبأة وقد أو بئت، فينقل الفعل عنها بالألف، أو بحرف جر، والدليل على ذلك أنه لا يقال: قد وبأها الله، علت مثال فعلها الله، ولكن أو بأها الله. والعامة لا تهمز هذا، والأصل فيه الهمز، وإن كان ترك الهمز فيه جائزا. قال الخوارزمي في مفاتيح العلوم :" والوباء مهموز مقصور، مرض عام، وجمعه الأوباء، ولا يجوز مده وجمعه أوبئة "[5].

ثانيا : اصطلاحا: قال النووي: (الطاعون قروح تخرج في الجسد، فتكون في الآباط أو المرافق أو الأيدي أو الأصابع وسائر البدن، ويكون معه ورم وألم شديد، وتخرج تلك القروح مع لهيب، ويسود ما حواليه أو يخضر أو يحمر حمرة بنفسجية كدرة ويحصل معه خفقان القلب والقيء)[6]. الوباء : يحصل بفساد الهواء فتفسد منه الأمزجة. وهو عند أهل الطب ورم ردئ قتال، يخرج منه تلهب

1 مجمل اللغة لا بن فارس "باب الواو والتاء وما يثلثها" ج 1 ص 915

2 مقاييس اللغة لأحمد بن فارس القزويني " باب وبأ " ج 6 ص 83 .

3 المصدر السابق.

4 العين لأحمد بن خليل الفراهيدي باب اللفيف من الباء بوأ، بووى، ج 8 ص 418

5 مفاتيح العلوم لمحمد بن أحمد البلخي الخوارزمي، ج 1 ص 190،

6 الموسوعة الفقهية الكويتية، ج 28 ص 329 صادر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

شديد مؤلم جدا، يتجاوز المقدار في ذلك ويضير ما حوله في الآخر أسود أو أخضر أو أكمد، ويئول أمره إلى التقرح سريعا[1]. وقال بعض الأطباء: (هو غليان في الدم يحدث عن فساد في الهواء، وقد يجمع ذلك بأن يقال هو فساد في الهواء تأخذه الجن فتخز به الأجسام أي تطعنها به، فيحدث بذلك غليان في الدم لتنشأ عنه غدة كغدة البعير، والله أعلم).[2] وقال ابن القيم الجوزية: (الطاعون يعبر به عن ثلاثة أمور:

- أحدها : هذا الأثر الظاهر، وهو الذي ذكره الأطباء.
- الثاني: الموت الحادث عنه، وهو المراد بالحديث الصحيح في قوله: الطاعون شهادة لكل مسلم.
- الثالث: السبب الفاعل لهذا الداء، وقد ورد في الحديث الصحيح، أنه بقية رجز أرسل على بني إسرائيل، وورد فيه أنه وخز أعدائكم من الجن، وجاء أنه دعوة نبي)[3].

ولما كان الطاعون يكثر في الوباء، وفي البلاد الموبوءة عبر عنه بالوباء، كما قال الخليل: الوباء الطاعون؛ وقيل: هو كل مرض يعم، والتحقيق أن بين الوباء والطاعون عموما وخصوصا، فكل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعونا، وكذلك الأمراض العامة أعم من الطاعون، فإنه واحد منها، والطواعين خراجات وقروح وأورام رديئة حادثة.[4] قال ابن القيم الجوزية: (هذه القروح والأورام والجراحات هي آثار الطاعون وليست نفسه، ولكن الأطباء لما لم تدرك منه إلا الأثر الظاهر جعلوه نفس الطاعون) .[5]

ثالثا : - مفاهيم ذات الصلة بمفهوم وباء كورونا

1 حاشية الروض المربع لعبد الرحمان بن محمد بن قاسم العاصمي الحنبلي، ج 2 ص 198
2 شرح زروق على متن الرسالة للشيخ زروق الفاسي، ج 2 ص 1094
3 زاد المعاد في هدي خير العباد لا بن القيم الجوزية، ج 4 ص 36.
4 الطب النبوي لابن القيم الجوزية، ج1 ص 31.
5 زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم الجوزية، ج 4 ص 36.

1 - الطاعون: قال ابن الأثير: (الطاعون المرض العام).[1]

2 - الوباء: يحصل بفساد الهواء فتفسد منه الأمزجة.

3 - القرءة: مثل القرعة وهي الوباء: قال الأصمعي: (إذا قدمت بلادا، فمكثت بها خمس عشرة ليلة، فقد ذهبت عنك قرأة البلاد).[2]

قال : (وأهل الحجاز يقولون قرة بغير همزة أنه إذا مرض بها ذلك فليس من وبإ البلد)[3]، وقال القاضي عياض: (أصل الطاعون القروح الخارجية من الجسد).[4] والوباء عموم الأمراض فسميت طاعونا لشبهها بها في الهلاك. وقال ابن سينا وغيره: الطاعون مادة سمية تحدث ورما قتالا يحدث في المواضع الرخوة والمغابن من البدن. وأما الوباء: فهو فساد جوهر الهواء الذي هو مادة الروح ومددها[5]. والظاهر: أن بين الطاعون والوباء تغايرا، أن الطاعون أخص، وظاهر كلام"القاموس" أن بينهما ترادفا وموافقة، أما ما يستفاد من كلام ابن سينا هو أن كلا منهما يطلق على الآخر، وقيل إن الطاعون أخص من الوباء، لأنه طعن الجن، والوباء بالمد والقصر المرض العام لخبر "الصحيحين" عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "على أبواب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال"، مع خبر عائشة قالت:(قدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله) الحديث، وفيه قول بلال: (اللهم العن شبيبة بن ربيعة، وأمية بن خلف كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء)، فلو كان الطاعون هو الوباء لتعارض الخبران، وهذا لا ينافي إطلاق أحدهما على الآخر مجازا.[6]

1 فتح الباري "كتاب المرضى"، ج 10 ص 113.
2 محيط المحيط " باب القاف"،ج 7 ص 235 .
3 الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي "باب قضا"، ج 1 ص 62.
4 المواهب اللدنية بالمنح المحمدية لأحمد بن محمد القسطلاني، ج 3 ص 55.
5 نفح العبير لأبي محمد عبد الله بن مانع بن غلاب، الروقي العتبي، ج 3 ص 38.
6 منحة الباري بشرح صحيح البخاري لزكرياء بن محمد بن أحمد بن زكرياء الأنصاري، ج 9 ص 32

رابعا : بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بمستجد وباء كورونا

أ - عدم الخروج من بلاد الوباء هل هو بمنزلة الحجر الصحي كما يقول الأطباء أم هو فرار من قدر الله أم هما معا .

إذا وقع الوباء بأرض قوم هل نأذن له بالخروج منها؟ تنزيلا للحديث الذي رواه عبد الصمد بن عبد الوارث بسنده إلى يحي بن سعد عن أبيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان الطاعون بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها، فإذا كان بأرض ولستم بها فلا تدخلوها"[1]، ورأى بعض الأطباء أن الحديث من باب الحجر الصحي، وهو غير مراد، لأن النبي صلى الله عليه وسلم راعى ما هو أعم وأهم وهو الفرار من قدر الله فقال " لا تخرجوا منها فرارا منه ".

وإذا سمع الإنسان أنه وقع في أرض، فهل يجوز أن يقدم عليها ؟ لا : لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا سمعتم به في أرض قوم فلا تقدموا عليها" لأن هذا من باب الإلقاء بالنفس إلى التهلكة، وربنا يقول في محكم التنزيل **"ولا تقتلوا أنفسكم"** ومن قدم على بلد فيه الوباء مثله مثل من أقدم على النار ليقتحم فيها[2]، وهذا دليل قوي على إفادته للحجر الصحي.

وقد أيد ما ذكر حديث عمر رضي الله عنه في أمر الوباء حتى قال أهل العلم: ولو لم يوجد في ذلك إلا حديث عمر لصح به الإجماع، ووجب الانقياد والاتباع، حيث خرج إلى الشام بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فلما كان بسرغ[3] بلغه أن الوباء قد وقع بالشام، فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا عليه، فمنهم من قال له: أرى ألا تفر من قدر الله، ومنهم من قال لا تقدم ببقية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا الوباء، ثم دعا الأنصار فاختلفوا كاختلاف المهاجرين قبلهم، ثم دعا من حضر من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فلم يختلفوا عليه، وأمروه بالرجوع، ولم يكن

---

1 مسند سعد بن أبي وقاص: لأبي عبد الله أحمد بن إبراهيم المعروف بالدورقي، ج 1 ص .

2 الشرح الممتع على زاد المستقنع: لمحمد بن صالح العثيمين، ج 11 ص 111 .

3 - بفتح المهملة وتسكين الراء ثم معجمة، قرية في طرف الشام، أو مدينة من منازل حاج الشام على ثلاث عشرة مرحلة من المدينة. أُنظر التوشيح شرح الجامع الصغير، لعبد الرحمن بن أبي جلال الدين السيوطي، ج 8 ص 335. واللامع الصبيح بشرح الجامع الصغير: لشمس الدين البرماوي، " باب ما يذكر في الطاعون"، ج 14 ص 331.

أحد ذكر في ذلك آية من كتاب الله، ولا حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، يل أشار كل واحد منهم برأيه، وما أداه إليه اجتهاده، ولم ينكر عليه أحد فعله، فقال عمر: إني مصبح على ظهر، فأصبحوا عليه، فقال أبو عبيدة: أفرارا من قدر الله؟ فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة. نعم ؛ نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل في واد عدوتان إحداهما خصبة، والأخرى جذبة، أليس إن رعيت في الجذبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الخصبة رعيتها بأمر الله[1].

فجاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فأخبر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ". وفي حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه " الطاعون شهادة لهذه الأمة، ليس أحد يقع الطاعون ببلده فيقعد صابرا محتسبا يعلم أنه مايصيبه إلا ماقدر الله له لكان له مثل أجر شهيد" رواه البخاري[2].

قال الإمام القرافي: معلقا على حديث " إذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه ..." قال الباجي لا يقدم على الوباء لأنه تغرير بالنفس، ولا يخرج منه لأنه استسلام لقدر الله، وأول وقوع الطاعون كان عذابا، وهو اليوم شهادة لمن وقع به من المؤمنين، وهو أحد التسعة الشهداء، ويجوز الخروج من بلاد الوباء لغرض آخر غير الفرار، قال صاحب البيان؛ قال مالك، لا بأس بالقدوم على أرض الوباء، والنهي الوارد نهي إرشاد لا تحريم، من باب نهيه عليه السلام أن يحل الممرض على المصح لئلا يقع في نفسه أن ما أصابه من ذلك كان بالإقدام، إذ لو لم يقدم لنجا منه، بل لا محيد لأحد عن قدر الله تعالى، ويؤجر إذا قدم عليه معتقدا أن ما أصابه بقدر الله، وما أخطأه لم يكن يصيبه، ويؤجر إن لم يقدم عليه اتباعا للنهي النبوي[3]. وقال الإمام النفراوي أثناء حديثه عن النهي عن خروج أو دخول أرض الوباء، قال إن النهي للكراهة، ومفهوم الفرار أنه لو كان لحاجة فلا ينهى عن شيء مما حصل النهي عنه، وقيل يكره الخروج مطلقا سدا للذريعة، وإنما نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك لأنه في حال القدوم ربما يصيبه شيء فيعتقد أنه من القدوم، وفي حال

1 مسائل أبي الوليد ابن رشد القرطبي، ج 2 ص 1277 .
2 شرح زروق على متن الرسالة، ج 2 ص 1094.
3 الذخيرة للإمام القرافي لشهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، ج 13 ص 325 .

الخروج مخافة أن تتبع الناس بعضها في الخروج فيتزلزل اعتقاد من نجا، ويضيع من كان مريضا وعجز عن الخروج بفقد من يعوده[1]

قال الشيخ النفراوي :" إذا علمت أن النهي عن دخول بلد الوباء أو الخروج منها إنما هو على وجه الفرار، ظهر لك أنه لا منافاة بين النهي، وبين قوله صلى الله عليه وسلم في حديث أنس " الطاعون شهادة لكل مسلم") [2] .[3] وفي رواية إن الطاعون كان عذابا يبعثه الله على من يشاء فجعله رحمة للمؤمنين، فليس من عبد يقع الطاعون به فيمكث في بلده صابرا محتسبا يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله، له مثل أجر شهيد"[4] .

ب - أحكام الموت والمفقود زمن الوباء:

تعد النفس البشرية من أطهر وأزكى ما في الإنسان، وأنقى ما في هيكله العظمي، لذلك شرع الله أحكاما لها لتبقى صفية نقية كما يريده الله عز وجل لها، إلا أن الأحكام تتغير بالتغيرات التي تطرأ على الناس في زمن بعد زمن، فما نعيشه اليوم من هذا الوباء كوفيد 19، الناس في أمس الحاجة إلى بيان حكم شرعي فيما يتعلق بموتى هذا الوباء، هل يتوضأ للميت أم لا ؟ هل يغسل أم لا ؟ أم هو بمنزلة الشهيد فيترك بدون غسل؟.

قال عبد الملك بن حبيب من المالكية: (ولا بأس عند الوباء وما يشتد على الناس من غسل الموتى لكثرتهم كما وقع في الدول الأروبية وغيرها بسبب هذا الوباء -وهو وباء كورونا المستجد- أن يجتزأ منه بغسلة واحدة بغير وضوء يصب الماء عليهم صبا، ولو نزل الأمر الفظيع فكثر الموتى فلا بأس أن يدفنوا بغير غسل شريطة أن لا يجدوا من يغسلهم، ويجعل منهم في قبر واحد. أصبغ وغيره من

---

1 الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، ج 2 ص 551 .

2 الحديث أخرجه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك من طريق حفصة في "كتاب الطب" باب ما يذكر في الطاعون، وفي الجهاد، باب الشهادة سبع سوى القتل، ومسلم في "الإمارة" "باب بيان الشهداء، رقم الحديث 1916 .

3 الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني: لشهاب الدين النفراوي، ج 2 ص 551 .

4 المصدر السابق، ج 2 ص 551 .

أصحاب مالك).[1] قال المازري وهذا الذي قاله ابن حبيب صحيح[2]، قال ابن شاس: (ولا بأس عند الوباء وكثرة الموت واشتداد غسل الموتى على الناس لكثرتهم، أن يكتفي في ذلك بالغسلة الواحدة من غير الوضوء، ويكتفي بصب الماء صبا)[3]. وإن خرج منه شيء وهو على مغتسله، فيرى الحنفية والمالكية - ماعدا أشهب - وهو الأصح عند الشافعية، واختاره أبو الخطاب من الحنابلة: أنه لا يعاد غسله، وإنما يغسل ذلك الموضع، وإليه ذهب الثوري أيضا[4]. وروي عن الشعبي قال:رمسوهم رمسا، وقال: الذي قاله ابن حبيب صحيح، إذا لم يوجد من يغسل، فعلل الأمر بقوله: إن الواجب المتفق عليه يسقط بالعجز عنه، فكيف بهذا المختلف فيه قاله الشيخ أبومحمد بن أبي زيد القيرواني.[5] ويلحق بما سبق، المفقود في زمن الوباء، حيث نص ابن رشد أن من فقد زمن الوباء فالمذهب فيه على قولين:

1- أنه يحكم له بحكم المفقود في زمان الرخاء والراحة، وهو ظاهر المذهب.

2- أنه يحكم له بحكم الميت، وتعتد زوجته بعد التربص والاستيفاء على قدر مايرى الإمام، وهذا على وجه الاستحسان وإلا فالذي تقتضيه نصوص المذهب وهو ظاهر الكتاب، أن المرأة يأمرها الإمام بالعدة بغير تربص ويقسم ماله على ورثتهم.

هذا نص بعض أصحاب مالك، أن الناس أصابهم سنة بطريق مكة سعال، وكان الرجل لا يسعل إلا يسيرا ثم يموت، فمات من ذلك عالم، وفقد ناس ممن خرجوا إلى الحج، فلم يأت لهم خبر

1 الجامع لمسائل المدونة والمختلطة، ج 2 ص 116، الطبعة دار الكتب العلمية – بيروت، وشرح التلقين للإمام المازري، ج 3 ص 100.

2 الجامع لمسائل المدونة لأبي بكر محمد بن عبد الله بن يونس الصقيلي، "باب في غسل الميت وحنوطه وكفنه"، ج 3 ص 1023، والتوضيح في شرح مختصر ابن الحاجب لخليل بن إسحاق، ج 2 ص 136، وعقد الجواهر الثمينة لا بن شاس، ج 1 ص 184.

3 عقد الجواهر الثمينة لا بن شاس، ج 1 ص 184. النوادر والزيادات، ج 1 ص 548.

4 حاشية ابن عابدين لابن عابدين، ج 1 ص 92 . والفتاوى الهندية لجنة العلماء برئاسة نظام الدين البلخي، ج 1 ص 158، ومواهب الجليل للحطاب الرعيني المالكي، ج 2 ص 223.

5 شرح التلقين لأبي عبد الله محمد بن علي التميمي المازري، "كتاب الجنائز"، ج 1 ص 119 .

حياة ولا موت، فهذا ينطبق على بلاد كثر فيه الوباء كالبلاد الأوربية التي تفشى فيها الوباء فأزهقت بأرواح آلاف من الناس، وكذلك في بعض البوادي التي لا تلتزم الناس فيها بالحجر الصحي فتنتقل البشرية من قرى إلى قرى، ومن مداشر إلى مداشر مشيا على أرجلهم، فلا يعلم لهم أثر، فقال اللخمي : (والشأن في أهل البوادي كذلك في الشدائد ينتجعون من ديارهم إلى غيرها من البوادي ثم يفقدون أنهم على الموت، وقد علم ذلك من حالهم إذا توجهوا إلى البلد الذي يمضون إليه تبلغهم الضيعة والموت)[1]. فقد رأى الإمام مالك أن تقسم أموالهم وتعتد نساؤهم، ولا يضرب لهم أجل المفقود ولا غيره" وهو ظاهر قوله في " المدونة" في كتاب النكاح الأول في الأعراب تصيبهم السنة فوقع عند الرجل منهم صبية. قال شهاب الدين النفراوي: (وأما زوجة المفقود في زمن الوباء،فتعتد بعد ذهاب المرض يعني مرض الوباء).[2]

ج - حكم الاجتماع على الصلاة والدعاء لدفع الوباء:

إن الشعائر الدينية هي قوام الشريعة الإسلامية، وهي الملاذ والسلاح لكل مسلم، فإذا أصيب المؤمن بالقلق والكرب والشدة فإنه يهرع إلى الصلاة كي يناجي ربه، ويتضرع خوفا ورجاء، خوفا من عذابه وعقابه، ورجاء في رحمته وغفرانه، والدعاء سلاح المؤمن، خصوصا في هذه الظروف العصيبة التي يشهدها العالم، فلا ملجأ ولا ملاذ للبشرية إلا رفع أكف الضراعة إلى الله ليرفع هذا الوباء، ونحن الآن في شهر كله رحمة ومغفرة، وقد وقع الخلاف بين المسلمين هل يجوز الاجتماع للصلاة قصد التضرع إلى الله لرفع هذا الوباء؟

اختلف العلماء في: هل يدعى برفعه أم لا ؟

فقال بعض العلماء: إنه يدعى برفعه، لأنه نازلة من نوازل الدهر، وأي شيء أعظم من أن يفني هذا الوباء أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ولا ملجأ للناس إلا إلى الله عز وجل، فيدعون الله ويسألون رفعه. وذهب بعضهم إلى عدم الدعاء برفعه معللين بأن ذلك شهادة، فإن الرسول صلى الله عليه

1 التوضيح في شرح مختصر ابن الحاجب، ج 5 ص 105

2 الفواكه الدواني، ج 2 ص 42.

وسلم أخبر بأن المطعون شهيد، قالوا: لا ينبغي أن ندعو من أجل رفع شيء يكون لنا فيه الشهادة، بل نسلم الأمر إلى الله، وإذا شاء الله واقتضت حكمته أن يرفعه رفعه، وإلا أبقاه، ومن فنى بهذا المرض فإنه يموت على الشهادة التي أخبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم[1]. وقد نص أحمد بن محمد الطحطاوي الحنفي من أن كلمتهم متفقة على أنهم يصلون على موتى الوباء، ويدعون لهم عموما.[2] قال ابن حجر رحمه الله: (إن الاجتماع للدعوى برفع الوباء بدعة حسنة، فإذا اجتمعوا صلى كل واحد ركعتين ينوي بهما رفعه، قال: وهذه المسألة من حوادث الفتوى)[3]. وذكر الخرشي: أن الصلاة لدفع الوباء والطاعون جائزة، لأنه عقوبة، وإن كان الميت بالوباء والطاعون تحصل له شهادة، فيصلون أفذاذا، وقيد الأمر إذا لم يجمعهم إمام، وفي هذه الحالة الأمر مستعص في جمع الإمام للناس على الصلاة، لكون فيروس كورنا ينتقل بسرعة مفرطة، قال الخرشي مسترسلا كلامه: وهل يصلون ركعتين أو أكثر، ذكر بعضهم عن اللخمي أنه يستحب ركعتان ولم أره له.[4]

قال الإمام الخرشي أيضا: وإنما شرعت الصلاة أفذاذا على موت الوباء لأنه أمر يخاف منه[5].

ويندب صلاة ركعتين عند الفزع من الوباء وغيره، لأنه آية من آيات الله تعالى، يخوف بها الله عباده ليتركوا المعاصي، ويرجعوا إلى طاعته، فينبغي عند وقوعها الرجوع إليه تعالى بالعبادة.

وصلاتها كالنوافل العادية بلا جماعة ولا خطبة، ولا يسن فعلها في المسجد، بل الأفضل أن تؤدى بالمنازل[6]،وهذا متفق عليه عند المالكية والحنفية[7].

1 الفواكه الدواني، ج 4 ص 43، وحاشية العثيمينية على زاد المستقنع لأبي البهاء حازم خنفر، ج 1 ص 106.
2 حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح لأحمد بن محمد بن إسماعيل الطحطاوي الحنفي، ج 1 ص 547.
3 المصدر السابق، ج 1 ص 547.
4 شرح مختصر خليل للخرشي لمحمد بن عبد الله الخرشي المالكي، ج1 ص 351.
5 المصدر السابق، ج1 ص 351.
6 فقه العبادات في المذهب المالكي للحاجة كوكب عبيد، ج 1 ص 199.
7 الفقه على المذاهب الأربعة: لعبد الرحمن بن محمد بن عوض الجزايري، ج 1 ص 334.

وجعلت الصلاة في البيوت، وأغلقت المساجد لعدم تفشي هذا الفيروس في صفوف المصلين، وقد تفطنت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية لهذا الأمر، ولها فيما ذهبت إليه سند شرعي مستمد من السنة النبوية وآراء الفقهاء، وتفصيل ذلك كالآتي:

اختلف الفقهاء في مسألة حضور الجماعة والجماعات عند حلول الوباء في المساجد على ثلاثة أقوال :

القول الأول: يمنع المريض بمرض معد من المسجد وحضور الجمعة والجماعات، وهذا قول جمهور الفقهاء من الشافعية، والحنابلة، وبعض المالكية،[1] وقد استدل أصحاب هذا القول بعدة أدلة منها:

1- حديث" لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، وفر من المجذوم فرارك من الأسد"[2].

وجه الاستدلال أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن مخالطة المريض بمرض معد للأصحاء، لئلا يكون قدر الله على المختلط به مثل دائه، وحضور المريض لأداء الصلوات جماعة مظنة لهذا الاختلاط.

2- حديث "لا ضر ولا ضرار"[3] حيث إن المصلين يتأذون من المريض المصاب بمرض معد أشد من تأثرهم بمن يأكل البصل والثوم، وقد أمرهما النبي صلى الله عليه وسلم بأن لا يقربا مسجدنا.

القول الثاني: لا يُمنع المريض بمرض معد من المسجد وحضور الجمعة والجماعات، كصلاة العيد وأداء الحج والعمرة، وهو قول عند المالكية[4]، واستدلوا بالأثر الذي رواه مالك في الموطأ: عن عمر بن

---

1 مواهب الجليل ج 2 ص 184،حاشية الدسوقي لمحمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي، ج 1 ص 389، التاج الإكليل: لأبي عبد الله المواق المالكي، ج 2 ص 556.

2 أخرجه البخاري معلقا، "كتاب الطب، باب الجذام، حديث رقم 5707، ومسلم "كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة، حديث رقم 2220.

3 أخرجه ابن ماجة في الأحكام، باب من بني في حقه ما يضر بجاره رقم الحديث 2340 عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وأخرجه ابن ماجة أيضا رقم الحديث 2341 عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه مالك في الموطأ، ج 2 ص 745 مرسلا، وللحديث طرق كثيرة يتقوى بها، ولذلك حسنه النووي في الأربعين 32.

4 مواهب الجليل، ج 2 ص 184، وحاشية الدسوقي، ج 1 ص 389.

الخطاب رضي الله عنه أنه مر بامرأة مجذومة وهي تطوف بالبيت، فقال لها: يا أمة الله، لا تؤذي الناس، لو جلست في بيتك؛ فجلست، فمر بها رجل بعد ذلك قال لها: إن الذي كان نهاك قد مات فاخرجي، فقالت: " ما كنت لأطيعه حيا وأعصيه ميتا".[1] ووجه الاستدلال به: أن عمر رضي الله عنه لم يعزم عليها بالنهي عن الطواف ودخول البيت، وإنما خاطبها على سبيل الرفق من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

القول الثالث: تسقط عنهم صلاة الجمعة والجماعات إذا لم يجدوا موضعا يتميزون فيه عن الناس، وأما لو وجدوا وجبت عليهم ومنعت المخالطة، وهذا أحد الأقوال عند المالكية. واستدلوا: بأنهم يمنعون من حضور المسجد لتضرر الناس بهم، فإذا وجدوا مكانا يصلون فيه ولا يلحق ضررهم بالناس، فإن الجمعة والجماعات واجبة عليهم.

الرأي الراجح: بعد عرض هذه الأقوال والذي يظهر والله أعلم رجحان قول أصحاب الرأي الأول، وهو منع المريض بمرض معد كوباء كورونا المستجد من حضور المسجد والجمعة والجماعات لمظنة نقل العدوى وتفشي الوباء بين الناس، فيحصل لهم الضرر الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم في قوله " لا ضرر ولا ضرار". ويمكن أن يستدل لهذا القول أيضا بما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه أنه كان هناك رجل مجذوم في وفد ثقيف الذي جاء مبايعا للنبي صلى الله عليه وسلم فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم " إنا قد بايعناك فارجع"[2]. فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يمنع هذا الرجل من دخول المسجد فحسب بل منعه من دخول المدينة حماية لها من الوباء.

د - حكم التيمم للأطباء أثناء ممارسة عملهم في جائحة كورونا:

إن العبادة فرضها الله عز وجل على المسلمين، وأمرهم أن يعبدوه على الكيفية التي جاء بها القرآن والسنة النبوية المطهرة، وأن يمتثلوا أمر الله في الا تباع، ويجتنبوا في النهي والابتداع، والشريعة جاءت باليسر لا العسر، وبرفع الحرج ودفع المشقة على الأمة، فقال جل وعلا ﴿**وَمَا جَعَلَ**

1 المصدر السابق، ج 2 ص 184 .

2 أخرجه مسلم في صحيحه، "كتاب السلام"، باب اجتناب المجذوم ونحوه، حديث رقم 2231.

﴿عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾[1]"، والمشقة تجلب التيسير، والله عز وجل يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه، فكان من الواجب على الأمة أن تحافظ على دينها في السفر والحضر، في الأمن والخوف، فالصلاة لم تسقط على الأمة وهي في ساحة المعركة تجاهد، فكيف تسقط في حالة الوباء؟، وما قيل في حق مجموعة من الأطباء المجندين ليل نهار لمعالجة المرضى والمصابين بالفيروس من سقوط الصلاة عنهم هو أمر غير شرعي لأن الصلاة لا تسقط عنهم، وهم ملزمون بأدائها وترتيب القيام بها لأنها عماد الدين، وهي أساس الشريعة ومبناها.

لكن الهيئة التي يشتغلون بها طوال النهار والليل لا تستسيغ لهم القيام بالوضوء عند كل صلاة، ولأجل المحافظة على الصلاة في وقتها، ولرعاية الحالة التي يشتغل عليها مع هؤلاء الجنود من الهلع والخوف، وهم في ساحة القتال مع هذا الفيروس الفتاك، فكم من طبيب مات شهيدا وهو يعالج المرضى، فأفدى نفسه من أجل المصابين، فمادامت الشريعة السمحة ترخص لأصحاب الأعذار بالتيمم فليستفيدوا من هذه الرخصة الشرعية، فلصاحب العذر أن يتيمم، ويؤدي فريضة الله في وقتها، والحرج في الشرع مرفوع، والله عز و جل يقول ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ ﴾[2]والنبي صلى الله عليه وسلم يقول (إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين)[3]، والتشدد في الدين أمر غير مرغوب عنه، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول (إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم)[4] ويقول أيضا (يسروا ولا تعسروا بشروا ولا تنفروا)[5].

---

1 سورة الحج، الآية76 .

2 سورة التغابن، الآية 15 .

3 الحديث أخرجه البزار في مسنده، ج 2 ص 4، وأبو بكر الشافعي في " الغيلانيات"، ج 7 ص 96، من طريق محمد بن أبي حفصة، عن ابن شهاب، عن أبي مسلمة. قال الإمام البزار: ومحمد بن أبي حفصة، وثقه ابن معين في رواية ابن حبان وقال : يخطئ .

وقال ابن المديني : ليس به بأس . وللحديث شواهد وتوابع تقويه. ينظر بذل الإحسان بتقريب سنن النسائي "باب ترك التوقيت في الماء" ج 2 ص 66 وعمدة الأحكام الكبرى " باب البول يصيب الأرض وغيره"، ج 1 ص 43.

4 أخرجه البخاري ج 13 ص 251 ومسلم ج 4 ص 1831 من طريق أبي الزناد .

5 الحديث أخرجه الشيخين من حديث أنس بن مالك مرفوعا. جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد " باب الاقتصاد في العمل" ج 1 ص 38 . واللؤلؤ والمرجان "باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير" ج 2 ص 201 .

ومن نوازل ذلك أن ابن ناصر الدرعي سئل عن الراعي والزارع في الحرث والحصاد، أيجوز لهم التيمم ولو كانوا في مجاورة الماء أم لا؟ فأجاب بجواز التيمم لكل المذكورين إن عدم الماء في الوقت، أو خاف ضررا باستعماله في أعضاء وضوئه.[1] فإذا كان الشرع الحكيم رخص للأطراف السابقة بالتيمم لممارسة هذه الشعيرة العظيمة والحالة هذه أن بعضهم في الرعي والآخر يزرع أو يحصد، ولم يحصل لهم ضرر وهم في مجاورة الماء، فمن باب أولى وأحرى هؤلاء الأبطال الذين يسهرون ليل نهار، مقدمين المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وهم بين المطرقة والسندان: إما أن يؤدوا هذه الصلاة بوضوء معرضين أنفسهم للقتل فيثابون ولهم الأجر، أم يؤدونها بالتيمم ولهم أجران، أجر أداء الفريضة في وقتها، وأجر المحافظة على النفس التي هي أغلى من كل شيء، وقد عد الحفاظ عليها ضمن الكليات الخمس: الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل- التي بني عليها الدين الإسلامي.

خاتمة:

رغم تجدد المسائل والقضايا، والنوازل والأحكام، التي نزلت بالأمة الإسلامية قاطبة في كل أصقاع العالم، وفي ظل هذه الجائحة ومنذ الإعلان عن الحجر الصحي فإن الناس في أمس الحاجة إلى من ينور لها الدرب، وييسر لها السبيل، حتى تطمئن في عملها مع بارئها جل وعلا، لأن من مميزات الشريعة الحكيمة مسايرة الأحداث والوقائع، لا غلو فيه ولا تفريط، إذ الدين بكلياته مبني على التيسير ورفع الحرج، والأمة المحمدية مرحومة بنبيها الذي وصف بكونه رحيما صلى الله عليه وسلم، وما نزل هذا المصاب الجلل بالإنسان إلا لفقده الرحمة والشفقة على نفسه وعلى بني جلدته، فجاء ليمنح الدرس، ويوقظ الغافل، ويحفز الصابر، ويجزئ المصاب، وينبه المهموم، ومن تصدر كرسي الطغيان والكبرياء بعث إليه رسالة التنبيه ليراجع نفسه قبل فوات الأوان، فكان الحجر الصحي بمثابة المصالحة، مصالحة العباد مع ربهم، ومع ذويهم وجيرانهم وأقربائهم، وليختلي العبد بخالقه، ويجدد الصلة بكتاب الله القرآن، ويعتني بأبنائه وأفراد أسرته، فيعرف قدر مسؤولية البيت، فمن ثمة تنشأ الرحمة والمودة والسكينة والوقار، وقد أظهر هذا الوباء شجاعة رجال خدموا الوطن وقدموا تضحيات جسيمة لأجل إنقاذ أبناء وطنهم، فكانوا خير مثال ونموذج، فاستدعى الأمر من فقهاء الإسلام أن يوضحوا

1 النوازل الصغرى للمهدي الوزاني، ج 1 ص 65.

لهم أمورا تتعلق بمسايرتهم أوضاع المرضى داخل المستشفيات، من أداء شعيرة الإسلام التي هي الصلاة، مراعين "قاعدة التيسير" إذ الفروع الفقهية أصلها التيسير ورفع المشقة وإسقاط الحرج عن الأمة، ولموتى هذه الجائحة أحكام، سقنا بعضا منها، إذ لابد من مراعاة حرمة النفس البشرية من تطهير لها و الصلاة عليها مع استحضار الوسائل الوقائية للمحافظة على الأنفس التي ستقوم بهذا الفرض الكفائي، فإذا قام به البعض سقط الحكم عن الباقين، مع إكثار الدعاء لهم بالرحمة والمغفرة للمصابين بهذا الوباء الفتاك، نسأل الله أن يرفعه عنا وعن الأمة جمعاء عاجلا ليس آجلا، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

المصادر والمراجع

- الأساس في التفسير لسعيد حوى، الناشر دار السلام، الطبعة السادسة 1424هـ.
- بذل الإحسان بتقريب سنن النسائي لأبي إسحاق الحويني، الناشر مكتبة التربية الإسلامية لإحياء التراث، الطبعة الأولى 1410ه 1990م عدد الأجزاء 2.
- البيان والتحصيل لا بن رشد القرطبي، الناشر دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، الطبعة الثانية 1408 هـ 1988م .
- التوشيح شرح الجامع الصغير، لعبد الرحمن بن أبي جلال الدين السيوطي، الناشر مكتبة دار الرشد – الرياض، الطبعة الأولى 1419 هـ 1998م.
- التوضيح في شرح مختصر ابن الحاجب: لخليل بن إسحاق، الناشر مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث.
- التاج الإكليل: لأبي عبد الله المواق المالكي، الناشر دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1416هـ 1994 م.
- الجامع لمسائل المدونة: لأبي بكر محمد بن عبد الله بن يونس الصقلي، الناشر معهد البحوث العلمية، وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، عدد الأجزاء 24 الطبعة الأولى 1434 هـ 2013م .

- حاشية الروض المربع: لعبد الرحمان بن محمد بن قاسم العاصمي الحنبلي، الطبعة الأولى 1397هـ.
- حاشية ابن عابدين: لابن عابدين، الناشر دار الفكر، - بيروت، الطبعة الثانية 1412هـ 1992 م .
- حاشية العثيمينية على زاد المستقنع: لأبي البهاء حازم خنفر .
- حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح : لأحمد بن محمد بن إسماعيل الطحطاوي الحنفي،الناشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1418هـ 1997 م .
- حاشية الدسوقي: لمحمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي،الناشر دار الفكر، بدون تاريخ طبع.
- الذخيرة للإمام القرافي لشهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، الناشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى 1994م.
- شرح زروق على متن الرسالة: للشيخ زروق الفاسي، الناشر دار الكتب العلمية بيروت لبنان1427 هـ 2006 م .
- الشرح الممتع على زاد المستقنع: لمحمد بن صالح العثيمين، دار النشر دار ابن الجوزي الطبعة الأولى .
- شرح التلقين لأبي عبد الله محمد بن علي التميمي المازري، الناشر دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 2008 م .
- شرح مختصر خليل للخرشي: لمحمد بن عبد الله الخرشي المالكي، الناشر دار الفكر للطباعة، بيروت، بدون سنة الطبع .
- زاد المعاد في هدي خير العباد لا بن قيم الجوزية، الناشر مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية – الكويت الطبعة السابعة والعشرون، 1415هـ 1994 م.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية : لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، الناشر دار العلم الملايين- بيروت، الطبعة الرابعة 1407 هـ 1987م.

- عقد الجواهر الثمينة لابن شاس : الناشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1423 هـ 2003 م .
- العين لأحمد بن خليل الفراهيدي، الناشر مكتبة الشباب .
- الفتاوى الهندية لجنة العلماء برئاسة نظام الدين البلخي، الناشر دار الفكر الطبعة الثانية، 1310م .
- الفقه على المذاهب الأربعة: لعبد الرحمن بن محمد بن عوض الجزايري، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة 1424هـ 2003م .
- فقه العبادات في المذهب المالكي: الحاجة كوكب عبيد، الناشر مطبعة الإنشاء دمشق، بيروت المطبعة 1406هـ 1986م .
- الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني: لشهاب الدين النفراوي، الناشر دار الفكر.
- اللامع الصبيح بشرح الجامع الصغير: لشمس الدين البرماوي، الناشر دار النور بسوريا، الطبعة الأولى 1433هـ 2012 م .
- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان لمحمد فؤاد عبد الباقي، الناشر دار إحياء الكتب العربية، بتاريخ 1407هـ 1986م توزيع دار الريان.
- مجمل اللغة لا بن فارس "باب الواو والتاء وما يثلثهما" ج 1 ص 915 دار النشر مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة الثانية 1406 هـ 1986م.
- مسند سعد بن أبي وقاص: لأبي عبد الله أحمد بن إبراهيم المعروفي بالدورقي، دار البشائر الإسلامية بيروت- لبنان،الطبعة الأولى 1407 هـ .
- مسائل أبي الوليد ابن رشد القرطبي، تحقيق محمد الحبيب التجكاني، الناشر دار الجيل، بيروت، ودار الآفاق الجديدة بالمغرب، الطبعة الثانية 1414هـ 1993م .
- مفاتيح العلوم لمحمد بن أحمد البلخي الخوارزمي، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية .
- مقاييس اللغة لأحمد بن فارس القزويني، الناشر دار الفكر،طبعة 1399هـ 1979 م .

- منحة الباري بشرح صحيح البخاري لزكرياء بن محمد بن أحمد بن زكرياء الأنصاري، الناشر مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض المملكة العربية السعودية الطبعة الأولى 1426هـ 2005 م.
- مواهب الجليل للحطاب الرعيني المالكي، الناشر دار الفكر،الطبعة الثالثة 1412هـ 1992م.
- المواهب اللدنية بالمنح المحمدية لأحمد بن محمد القسطلاني، الطبعة دار الكتب العلمية.
- الموسوعة الفقهية الكويتية : صادر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – الكويتية.
- نفح العبير لأبي محمد عبد الله بن مانع بن غلاب، الروقي العتبي، الناشر مدار الوطن للنشر، الرياض المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى 1424 هـ.
- النوادر والزيادات: الناشر دار الغرب الإسلامي، بيروت الطبعة الأولى 1423 هـ 2003 م .
- النوازل الصغرى للمهدي الوزاني، الناشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1413 هـ 1993 م.

قصيدة: "محنة"

الدكتور أحمد خالد[1]

يغشى على غرة متشحا مكرا *** داء عضال من خميس كورونا
جائحة دهمت داني وقاصي الدنى *** تندح فيروسها فينشر الشجنا
يسيح في خلسة فلا يرى ظاهرا *** فيثخن جسدا وصبا كذا وهنا
لا تفلح الزرقاء تهجر رمسها *** لتكشف عن ضرر صار تنينا
ذاك وباء حائن غزا الكون *** مدججا جرثومة تهد ضنى
أناخ كالوافد اللئيم بغتا *** ينزع إلى هلاك البشر إحَنا
فانعزلت أمم وأوصدت سبلا *** ران الأسى مطبقا يرعب جنانا
فكم رزايا ترصدت فما سادت *** وباد هول عم الأنفس حزنا
كأنما ذعر يلوح أثباجا *** لاذ الوَرى بالمغاني ملجأ مأمنا
لكن لزوم المأوى ينبري واجبا *** ومسجد موصد يصدح أذانا
قسرا تواريـنا ننشد سكينة *** في عالم ضوع أونا زها أَرنا
صار اللثام وقاء يستر الأوجه *** تحصنا من سقم قد فشا زمنا
إماءة تلكم تحية اللقا *** حذرا من العدوى تطعن أبدانا
وآثروا النطق والحوار تنائيا *** نقذا من الخطب المحدق وصونا
ويرتجي الكل حجرا صحيا واقيا *** فينجلي كرب قض مضاجعنا
ويخسأ الأرذل في غيه سادرا *** يسعى بأراجيف يفتن الذهنا
لا يظفر مفتر يهذي اكاذيب *** هيهات لمن كان واهيا رسنا
إن البلايا والشدائد ذكرى *** وعبرة اسنى تنير وجدانا
والمحنة خبرة تستوجب جلدا *** وتقتضي أولي النهى عونا
ذوي الحجى شعت هداية سرمدا *** نصائح تترى تمور تضامنا

---

1 رئيس المجلس العلمي المحلي بالسطات سابقا.

نضرع للباري الحليم سبحانه *** ينبذ شؤما دهى البرية بالونى
يصرف عنا بلية كذا ترحا *** فيزدهي أنس يغمر أمانا
ويكلأ الخالق عاهلنا الأمجد *** السادس الأسمى القائد الصائنا
حامي حمى الدين ويشيد مفاخِر *** بعهده الأزهر موحدا وطنا
ويكنف الولي الابر والمرتضى *** والصنو أميرا ارشد ركينا

إضاءة:

- خميس: الجيش
- الوصب: المرض المزمن
- تنين: حيوان خرافي لايقهر
- حائن: أحمق.
- الاون: الدعة والرفق
- الأرن: النشاط والمرح.
- زرقاء اليمامة: امرأة اشتهرت بحدة النظر، تبصر على امتداد مسافة ثلاثة أيام حسب الرواية.

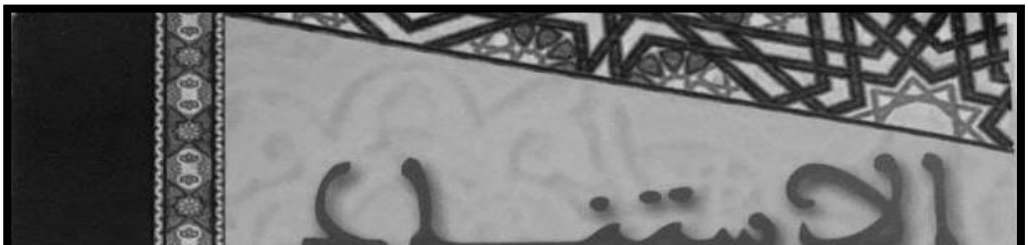

مجلة الاستناد
مجلة علمية محكمة تعنى بالدراسات الشرعية والعلوم الإنسانية - تصدر كل ستة أشهر
المدير المسؤول: الدكتور محمد خروبات
نقرؤون في هذا العدد:
الأيديولوجي والمعرفي في مركبات البحث العلمي:
السوسيولوجيا، الاستشراق، الدراسات الإسلامية.
وهم علمية المقاصد.
خاصية الفعل الماضي في القرآن الكريم.
صناعة الذكاء الوجداني في السيرة النبوية.
الإجازة القرآنية في العهد النبوي.
علم أصول التفسير: دراسة في المفهوم والقضايا.
في سبيل الإلمام بهدايات قول الله تعالى: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام).
Juifs et musulmans en Sud-est du Maroc
العدد الثاني - صيف 2019م

مجلة الاستناد

3

مجلة علمية محكمة تعنى بالدراسات الشرعية والعلوم الإنسانية تصدر بالمملكة المغربية

رقم الإيداع القانوني للمجلة: 2013PE0013 - ISSN: 2028-9979 - ملف الصحافة عدد: 05/2019 ص - النيابة العامة مراكش

المدير المسؤول / الأستاذ الدكتور محمد خرويات

العدد الثالث
شتاء عام 2020م

مجلة الاستناد
3
مجلة علمية محكمة تعنى بالدراسات الشرعية والعلوم الإنسانية تصدر بالمملكة المغربية
المدير المسؤول: الأستاذ الدكتور محمد خرويات
العدد الثالث شتاء عام 2020م

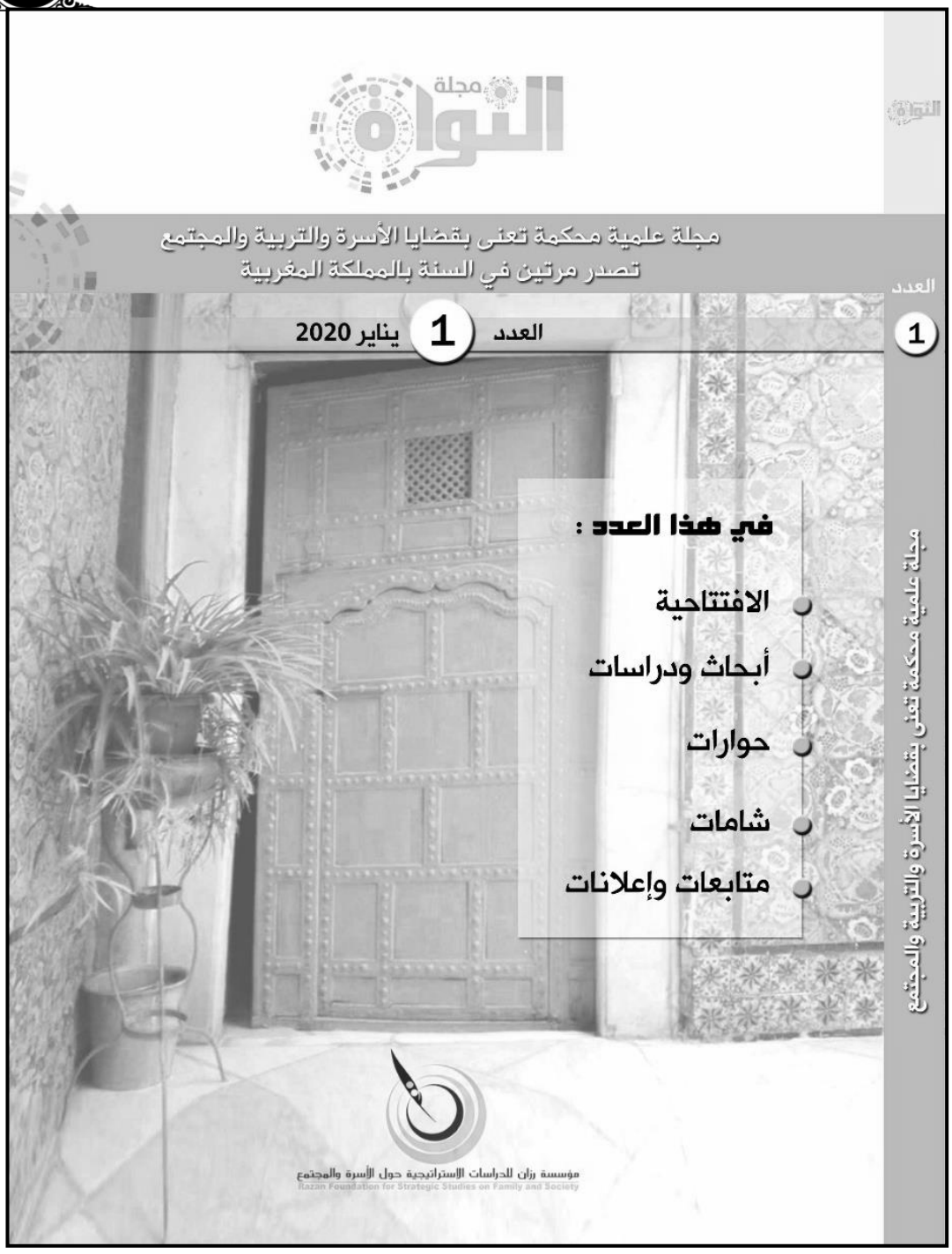
مجلة النواة
مجلة علمية محكمة تعنى بقضايا الأسرة والتربية والمجتمع
تصدر مرتين في السنة بالمملكة المغربية
العدد 1 يناير 2020
في هذا العدد :
الافتتاحية
أبحاث ودراسات
حوارات
شامات
متابعات وإعلانات
مؤسسة رزان للدراسات الاستراتيجية حول الأسرة والمجتمع
Razan Foundation for Strategic Studies on Family and Society
العدد 1
مجلة علمية محكمة تعنى بقضايا الأسرة والتربية والمجتمع

مؤسسة رزان للدراسات الاستراتيجية حول الأسرة والمجتمع
Razan Foundation For Strategic Studies on Family and Society

بناء الأسرة بين القيم والتحديات المعاصرة

طبعة مزيدة ومعدلة

تأليف:
الدكتور محمد خروبات